بسم الله الرحمن الرحيم

قصص النبيين

الجزء الأول

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

مجلس نشریات اسلام

۱۔ کے۔۳ ناظم آباد مینشن . ناظم آباد ۱ کراچی ۷۴۶۰۰

قصص النبيين

الجزُ الأوّل

تأليف

ابوالحسن علي الحسني الندويؒ

مجلس نشریات اسلام

۱-کے-۳ ناظم آباد مینشن ○ ناظم آباد ۱ ○ کراچی ۱۸

نام کتاب :	———	قصص النبیین (اوّل)
تالیف :	———	ابوالحسن علی الحسنی ندویؒ
طباعت :	———	
ضخامت :	———	۶۸ صفحات

فون ۶۶۰۱۸۱۷

اسٹاکسٹ : مکتبہ ندوۃ قاسم سینٹر اردو بازار کراچی۔

ناشر
فضلِ ربی ندوی

مجلس نشریات اسلام
۱۔کے۔۳ ناظم آباد مینشن، ناظم آباد ۱ کراچی ۷۴۶۰۰

فهرست الجزء الثالث

من قصص النبيين للأطفال

صفحة

مقدمة للأستاذ سيد قطب ---------- ٣

من كنعان إلى مصر ------------ ٥

بعد يوسف ---------------- ٧

بنو إسرائيل فى مصر ----------- ١٠

فرعون مصر --------------- ١٢

ذبح الأطفال --------------- ١٥

ولادة موسى --------------- ١٧

فى النيل ---------------- ١٩

	صفحة
فى قصر فرعون	٢١
من يرضع الطفل	٢٤
فى حجر أمه	٢٧
إلى قصر فرعون	٣٠
الضربة القاضية	٣٢
يظهر السر	٣٥
من مصر إلى مدين	٣٩
فى مدين	٤١
الطلب	٤٣
الزواج	٤٥
إلى مصر	٤٩
اذهب إلى فرعون إنه طغى	٥٢

	صفحة
إمام فرعون	٥٥
الدعوة إلى الله	٥٨
معجزات موسى	٦١
إلى الميدان	٦٤
بين الحق والباطل	٦٧
وعيد فرعون	٧١
سفاهة فرعون	٧٤
مؤمن آل فرعون	٧٩
نصيحة الرجل	٨٣
زوج فرعون	٨٧
محنة بنى إسرائيل	٩٢
المجاعات	٩٥

صفحة
خمس آيات ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ٩٩
الخروج ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٠٤
غرق فرعون ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٠٨
فى البرية ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١١٢
كفران بنى إسرائيل ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١١٥
عناد بنى إسرائيل ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١١٨
البقرة ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٢٠
الشريعة ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٢٤
التوراة ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٢٩
العجل ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٣٣
العقاب ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٣٦
جبن بنى إسرائيل ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٤٠

صفحة

في سبيل العلم ١٤٤

التأويل ١٥٠

بنو إسرائيل بعد موسى ١٥٢

فهرس المواضيع

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	
التنبيه	
قصة سيدنا شعيب عليه السلام	
(١) نظرة على القصص السابقة	١
(٢) قصة صراع بين الحق والباطل	〃
(٣) والى مدين أخاهم شعيبا	٢
(٤) دعوة شعيب عليه السلام	٣
(٥) أب رحيم ومعلم حكيم	٤
(٦) جواب قومه	٥
(٧) شعيب يشرح دعوته	〃
(٨) ما نفقه كثيرا مما تقول	٧
(٩) شعيب يتعجب من قومه	〃

الموضوع	رقم الصفحة
(١٠) السهم الأخير	٨
(١١) حجة قاطعة	〃
(١٢) بل قالوا مثلما قال الأولون	٩
(١٣) بلغ الرسالة وأدى الأمانة	〃
قصة سيدنا داؤد وسيدنا سليمان عليهما السلام	
(١) القرآن يتحدث عن آلاء الله	١١
(٢) نعمه الله على داؤد	١٢
(٣) شكره على هذه النعمة	١٣
(٤) نعمة الله على سليمان	〃
(٥) فقه دقيق وعلم عميق	١٤
(٦) سليمان يعرف لغة الطير والحيوان	١٥
(٧) قصة هدهد	١٦
(٨) سليمان يدعو ملكة سبأ إلى دينه	١٧
(٩) الملكة تستشير أركان دولتها	١٨
(١٠) هدية مساومة	١٩

الموضوع	رقم الصفحة
(١١) الملكة تأتي خاضعة	١٩
(١٢) قصر عظيم من زجاج	٢٠
(١٣) وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين	٢١
(١٤) القرآن يحكى قصة سليمان	٢٢
(١٥) وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا	٢٥
قصة سيدنا أيوب وسيدنا يونس عليهما السلام	
(١) قصة أيوب نمط آخر من القصص	٢٦
(٢) صبر أيوب	٢٧
(٣) محنة ومنحة	〃
(٤) قصة يونس وحكمتها	٢٨
(٥) يونس بين قومه	٢٩
(٦) يونس في بطن الحوت	٣٠
(٧) واستجاب الله دعاءه	٣١
قصة سيدنا زكريا عليه السلام	
(١) دعاء زكريا لولد صالح	٣٢

الموضوع	رقم الصفحة
(٢) نذر امرأة عمران	٣٣
(٣) قالت رب إني وضعتها أنثى	〃
(٤) عناية الله بالفتاة الصالحة	٣٤
(٥) إلهاماً من الرب الرحيم	٣٥
(٦) بشارة ولد	٣٦
(٧) آيات الله وقدرته	٣٧
(٨) يحيى يضطلع بأعباء الدعوة	〃
قصة سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام	
(١) قصة خارقة للعادة	٣٩
(٢) أمر كله عجب	٤٠
(٣) خضوع اليهود للأسباب الظاهرة	〃
(٤) استخفاف وتمرد	٤٢
(٥) نعمة الله على بني إسرائيل	٤٣
(٦) نكران للجميل	〃
(٧) زهو ودلال	٤٤

الموضوع	رقم الصفحة
(٨) ولادة المسيح تتحدى المحسوس المعروف	٤٤
(٩) معجزات للمسيح	٤٥
(١٠) دعوته إلى الدين وتكذيبه اليهود	٤٦
(١١) اليهود ينصبون له الحرب	٤٧
(١٢) قصة عيسى في القرآن	〃
(١٣) سيرته ودعوته في القرآن	٤٩
(١٤) صراع قديم	٥٠
(١٥) إيمان عامة الناس وفقرائهم	〃
(١٦) نحن أنصار الله	٥١
(١٧) سياحته ودعوته	〃
(١٨) الحواريون يطلبون مائدة السماء	٥٢
(١٩) سوء أدب	〃
(٢٠) تحذير قومه من سوء العاقبة	٥٣
(٢١) إلحاح وإصرار	〃
(٢٢) القرآن يحكى القصة	٥٤

الموضوع	الصفحة

(٢٣) اليهود يحاولون التخلص من سيدنا عيسى ٥٥

(٢٤) أسلوب الناقمين والسياسيين .... 〃

(٢٥) مكر ودهاء .... 〃

(٢٦) مشكلة ٥٦

(٢٧) سيدنا المسيح في المحكمة .... 〃

(٢٨) القانون الجنائي في ذلك العصر ٥٧

(٢٩) عيسى يتحمل الأذى ٥٨

(٣٠) تدبير إلهي .... 〃

(٣١) ولكن شبه لهم ٥٩

(٣٢) تنفيذ حكم ٦٠

(٣٣) رفع عيسى إلى السماء .... 〃

(٣٤) القرآن يتحدث عن القصة .... 〃

(٣٥) نزول عيسى عند القيامة ٦١

(٣٦) بشارته ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٦٢

(٣٧) من التوحيد الخالص إلى عقيدة غامضة ...... 〃

الموضوع	رقم الصفحة
(٣٨) عيسى يدعو إلى عبادة الله وحده	٦٤
(٣٩) القرآن يصرح بدعوة عيسى	٦٥
(٤٠) منزلة التوحيد فى دعوته	〃
(٤١) مشهد رائع من مشاهد القيامة	٦٦
(٤٢) من عقيدة غامضة إلى وثنية سافرة	٦٨
فهرس المواضيع	٧١

المقدمة

ابن [١] أخي العزيز !

أراك حريصاً على القصص والحكايات. وكذلك كل طفل في سنك. تسمع هذه القصص بكل رغبة، وتقرأها بكل رغبة، ولكنِّي أتأسّف لأني لا أرى في يدك إلا حكايات السَّنانير والكلاب والأسد والذئاب والقِرَدة والدِباب، وعلينا العُهدة في ذلك، فذلك هو الذي تجده مطبوعاً.

---

(١) محمد بن الدكتور عبد العلي الحسني ابن أخ المؤلف، وقد نبغ بحمد الله في العربية، وهو رئيس تحرير مجلة «البعث الاسلامي» الصادرة في لكنو الهند.

وقد بدأتَ تتعلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن والرسول ولغة الدين، ولك رغبة غريبة في درسها، ولكنِّي أخجل أنك لا تجد ما يوافق سِنّك من القصص العربية، إلا قصص الحيوانات، والأساطير والخرافات.

فرأيت أن أكتب لك ولأمثالك أبناء المسلمين قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم صلاة الله وسلامه) بأسلوب سهل يوافق سنك وذوقك، ففعلت. وهذا هو الكتاب الأوّل من «قصص النبيّين للأطفال» أهديه إليك.

وقد حاكيت فيه أسلوب الأطفال وطبيعتهم، فلجأت إلى تكرار الكلمات والجمل وسهولة الألفاظ وبسط القصة

وأرجو أن يكون هذا الكتاب الصغير أول

كتاب يقرأه الأطفال في اللغة العربية ويدرسونه في مدارسهم.

وسأتحفك إن شاء الله بقصص للأنبياء، ممتعة شائقة، واضحة سهلة، خفيفة جميلة، ثم لا يكون فيها شيء من الكذب.

أقرّ الله بك يا محمد عين أبويك وعمّك وعين الإسلام، وأعاد بك بركات آبائك على هذا البيت وعلى المسلمين...

علي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

أما بعد فقد ظهر الجزء الأول من «قصص النبيين للأطفال» وهو يشتمل عَلَى قصَّة سيِّدنا إبراهيم وقصَّة سيدنا يوسف عليهما صلوات الله وسلامه. فكان الاعتناء به كبيراً تخطَّى أمل المؤلف، فقد تلقاه رجال التعليم وأولياء الأطفال بحفاوة وترحيب ونوَّهت به المجلاَّت الإسلامية في عبارة قوية، ونشط الأطفال وتلاميذ المدارس الصغار لقراءته، ورغبوا فيها رغبة لم يكن المؤلف يترقبها، وقد قرأنا في أسارير جباههم الوضَّاحة، وفي ملامح وجوههم النيرة – وهم يقرأون هذا الكتاب – سطورَ السُّرور والنشاط، وسُرِرنا كثيراً وحمدنا الله لما سمعنا الصغار يحكون قصة سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف، وقد ذلَّت بها ألسنتهم، وهضمتها عقيلتهم الصغيرة.

كلُّ ذلك شَجَّعَنا عَلَى التقدُّم في هذا الطريق، وحثَّنا على إتمام هذه السلسلة. وها نحن أُولاَءِ نُتحف الصغار وأولياءهم الكبار بجزء آخر

من سلسلة «قصص النبيين للأطفال» مشتملا على قصة نوحٍ وقصة هودٍ وقصّة صالح عليهم السلام.

وفي ثنايا القصص ومطاويها فوائد تفسيرية وتاريخية، وأجوبة عن أسئلة خفية قد يتناجى بها الضمير.

وعلى المعلمين أن يطالبوا التلاميذ بحكاية هذه القصص ويكلّفوهم تلاوتها واستحضارها وإعادتها، فقد جرّبنا في ذلك فائدة كبيرة.

والله المسئول أن ينفع بالكِتاب طلبة العربية والناشئة الإسلامية، ويحبّب إليهم أشخاص الأنبياء وسيَرَهم، والاقتداء بهم، وبالله التوفيق.

علي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله وسلامٌ على عباده الّذين اصطفى.

أمّا بعد، فإنّ كاتب هذه السّطور يحمدُ الله على أنّه وفّقه ليعود إلى سلسلة «قصص النّبيّين للأطفال»، بعد فترة طالت مدّة ثلاثين سنةً، فقد كانت بداية هذه السلسلة في سنة ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م، وإتمامها على الجزء الثالث المشتمل على قصّة سيّدنا موسى - عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام - في سنة ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م، ثم شُغلَ المؤلّف بأعمال كتابيّة تأليفيّة أخرى، ورِحلات طويلة متوالية، صرفته عن إتمام هذه السّلسلة الّتي رزقها الله قبولاً عظيماً في حلقات التّعليم والمدارس الشّعبيّة والحكوميّة في شبه القارة الهنديّة والبلاد العربيّة، وصدرت لها طبعاتٌ في القاهرة وبيروت.

وألحّ بعض رجال التّعليم والتربية وقادة الفكر

علَى إتمام هذه السّلسلة بقصص مَن بَقيَ منَ الأنبياء بعد سيّدنا موسَىٰ ، وإكمالها بقصّة خاتم النّبيّين صلواتُ الله وسَلامهُ عليه، فهي مسك الختام ، ونهاية المطاف ، ورأَوا أنَّ هذا العمل أفضل وأجدى من كثير ممّا يَشغل المؤلِّفَ من الموضوعات الّتي يُعالجها ، وكان المؤلّف يشعرُ في بعض الأحيان بأنّ الأمر ما عادَ سهلاً له ، لبعد العهد به ، وأنّه يصعب عليه أن ينزل إلى مستوى الأطفال وأسلوبهم واللّغة الّتي يفهمونها ، ولكنّ الله يَسَّرله هذه المهمّة ، فوَضَعَ الجزء الرّابع في شهر رمضان سنة ١٣٩٥هـ ، وهوالّذي بين يدي القراء ، ثم وفّقه اللهُ لوضع الجزء الخامس المشتمل علَىٰ السّيرة النّبويّة على صاحبها الصّلاة والسّلام ، وسيَلي هذا الجزء إن شَاءَ الله ، والحمد لله الّذي بعزّته وجلاله تتمّ الصّالحات ، والصّلوٰة والسّلام على خير خلقه محمّد صلى الله عليه وسلم .

أبو الحسن علي الحسني النّدوي
دار العلوم ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)
١٦/ شوال سنة ١٣٩٦هـ

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد ؛ فان أكبر مجموعة من الكلمات وأبلغ بيان يقصران عن إيفاء حق الحمد والشكر لله تعالى . وعن التعبير عن السرور الذي يغمر قلب كاتب هذه السطور وهو يقدم الجزء الأخير لسلسلة « قصص النبيين للأطفال » وهو الجزء الخاص بسيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . وقد مدّ الله عمر الكاتب ورافقه التوفيق الآلهي فأكمل هذه السلسلة المباركة وختمها بختم هو مسك الختام . ولو عجَلتِ به منيته ومات قبل أن يكملها لحمل معه حسرة لا تنتهي . وحاجة في نفس يعقوب ما قضاها . وقد كان الشيء الزهيد من الأشغال والحوادث كافياً ليشغله عن وضع هذا الكتاب وإكمال هذه السلسلة . وفي تاريخ التأليف والكتابة وتراجم المؤلفين الكبار نماذج من السلاسل التي لم تكمل ، والأعمال التي لم تتم .

وقد تعرّض المؤلف نفسه لمثل هذا الخطر . فقد وقعت فترة مدة

ثلاثين سنة بين جزء « قصص النبيين » الذي انتهى الى قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وبين الجزء الذي ابتدأ بقصة سيدنا شعيب ، وانتهى الى قصة سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وما بالحياة ثقة ، وليس على ريب الزمان معوّل . ولكن أدركه اللطف الآلهي ، وحالفه التوفيق ، فشرع في وضع السيرة النبوية للأطفال على اثر انتهائه من تأليف الجزء الأخير من « قصص النبيين » وذلك في شوال سنة ١٣٩٥ هـ . وعكف على تأليف هذا الكتاب حتى انتهى في مدة قريبة . ثم اشتغل بتأليف الكتاب الكبير في السيرة النبوية وقد كان هذا الكتاب الصغير نواة هذا الكتاب الكبير وأساسه . ووفق لإتمامه في غرّة شوال سنة ١٣٩٦ هـ (١) .

وقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على تلخيص السيرة النبوية لابن هشام - الذي هو من أقدم كتب السيرة الموجودة الآن مطبوعة متداولة وأكثرها تأثيراً في النفوس والقلوب - مستنداً في ذلك الى بعض المراجع القديمة وكتب الصحاح - ولم ير المؤلف ضرورة إحالة القارىء الى هذه المراجع بقيد الصفحات والطبعات ، لأن الكتاب قد ألف للصغار الناهضين لا للباحثين والمحققين - مقتصراً على النصوص والروايات . لم أمزجها بالبحوث العلمية والتعليلات الفلسفية والشهادات الأجنبية ، لأن ذلك يشغل القارىء عن التشبع بروح

(١) أخرجته دار الشروق في جدة باسم « السيرة النبوية » ، وصدرت من القاهرة في ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هـ (ابريل ١٩٧٧ م) وجاء في ٤٧٥ صفحة بالقطع الكبير .

السيرة والتذوق بجمالها ، ولأن موضع هذه المباحث للكتاب الكبير الموسع في موضوع السيرة ، الذي كتب للمتوسعين في الثقافة ، المتقدمين في مداركهم العقلية والعلمية ، المواجهين للتساؤلات العصرية والكلامية ، والدراسات المقارنة .

ولم أتقيّد في هذا الكتاب بالالتزامات التي التزمتها في الأجزاء الأولى من « قصص النبيين للأطفال » من محاكاة أسلوب الأطفال ، وطبيعتهم وتكرار الكلمات والجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصة ، فقد شبّ هؤلاء القراء الصغار عن طوقهم ، وتقدموا في ثقافتهم اللغوية ... ودرجتهم العقلية ، فأصبحوا قادرين على إساغة هذا الغذاء العلمي العقلي ، والتذوق لهذه القصة الرائعة لحياة أكبر إنسان وأشرف نبي .

وهكذا جاء الكتاب - بحول الله تعالى - وسطاً بين الكتب التي ألفت في [illegible] لكبار النابغين ، والكتب التي ألفت للصغار الناهضين ، فهو جدير بأن يدرسه الصغار المراهقون في مدارسهم ، ويقرأه الكبار المتوسطون في مكتباتهم ومنازلهم ، ويقدم كذلك إلى غير المسلمين ، أو ينقل إلى لغات أجنبية وقد جاءت فيه خلاصة السيرة ولبابها ، وروائع حكاياتها وأخبارها ، وتاريخ الدعوة الاسلامية الأولى وفتوحها وانتصاراتها ، وعجائب التربية النبوية ومعجزاتها ، فأصبح الكتاب مدرسة كاملة ينشأ فيها الطالب بين إيمان وحنان ويتقلب بين روح وريحان ، ويخرج منها وقد حمل معه الزاد الذي يسايره في حياته ، والنور الذي يسير في ضوئه ، والسلاح الذي يدافع به عن نفسه وإيمانه ، والرسالة التي يحملها للعالم والأمم .

ولما كان الكتاب قد أُلف لتلاميذ المدارس الثانوية وما شاكلها ، رأى المؤلف ضرورة شرح المفردات الغريبة ، وما هي فوق مستوى هؤلاء القراء الصغار ، فطلب من الأستاذ نور عالم الأميني الندوي ، وهو يمارس التدريس في دار العلوم ندوة العلماء ، ويعرف مستوى أمثال هؤلاء التلاميذ الثقافي ، أن يتناولها بالشرح والايضاح ، فقام بذلك مشكوراً ، جزاه الله خيرا .

وأخيراً لا آخراً أحمد الله على هذا التوفيق وأشكره على آلائه ونعمه ، وأسأله القبول وأن ينفع به الجليل الجديد ، والناشئة المسلمة التي تحيط بها العواصف وتفرش في طريقها الأشواك .

والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ...

١٥/من ذي القعدة ١٣٩٧ هـ
٢٩/اكتوبر ١٩٧٧ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
دارة الشيخ علم الله
رأى بريلى

تصـــــدير

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

بفضل الله وحده تتم الصالحات، وتكمل الأعمال، وتتحقق الآمال، وقد كان من دواعي غبطتي وسروري أن أقدّم منذ حين إلى قراء العربية الجزء الأول من «قصص النبيين» لأخي الداعية الجليل السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى وكيل ندوة العلماء بالهند، وهأنذا أسعد مرة ثانية حين أقدّم الجزء الثاني من هذه السلسلة الإسلامية المفيدة، التي تدل عَلَى ما وهبه الله جل جلاله لأخينا البحاثة الإسلامي من إيمان عميق، ويقين وثيق، وغيرة عَلَى الدين صادقة، ورغبة قوية في العودة بالناس إلى هدى الله وأدب القرآن المجيد . . .

وإذا كانت هذه السلسلة من قصص الأنبياء قد وُضعت أوّل الأمر لأطفال المسلمين في الهند، حتى تربطهم منذ

نشأتهم بدينهم ولغة قرآنهم ، فإنها صالحة كذلك لتوضع بين أيدى الأطفال المسلمين فى سائر الأقطار العربية ، لتمدهم بالغذاء الدينى الروحى العاطر ، الذى يهذب نفوسهم ، ويقوّم أخلاقهم ، ويزودهم بأطيب المتاع : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يا أُولِى الْأَلْبَابِ » .

وما أجدر ولاة الأمور فى الأقطار الإسلامية والبلاد العربية أن يقدّروا هذا المجهود الطيب الخالص ، فيشجعوه ويؤيدوه ، بأن يقرروه بين كتب المطالعة والثقافة لناشئتهم ، فإن فى ذلك جمعاً لشباب المسلمين عَلَى مورد ثقافى إسلامى واحد ، وتقريباً بين مجتمعاتهم ونزعاتهم ، وعملا عَلَى تحقيق الوحدة الإسلامية فيما بينهم ، تلك الوحدة التى دعا إليها القرآن ، وباركتها يد الرحمن حين قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . وقال : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

ولست محتاجاً إلى الإفاضة فى الإشادة بما وهب الله لأخينا المفضال السيد أبى الحسن من مواهب يُغبط عليها عند كرام الرجال ، ويحسد عليها عند لئامهم ، فحسبه فخراً أن يوفقه الله فيؤلف كتباً للخاصة ، تعلو وتدق ، وتتسع وتعمق ، وتسير بين القارئين الكبار ، فتشرّق وتغرب ، بعد أن ازدانت بالفكرة السليمة ، والأسلوب الرفيع ، والتحليق السامى ؛ ثم يوفقه الله أيضاً إلى أن يقرّب بعبارته السهلة وبيانه الرقيق أهدافَ القصة القرآنية إلى عقول الناشئة المسلمة ، « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وأرجو أن يديم الله صاحبُ الفضل والطول عَلَى المؤلف الكريم توفيقَه ، وأن يعزّ به كلمة الإسلام ، وأن ينفعَ بجهوده المسلمين . إنه أكرم مسئول ، وأفضل مأمول

أحمد الشرباصي

« القاهرة » المدرس بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

من كسر الأصنام؟

١ – بائع الأصنام

قَبْلَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ. كَثِيرَةٍ جِدّاً.
كانَ فِي قَرْيَةٍ رَجُلٌ مَشْهُورٌ جِدّاً.
وَكَانَ اسْمُ هٰذَا الرَّجُلِ آزَرَ.
وَكَانَ آزَرُ يَبِيعُ الْأَصْنَامَ.
وَكَانَ فِي هٰذِهِ الْقَرْيَةِ بَيْتٌ كَبِيرٌ جِدّاً.
وَكَانَ فِي هٰذَا الْبَيْتِ أَصْنَامٌ، أَصْنَامٌ كَثِيرَةٌ جِدّاً.
وَكَانَ النَّاسُ يَسْجُدُونَ لِهٰذِهِ الْأَصْنَامِ.

وَكَانَ آزَرُ يَسْجُدُ لِهٰذِهِ الْأَصْنَامِ.
وَكَانَ آزَرُ يَعْبُدُ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ.

٢ – ولد آزر

وَكَانَ آزَرُ لَهُ وَلَدٌ رَشِيدٌ، رَشِيدٌ جِدّاً.
وَكَانَ اسْمُ هٰذَا الْوَلَدِ إِبْرَاهِيمَ.
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَرى النَّاسَ يَسْجُدُونَ لِلْأَصْنَامِ.
وَيَرَى النَّاسَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ.
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَعْرِفُ أَنَّ الْأَصْنَامَ حِجَارَةٌ.
وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَتَكَلَّمُ وَلَا تَسْمَعُ.
وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.
وَكَانَ يَرَى أَنَّ الذُّبَابَ يَجْلِسُ عَلَى الْأَصْنَامِ فَلَا تَدْفَعُ
وَكَانَ يَرَى الْفأرَ يَأْكُلُ طَعَامَ الْأَصْنَامِ فَلَا تَمْنَعُ.
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لِمَاذَا يَسْجُدُ النَّاسُ لِلْأَصْنَامِ؟

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: لِمَاذَا يَسْأَلُ النَّاسُ الْأَصْنَامَ؟

٣ – نصيحة إبراهيم

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ لِوَالِدِهِ:
يَا أَبِي، لِمَاذَا تَعْبُدُ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ؟
وَيَا أَبِي لِمَاذَا تَسْجُدُ لِهٰذِهِ الْأَصْنَامِ؟
وَيَا أَبِي لِمَاذَا تَسْأَلُ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ؟
إِنَّ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَتَكَلَّمُ وَلَا تَسْمَعُ!
وَإِنَّ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ!
وَلِأَيِّ شَيْءٍ تَضَعُ لَهَا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؟
وَإِنَّ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ يَا أَبِي لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ!
وَكَانَ آزَرُ يَغْضَبُ وَلَا يَفْهَمُ.
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَنْصَحُ لِقَوْمِهِ، وَكَانَ النَّاسُ يَغْضَبُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا أَكْسِرُ الْأَصْنَامَ إِذَا ذَهَبَ النَّاسُ، وَحِينَئِذٍ يَفْهَمُ النَّاسُ.

٤ – إبراهيم يكسر الأصنام

وَجَاءَ يَوْمُ عِيدٍ فَفَرِحَ النَّاسُ.
وَخَرَجَ النَّاسُ لِلْعِيدِ وَخَرَجَ الْأَطْفَالُ
وَخَرَجَ وَالِدُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: أَلاَ تَخْرُجُ مَعَنَا؟
قَالَ إِبْرَاهِيمُ: أَنَا سَقِيمٌ!
وَذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْبَيْتِ.
وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْأَصْنَامِ، وَقَالَ لِلْأَصْنَامِ:
أَلاَ تَتَكَلَّمُونَ؟ أَلاَ تَسْمَعُونَ؟
هٰذَا طَعَامٌ وَشَرَابٌ! أَلاَ تَأْكُلُونَ؟ أَلاَ تَشْرَبُونَ؟
وَسَكَتَتِ الْأَصْنَامُ لِأَنَّهَا حِجَارَةٌ لاَ تَنْطِقُ.
قَالَ إِبْرَاهِيمُ: (مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ).

وَسَكَتَتِ الْأَصْنَامُ وَمَا نَطَقَتْ.
حِينَئِذٍ غَضِبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْفَأْس.
وَضَرَبَ إِبْرَاهِيمُ الْأَصْنَامَ بِالْفَأْسِ وَكَسَرَ الْأَصْنَامَ.
وَتَرَكَ إِبْرَاهِيمُ الصَّنَمَ الْأَكْبَرَ وَعَلَّقَ الْفَأْسَ فِي عُنُقِهِ

٥ – من فعل هذا ؟

وَرَجَعَ النَّاسُ ودَخَلُوا فِي بَيْتِ الْأَصْنَامِ.
وَأَرَادَ النَّاسُ أَنْ يَسْجدُوا لِلْأَصْنَامِ لِأَنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ.
وَلَكِنْ تَعَجَّبَ النَّاسُ وَدَهِشُوا.
وَتَأَسَّفَ النَّاسُ وَغَضِبُوا.
قَالُوا: (مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا) ؟
(قَالُوا: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ).
(قَالُوا: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)
(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هٰذَا فَاسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا

يَنْطِقُونَ).

وَكَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ أَنَّ الْأَصْنَامَ حِجَارَةٌ.

وَكَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الحِجَارَةَ لاَ تَسْمَعُ ولاَ تَنْطِقُ.

وَكَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الصَّنَمَ الْأَكْبَرَ أَيْضاً حَجَرٌ.

وأَنَّ الصَّنَمَ الْأَكْبَرَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَمْشِيَ ويَتَحَرَّكَ.

وَأَنَّ الصَّنَمَ الْأَكْبَرَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكْسِرَ الْأَصْنَامَ.

فَقَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَنْطِقُ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَإِنَّها لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ؟.

وَكَيْفَ تَسْأَلُونَ الْأَصْنَامَ وَإِنَّها لَا تَنْطِقُ وَلَا تَسْمَعُ؟

أَلَا تَفْهَمُونَ شيْئاً، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟.

وَسَكَتَ النَّاسُ وَخَجِلُوا!.

٦ – نارٌ باردة

اجْتَمَعَ النَّاسُ وَقَالوا: مَاذا نَفْعَلُ؟
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَسَرَ الْأَصْنَامَ وَأَهَانَ الآلِهَةَ!
وَسَأَلَ النَّاسُ: مَا عِقَابُ إِبْرَاهِيمَ؟ مَا جَزَاءُ إِبْرَاهِيمَ؟
كانَ الْجَوابُ: «حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ».
وَهٰكَذَا كانَ: أَوْقَدُوا نَاراً وَأَلْقَوْا فِيهَا إِبْرَاهِيمَ.
وَلٰكِنَّ اللهَ نَصَرَ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لِلنَّارِ:
«يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ».
وَهٰكَذَا كانَ، كانَتِ النَّارُ بَرْداً وسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ
وَرَأَى النَّاسُ أَنَّ النَّارَ لَا تَضُرُّ إِبْرَاهِيمَ.
وَرَأَى النَّاسُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مَسْرُورٌ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَالِمٌ
وَدَهِشَ النَّاسُ وَتَحَيَّرُوا.

٧ - مَن رَبِّي

وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى إِبْرَاهِيمُ كَوْكَباً، فَقَالَ: هٰذَا رَبِّي.
وَلَمَّا غَابَ الكَوكَبُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا! هٰذَا لَيْسَ بِرَبِّي!
وَرَأَى إِبْرَاهِيمُ الْقَمَرَ فَقَالَ: هٰذَا رَبِّي.
وَلَمَّا غَابَ الْقَمَرُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا! هٰذَا لَيْسَ بِرَبِّي!
وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ».
وَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ فِي اللَّيْلِ قَالَ إبراهِيمُ: لَا! هٰذَا لَيْسَ بِرَبِّي.
إِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.
إِنَّ اللهَ باقٍ لَا يَغِيبُ.
إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

وَالْكَوْكَبُ ضَعِيفٌ يَغْلِبُهُ الصُّبْحُ.
وَالْقَمَرُ ضَعِيفٌ تَغْلِبُهُ الشَّمْسُ.
وَالشَّمْسُ ضَعِيفَةٌ يَغْلِبُهَا اللَّيْلُ وَيَغْلِبُهَا الْغَيْمُ.
وَلَا يَنْصُرُنِي الْكَوْكَبُ لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ.
وَلَا يَنْصُرُنِي الْقَمَرُ لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ.
وَلَا تَنْصُرُنِي الشَّمْسُ لِأَنَّها ضَعِيفَةٌ.
وَيَنْصُرُنِي اللهُ.
لِأَنَّ اللهَ حَيٌّ لا يمُوتُ.
وباقٍ لاَ يَغِيبُ.
وَقَوِيٌّ لَا يَغلِبُهُ شَيْءٌ .

٨ - ربِّيَ اللهُ

وَعَرَفَ إبراهيمُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ.
لِأَنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يمُوتُ .

وَأَنَّ اللهَ باقٍ لَا يَغِيبُ.
وَأَنَّ اللهَ قَوِيٌّ لَا يَغْلِبُهُ شيْءٌ.
وَعَرَفَ إبراهِيمُ أَنَّ اللهَ رَبُّ الْكَوكَبِ!
وَأَنَّ اللهَ رَبُّ الْقَمَرِ!
وَأَنَّ اللهَ رَبُّ الشَّمْسِ!
وَأَنَّ اللهَ رَبُّ الْعَالمِينَ!
وَهَدَى اللهُ إبراهِيمَ وَجَعَلَهُ نبيًّا وَخلِيلًا.
وَأَمَرَ اللهُ إبراهِيمَ، أَنْ يَدْعُوَ قَوْمَهُ ويَمْنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

٩ - دعوَةُ إبراهيمَ

وَدَعَا إبراهِيمُ قَوْمَهُ إلَى اللهِ وَمَنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ
قَال إبراهِيمُ لِقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟
«قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً».

قالَ إبراهيمُ :

« هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ » .

« أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ » .

« قَالُوا بلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كذٰلِكَ يَفْعَلُونَ »

قالَ إبراهيمُ : فأَنَا لَا أَعْبُدُ هٰذِهِ الْأَصْنَامَ .

بَلْ أَنَا عَدُوٌّ لِهٰذِهِ الْأَصْنَامِ .

أَنَا أَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

« الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين » .

« والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » .

« وإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين » .

« والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين » .

وَإنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَخْلُقُ ولَا تَهْدِي .

وَإنَّهَا لاَ تُطْعِمُ أَحَداً وَلَا تَسْقِي .

وَإذَا مَرِضَ أحَدٌ فَهِيَ لَا تَشْفِي .

وَإِنَّهَا لَا تُمِيتُ أَحَداً وَلَا تُحْيِي.

١٠ – أمام الملكِ

كانَ فِي المُدِينَةِ مَلِكٌ كَبِيرٌ جِداً، وَظَالِمٌ جِدًّا.
وكانَ النَّاسُ يَسْجُدُونَ للْمَلِكِ.
وسَمِعَ المَلِكُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَسْجُدُ للهِ ولَا يَسْجُدُ لِأَحَدٍ
فغَضِبَ المَلِكُ وطَلَبَ إِبْرَاهِيمَ.
وجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، وكَانَ إِبْرَاهِيمُ لَا يخَافُ أحداً إلَّا الله
قَالَ المَلِكُ: مَنْ ربُّكَ يا إِبْرَاهِيمُ؟
قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ اللهُ!
قال المَلِكُ: مَنِ اللهُ يا إِبْرَاهِيمُ؟
قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ».
قَالَ المَلِكُ: «أَنَا أُحيِي وأُمِيتُ».
ودَعَا المِلِكُ رَجُلًا وقَتَلَهُ.
ودَعَا رَجُلاً آخَرَ وتَرَكَهُ.

وقَالَ: أنا أُحيي وأُمِيتُ، قَتَلْتُ رَجُلاً وتركْتُ رَجُلاً
وكَانَ المِلكُ بلِيداً جدّاً، وكَذَلِكَ كلُّ مُشْرِكٍ.
وأرادَ إبْراهيمُ أنْ يَفْهَمَ المِلكُ، ويَفْهَمَ قَوْمُه.
فقَالَ إبْراهيمُ للمَلِكِ: «فَإِنَّ اللهَ يأتي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ».
فَتَحَيَّرَ المِلكُ وَسَكَتَ.
وخَجِلَ المِلكُ، ومَا وجَدَ جَواباً.

١١ - دعوةُ الوالد

وأرادَ إبراهيمُ أنْ يَدْعُوَ والدَهُ أيْضاً، فقَالَ لَهُ:
«يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ».
ولِمَ تَعْبُدُ ما لَا يَنْفَعُ ولَا يَضُرُّ.
«يا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ»!
يا أبَتِ اعْبُدِ الرَّحْمٰنَ!

وغَضِبَ والِدُ إبراهيمَ، وقالَ: أنا أضرِبُكَ، فاترُكْني ولاَ تَقُلْ شَيْئاً.

وكَانَ إبراهيمُ حَلِيماً، فقَالَ لِوالِدِهِ: «سَلامٌ عَلَيْكَ» وقَالَ لَهُ: أَنَا أَذْهَبُ مِنْ هُنَا وأَدْعُو رَبِّي. وتَأَسَّفَ إبْرَاهيمُ جِدًّا، وأرادَ أنْ يَذْهَبَ إِلَى بلَدٍ آخرَ، ويَعْبُدَ رَبَّهُ، وَيدْعُوَ النَّاسَ إِلَى اللهِ.

١٢ – إلى مكة

وَغَضِبَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَغَضِبَ الْمَلِكُ وَغَضِبَ وَالِدُ اِبْرَاهِيمَ.

وَأَرَادَ اِبْرَاهِيمُ أَنْ يُسَافِرَ اِلَى بَلَدٍ آخرَ ويَعْبُدَ فِيهِ اللهَ وَيَدْعُوَ النَّاسَ اِلَى اللهِ.
وَخَرَجَ إِبْرَاهيمُ مِنْ بَلَدِهِ وَوَدَّعَ وَالِدَهُ.

وَقَصَدَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَمَعَهُ زَوْجُهُ هَاجَرُ.
وَكَانَتْ مَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا عُشْبٌ وَلاَ شَجَرٌ.
وَكَانَتْ مَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا بِئْرٌ وَلاَ نَهَرٌ.
وَكَانَتْ مَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا حَيَوَانٌ وَلاَ بَشَرٌ.
وَوَصَلَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَّةَ وَنَزَلَ فِيهَا.
وَتَرَكَ إِبْرَاهِيمُ زَوْجَهُ هَاجَرَ وَوَلَدَهُ إِسْمٰعِيلَ
وَلَمَّا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْهَبَ قَالَتْ زَوْجُهُ هَاجَرُ
إِلَى أَيْنَ يَا سَيِّدِي؟ أَتَتْرُكُنِي هُنَا؟
أَتَتْرُكُنِي وَلَيْسَ هُنَا مَاءٌ وَلاَ طَعَامٌ!
هَلْ أَمَرَكَ اللّٰهُ بِهٰذَا؟
قَالَ إِبْرَاهِيمُ: نَعَمْ!
قَالَتْ هَاجَرُ: إِذاً لاَ يُضِيعُنَا!

١٣ – بئر زمزم

وَعَطِشَ إِسْمٰعِيلُ مَرَّةً، وَأَرَادَتْ أُمُّهُ أَنْ تَسْقِيَهُ مَاءً

وَلٰكِن أَيْنَ الْمَاءُ؟ وَمَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا بِئْرٌ ، وَمَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا نَهَرٌ ! وَكَانَتْ هَاجرُ تَطْلُبُ الْمَاء وَتَجْرِي مِنَ الصَّفَا إِلَى الْمَرْوَةِ ومِنَ الْمَرْوَةِ إِلَى الصَّفَا .

وَنَصَرَ اللّٰهُ هَاجرَ ونصَرَ إسْمٰعِيلَ فَخَلَقَ لَهُمَا مَاءً . وخَرَجَ المَاءُ مِنَ الْأَرْضِ وَشَرِبَ إسْمٰعِيلُ وشَرِبَتْ هَاجرُ وَبَقِيَ الْماءُ فكَانَ بِئْرَ زَمْزَمَ، فَبارَكَ اللّٰهُ فِي زَمْزَمَ وَهٰذِهِ هِيَ الْبِئْرُ الَّتِي يَشْرَبُ مِنْهَا النَّاسُ فِي الْحَجِّ وَيَأْتُونَ بِمَاءِ زَمْزَمَ إِلَى بَلَدِهِمْ.

هَلْ شَرِبْتَ مَاءَ زَمْزَمَ؟

١٤ – رؤيا إبراهيم

وَعَادَ إبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ مُدَّةٍ.

ولَقِيَ إسْمٰعِيلَ ولَقِيَ هَاجرَ ، وفَرِحَ إبْرَاهِيمُ بِوَلَدِهِ

إسْمٰعِيلَ. وكَانَ إسْمٰعِيلُ ولَداً صَغِيراً، يَجْرِي وَيَلْعَبُ وَيَخْرُجُ مَعَ والِدِهِ.

وكَانَ إبْرَاهِيمُ يُحِبُّ إسْمٰعِيلَ جدًّا.

وذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى إبْرَاهِيمُ في الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ إسْمٰعِيلَ. وكَانَ إبْراهِيمُ نَبِيًّا صَادقاً، وكَانَ مَنَامُهُ مَناماً صَادِقاً. وكَانَ إبْراهِيمُ خَلِيلَ اللهِ، فَأَرادَ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَهُ اللهُ في الْمَنَامِ.

وقَالَ إبْرَاهِمُ لإِسْمٰعِيلَ:

(إنِّي أَرَىٰ في الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى)

(قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ).

وأَخَذَ إبْراهِيمُ إسْمٰعِيلَ مَعَهُ وأَخَذَ سِكِّيناً.

ولَمَّا بَلَغَ إبْراهِيمُ مِنًى، أَرادَ أَنْ يَذْبَحَ إسْمٰعِيلَ.

واضْطَجَعَ إسْمٰعِيلُ عَلَى الْأَرْضِ، وأَرَادَ إبْرَاهِيمُ

أَنْ يَذْبَحَ فَوَضَعَ السِّكِّينَ عَلَى حُلْقُومِ إِسْمٰعِيلَ.
ولٰكِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى هَلْ يَفْعَلُ خَلِيلُهُ مَا يأْمُرُه.
وهَلْ يُحِبُّ اللّٰهَ أَكْثَرَ أَوْ يُحِبُّ ٱبْنَهُ أَكْثَرَ.
وَنَجَحَ إِبْرَاهِيمُ فِي الامْتِحَانِ.
فأَرْسَلَ اللّٰهُ جِبْرِيلَ بِكَبْشٍ مِنَ الجَنَّةِ وقَالَ
اذْبَحْ هٰذَا ولاَ تَذْبَحْ اسْمٰعِيلَ.
وأَحَبَّ اللّٰهُ عَمَلَ إِبْرَاهِيمَ، فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ
بِالذَّبحِ فِي عِيدِ الأَضْحى.
صَلَّى اللّٰهُ عَلَى إبراهيمَ الخَلِيلِ وسَلَّمَ.
وصَلَّى اللّٰهُ عَلَى ابْنِهِ إِسْمٰعِيلَ وسَلَّمَ.

١٥ – الكعبة

وَذَهَبَ إِبْراهيمُ وَعَادَ بَعْدَ ذٰلِكَ، وَأَرادَ أَنْ يَبْنِيَ
بَيْتاً لِلّٰهِ. وَكَانَتْ البُيُوتُ كَثِيرَةً وَما كَانَ بَيْتٌ
لِلّٰهِ يَعْبُدُونَ فِيهِ اللّٰهَ.

وَأَرَادَ إِسْمٰعِيلُ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتاً لِلّٰهِ مَعَ وَالِدِهِ.
وَنقَلَ إبْرَاهِيمُ وَإِسْمٰعِيلُ الْحِجَارَةَ منَ الْجبَال .
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي الْكَعْبَةَ بِيَدِهِ وَكَانَ إِسْمٰعِيلُ يَبْنِي الْكَعْبَة بِيَدِهِ.
وَكَانَ إبْرَاهِيمُ يَذْكُرُ اللّٰهَ وَيَدْعُو.
وَكَانَ إِسْمٰعِيلُ يَذْكُرُ اللّٰهَ وَيَدْعُو.
«رَبَّنَا تَقبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ».
وَتقَبَّلَ اللّٰهُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمٰعِيلَ وَبَارَكَ فِي الْكَعْبَةِ
نَحْنُ نَتَوَجَّهُ إِلىٰ الْكَعْبَةِ في كلِّ صَلاَةٍ.
وَيُسَافِرُ الْمُسْلِمُونَ إِلىٰ الْكَعْبَةِ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ.
وَيَطُوفُونَ بِالْكَعْبَةِ وَيُصَلُّونَ عِنْدَهَا.
بَارَكَ اللّٰهُ فِي الْكَعْبَةِ وَتقبَّلَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمٰعِيلَ
صَلَّى اللّٰهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَسَلَّمَ.
صَلَّى اللّٰهُ عَلَى إِسْمٰعِيلَ وسَلَّمَ.

وصَلَّى اللّٰهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ.

١٦ – بيت المقدس

وَكَانَ لإِبْراهِيمَ زَوْجٌ أُخرَى، اِسْمُهَا سَارَة.
وَكَانَ لإِبْراهِيمَ وَلَدٌ آخرُ مِنْ سَارَةَ اسْمُهُ إِسْحٰقُ.
وسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي الشَّامِ، وسَكَنَ إِسْحٰقُ.
وَبَنى إِسْحٰقُ بَيْتاً لِلّٰهِ فِي الشَّامِ، كَمَا بَنَى أَبُوهُ وأَخُوهُ بَيْتاً لِلّٰهِ فِي مَكَّةَ.
وَهٰذَا الْمَسْجِدُ الَّذِي بَنَاهُ إِسْحٰقُ فِي الشَّامِ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ.

وَهُوَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَ اللّٰهُ حَوْلَهُ، وبَارَكَ اللّٰهُ فِي أَوْلاَدِ إِسْحٰقَ كَمَا بَارَكَ فِي أَوْلاَدِ إِسْمٰعِيلَ، وَكَانَ فِيهِمْ أَنْبِيَاءُ ومُلُوكٌ.
وكَانَ لإِسْحٰقَ ولَدٌ اسْمُهُ يَعْقُوبُ وكَانَ نَبِيًّا.

وَكَانَ يَعْقُوبُ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَداً، مِنْهُمْ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ.

وَيُوسفُ لَهُ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ فِي الْقُرآن.

وإليكَ هٰذِهِ الْقِصَّةَ!

* * *

أحسن القصص

١ – رُؤْيا عَجِيبَةٌ

كَانَ يُوسُفُ وَلَداً صَغِيراً، وَكَانَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ أَخًا. وَكَانَ يُوسُفُ غُلاَماً جَمِيلاً، وَكَانَ يُوسُفُ غُلاَماً ذَكِيّاً. وَكَانَ أَبُوهُ يَعْقُوبُ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ.

ذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى يُوسُفُ رُؤْيَا عَجِيبَةً.

رَأَى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَرَأَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَسْجُدُ لَهُ.

تَعَجَّبَ يُوسُفُ الصَّغِيرُ كَثِيراً ! وَمَا فَهِمَ هٰذِهِ الرُّؤْيَا كَيْفَ تَسْجُدُ الْكَوَاكِبُ والشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لِرَجُلٍ؟ ذَهَبَ يُوسُفُ الصَّغِيرُ إِلَى أَبِيهِ يَعْقُوبَ وَحَكَى لَهُ هٰذِهِ الرُّؤْيَا الْعَجِيبَةَ.

«قَالَ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ».

وكَانَ أبُوهُ يَعْقُوبُ نَبِيًّا.
فَرِحَ يَعْقُوبُ بِهٰذِهِ الرُّؤْيَا كَثِيراً.
وَقَالَ بارَكَ اللهُ لَك يَا يُوسُفُ، فَسَيَكُونُ لَكَ شَأن.

هٰذِهِ الرُّؤْيَا بِشَارَةٌ بِعِلْمٍ وَنُبُوَّةٍ.
وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَى جَدِّكَ إِسْحٰقَ وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَى جَدِّكَ إِبْرَاهِيمَ.

وَإِنَّهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ وَيُنْعِمُ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ شَيْخاً كَبِيراً، وَكَانَ يَعْرِفُ طَبَائِعَ النَّاسِ. وَكانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَغْلِبُ الشَّيْطَانُ، وَكَيْفَ يَلْعَبُ الشَّيْطَانُ بِالْإِنْسَانِ.

فَقَالَ يَا وَلَدي، لاَ تُخْبِرْ بِهٰذِهِ الرُّؤْيَا أَحَداً مِنْ إخْوَتِكَ فإِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكَ وَيَكُونُونَ لَكَ عَدُوًّا.

٢ - حسد الإخوة

وَكَانَ يُوسُفُ لَهُ أَخٌ آخَرُ مِنْ أُمِّهِ اسْمُهُ بِنْيَامِين.
وَكَانَ يَعْقُوبُ يُحِبُّهُمَا حُبًّا شَدِيداً، وَكَانَ لاَ يُحِبُّ مِثْلَهُمَا أَحَداً.
وَكَانَ الإِخوَةُ يَحْسُدُونَ يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَيَغْضَبُونَ كانوا يَقُولونَ: لِماذَا يُحِبُّ أَبُونَا يوسُفَ وَبِنْيَامِينَ أَكْثَرَ؟.
وَلِمَاذَا يُحِبُّ أَبُونَا يُوسفَ وَبِنْيَامِينَ وَهُمَا صَغِيرَانِ ضَعِيفَانِ؟.
لِمَاذَا لاَ يُحِبُّنَا مِثْلَ يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ نَحْنُ شُبَّانٌ أَقْوِيَاءُ، هٰذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ.

وَكَانَ يُوسُفُ وَلَداً صَغِيراً، فَحَكَى الرُّؤْيَا لإِخْوَتِهِ وَغَضِبَ الْإِخْوَةُ جِدًّا لَمَّا سَمِعُوا الرُّؤْيَا وَاشْتَدَّ حَسَدُهُمْ.

وَاجْتَمَعَ الْإِخْوَةُ يَوْماً وَقَالُوا اقْتُلُوا يُوسفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً بَعِيدَةً.

حِينَئِذٍ يكُونُ أَبُوكُمْ لكُمْ خَالِصًا، وَيَكُونُ حُبُّهُ لَكُمْ خَالِصاً.

قَالَ أَحَدُهُمْ: لاَ بَلْ أَلْقُوهُ فِي بِئرٍ فِي طَرِيقٍ يأْخُذُهُ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ.

وَوَافَقَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْإِخْوَةِ.

٣ – وفد إلى يعقوب

وَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى هذا الرَّأْيِ جَاؤُوا إلى يَعْقُوبَ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ يخَافُ عَلَى يُوسُفَ كَثِيراً، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الإِخْوَةَ يَحْسُدُونَهُ وَلاَ يُحِبُّونَهُ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ لاَ يُرْسِلُ يُوسفَ مَعَ الإِخوَةِ.
وَكَانَ يُوسُفُ يَلْعَبُ مَعَ أَخيهِ وَلاَ يَذْهَبُ بَعِيداً.
وَكَانَ الإِخْوَةُ يَعْرِفُونَ ذٰلِكَ، وَلكِنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى الشَّرِّ.

قَالُوا يَا أَبَانَا لِمَاذَا لاَ تُرْسِلُ مَعَنَا يُوسُفَ؟
مَاذَا تَخَافُ؟.
هُوَ أَخُونَا الْعَزِيزُ، وَأَخُونَا الصَّغِيرُ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ أَبٍ. وَالإِخْوَةُ دَائِماً يَلْعَبُونَ جَمِيعاً، فَلِمَاذَا لاَ نَذْهَبُ نَحْنُ وَنَلْعَبُ جَمِيعاً؟
«أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».
وَكَانَ يَعْقُوبُ شَيْخاً كَبِيراً، وَكَانَ يَعْقُوبُ عَاقِلاً حلِيماً. وكانَ يَعْقُوبُ لاَ يُحِبُّ أَنْ يَبْعُدَ مِنْهُ يوسفُ.
وَكَانَ يَخَافُ عَلَى يوسُفَ كَثِيراً.
فقالَ لِأَبنَائِهِ:

«أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ».
قالُوا: أَبَداً! كيفَ يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ حَاضِرُونَ؟
وَكيفَ يَأْكُلُهُ، ونَحْنُ شبَّانٌ أَقْوِيَاءُ؟
وَأَذِنَ يَعْقُوبُ لِيُوسفَ.

٤ – إلى الغابة

وفَرِحَ الْإِخْوَةُ كَثِيراً لَمَّا أَذِنَ يَعْقُوبُ لِيُوسفَ.
وَذَهَبُوا إِلَى غَابَةٍ وَأَلْقَوْا يُوسفَ فِي بئرٍ فِي الْغَابَةِ
وَلَمْ يَرْحَمُوا يُوسفَ الصَّغِيرَ، وَلَمْ يَرْحَمُوا يَعْقُوبَ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ.

وَكَانَ يُوسُفُ وَلَداً صَغِيراً، وَكَانَ قَلْبُهُ صَغِيراً.
وكانَتِ الْبِئْرُ عَمِيقَةً، وَكَانَتِ الْبِئْرُ مُظْلِمَةً.
وَكَانَ يوسفُ وَحِيداً.

وَلَكِنَّ اللهَ بَشَّرَ يُوسفَ وَقَالَ لهُ: لاَ تَحْزَنْ وَلاَ تَخَفْ

إنَّ اللهَ مَعَكَ، وَسَيَكونُ لَكَ شأْنٌ.

سَيَحْضُرُ إِلَيْكَ الْإِخْوَةُ وَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ.

وَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ شَأْنِهِمْ وَأَلْقَوْا يوسفَ فِي الْبِئْرِ اجْتَمَعُوا وَقَالُوا:

ماذَا نَقُولُ لِأَبِينَا؟

قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ أَبُونا يَقُولُ أَخَافُ أَنْ يأْكُلَهُ الذِّئْبُ فَنَقُولُ لَهُ صَدَقْتَ يَا أَبَانَا قَدْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ.

وَافقَ الْإِخْوَةُ عَلَى ذَلِكَ، وقَالُوا نَعَمْ نَقُولُ لَهُ يَا أَبَانَا قَدْ أكلَهُ الذئبُ.

قالَ بَعْضُ الْإِخْوَانِ: وَلكِنْ مَا آيةُ ذلِكَ؟

قالُوا: آيةُ ذٰلِكَ الدَّمُ.

وأخَذَ الْإِخْوَةُ كَبْشاً وَذَبَحُوه.

وَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسفَ وَصَبَغُوهُ.
وفَرِحَ الْإِخْوَةُ جداً: وقالوا الآن يُصَدِّقُ أَبُونَا.

٥ – أمام يعقوب

«وجَاءُوا أبَاءهُم عِشَاءًا يَبْكُونَ».
«قالُوا يَا أبَانَا إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ».
«وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» وَقَالُوا هٰذَا دَمُ يُوسفَ!
وَكَانَ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ نَبِيًّا، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيراً.
وَكَانَ أعْقَلَ مِنْ أوْلاَدِهِ.
وكَانَ يَعْقُوبُ يَعْرِفُ أنَّ ٱلذِّئْبَ إذَا أَكلَ إنْسَانًا جَرَحَهُ وَشَقَّ قَمِيصَهُ.
وكَانَ قميصُ يوسفَ سَالِمًا. وكانَ مَصْبُوغاً في الدَّمِ

فَعَرَفَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ دَمٌ كَذِبٌ، وَأَنَّ قِصَّةَ الذِّئْبِ قِصَّةٌ مَوْضُوعَةٌ.

فَقَالَ لِأَوْلَادِهِ: بَلْ هٰذِهِ قِصَّةٌ وَضَعْتُمُوهَا «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» وَحَزِنَ يَعْقُوبُ عَلَى يُوسُفَ حُزْنًا شَدِيداً ولكِنَّهُ صَبَرَ صَبْراً جَمِيلاً.

٦ – يوسف في البئر

وَرَجَعَ الْإِخْوَةُ إِلَى الْبَيْتِ، وَتَرَكُوا يُوسُفَ فِي الْبِئْرِ وَأَكَلَ الْإِخْوَةُ الطَّعَامَ، وَنَامُوا عَلَى الْفِرَاشِ.

ويوسفُ فِي الْبِئْرِ، وَلَا فِرَاشَ وَلَا طَعَامَ.

وَنَسِيَ الْإِخْوَانُ يُوسفَ، وَنَامُوا.

وَمَا نَامَ يوسفُ، وَمَا نَسِيَ أَحَداً.

وَبَقِيَ يَعْقُوبُ يَذْكُرُ يوسفَ، وَبَقِيَ يوسفُ يَذْكُرُ يَعْقُوبَ.

وَكَانَ يوسفُ فِي الْبِئْرِ، وَكَانَتِ الْبِئْرُ عَمِيقَةً.

وَكَانَتِ الْبِئْرُ فِي الْغَابَةِ، وَكَانَتِ الْغَابَةُ مُوحِشَةً.
وَكَانَ ذٰلِكَ فِي اللَّيْلِ، وكَانَ اللَّيْلُ مُظْلِمًا.

٧ – من البئر إلى القصر

وَكَانَتْ جَمَاعَةٌ تُسَافِرُ فِي هٰذِهِ الْغَابَةِ.
وَعَطِشُوا فِي الطَّرِيقِ، وَبَحَثُوا عَنْ بِئْرٍ.
وَرَأَوْا بِئْراً، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا رَجُلاً لِيَأْتِيَ لَهُمْ بِالْمَاءِ.
جَاءَ الرجُلُ إِلَى الْبِئْرِ، وَأَدْلَى دَلْوَهُ.
وَنَزَعَ الدَّلْوَ، فإِذَا الدَّلْوُ ثَقِيلَةٌ!
وَأَخْرَجَهَا فإِذَا فِي الدَّلْوِ غُلاَمٌ!
دَهِشَ الرَّجُلُ وَنَادَى.
(يٰبُشْرَى هٰذَا غُلاَمٌ).
وَفَرِحَ النَّاسُ جدًّا وَأَخْفَوْهُ.
وَوَصَلُوا إِلَى مِصْرَ، وَقَامُوا فِي السُّوقِ وَنَادَوْا:
مَنْ يَشْتَرِي هٰذَا الْغُلاَمَ؟ مَنْ يَشْتَرِي هٰذَا الْغُلاَمَ؟

اِشْتَرَى الْعَزِيزُ يُوسُفَ بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ.
وَبَاعَهُ التُّجَّارُ وَمَا عَرَفُوا يُوسُفَ.
وَذَهَبَ بِهِ الْعَزِيزُ إِلَى قَصْرِهِ، وَقَالَ لِامْرَأَتِهِ.
أَكْرِمِي يُوسُفَ، إِنَّهُ وَلَدٌ رَشِيدٌ.

٨ – الوفاء والأمانة

وَرَاوَدَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ يُوسُفَ عَلَى الْخِيَانَةِ.
وَلٰكِنَّ يُوسُفَ أَبَى، وَقَالَ: كَلاَّ!
أَنَا لاَ أَخُونُ سَيِّدِي، إِنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيَّ وَأَكْرَمَنِي.
إِنِّي أَخَافُ اللهَ.
وَغَضِبَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَشَكَتْ إِلَى زَوْجِهَا.
وَعَرَفَ الْعَزِيزُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَاذِبَةٌ.
وَعَرَفَ أَنَّ يُوسُفَ أَمِينٌ.
فَقَالَ لِزَوْجِهِ (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخٰطِئِينَ).

وَعُرِفَ يُوسُفُ في مِصْرَ بِجَمَالِهِ، وَإِذَا رَآهُ أَحَدٌ قالَ (مَا هٰذَا بَشَراً، إِنْ هٰذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ).

وَاشْتَدَّ غَضَبُ الْمَرْأَةِ وَقَالَتْ لِيُوسُفَ:

إِذَنْ تَذْهَبَ إِلَى السِّجْنِ!

قالَ يُوسُفُ: (السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ!).

وَبَعْدَ أَيَّامٍ رَأى الْعَزِيزُ أَنْ يُرْسِلَ يُوسُفَ إِلَى السِّجْنِ.

وَكَانَ الْعَزِيزُ يَعْرِفُ أَنَّ يُوسُفَ بَرِيءٌ.

وَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ.

٩ – موعظة السجن

وَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ، وعَرَفَ أَهْلُ السِّجْنِ جَمِيعاً أَنَّ يُوسُفَ شَابٌ كَرِيمٌ.

وأَنّ يُوسُفَ عِنْدَهُ عِلْمٌ عَظِيمٌ.

وَأَنَّ يُوسُفَ فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ رَحِيمٌ.
وَأَحَبَّ أَهْلُ السِّجْنِ يُوسفَ وَأَكْرَمُوهُ.
وَفَرِحَ النَّاسُ بِيُوسفَ وَعَظَّمُوهُ.
وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ رَجُلاَنِ وَقَصَّا عَلَيْهِ رُؤْيَاهما
(وقالَ أحَدُهُمَا إِنِّي أرانِي أعْصِرُ خَمْراً)
(وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أرَانِي أحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ).

وَسَأَلاَ يُوسُفَ عَنْ التَّأْوِيلِ.
وَكَانَ يُوسفُ عَالِماً بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا.
وَكَانَ يُوسُفُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.
وَكَانَ النَّاسُ فِي زَمَانِهِ يَعْبُدُونَ غَيْرَاللهِ.
وَوَضَعُوا أَرْبَاباً كَثِيرَةً مِن عِنْدِ أَنْفُسِهِم.
وَقَالُوا هٰذَا رَبُّ الْبَرِّ، وَهٰذَا رَبُّ البَحْرِ، وَهٰذَا رَبُّ الرِّزقِ ، وَهٰذَا رَبُّ المَطَر.

وَكَانَ يُوسُفُ يَرَى كُلَّ ذٰلِكَ وَيَضْحَكُ.
وَكَانَ يُوسُفُ يَعْلَمُ كُلَّ ذٰلِكَ وَيَبْكِي.
وَكَانَ يُوسُفُ يُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى اللهِ.
وَقَدْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي السِّجْنِ.
أَلاَ يَسْتَحِقُّ أَهْلُ السِّجْنِ الْمَوْعِظَةَ؟
أَلاَ يَسْتَحِقُّ أَهْلُ السِّجْنِ الرَّحْمَةَ؟
أَلَيْسَ أَهْلُ السِّجْنِ عِبَادَ اللهِ؟
أَلَيْسَ أَهْلُ السِّجْنِ بَنِي آدَمَ؟
كَانَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ وَلٰكِنَّهُ كَانَ حُرًّا جَرِيئًا.
كانَ يُوسُفُ فَقِيراً وَلٰكِنَّهُ كانَ جَوَادًا سَخِيًّا.
إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَجْهَرُونَ بِالحَقِّ فِي كُلِّ مَكانٍ.
إِنَّ الْأَنْبِياءَ يَجُودُونَ بِالخَيْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

١٠ – حكمة يوسف

قَالَ يُوسفُ في نَفْسِهِ :
إنَّ الْحَاجَةَ سَاقَتْ الرَّجُلَيْنِ إليَّ.
وَإنَّ صَاحِبَ الحَاجَةِ يَلِينُ وَيَخْضَعُ.
وَإنَّ صَاحِبَ الْحَاجَةِ يُطِيعُ وَيَسْمَعُ.
فَلَوْ قُلْتُ لَهُمَا شَيْئاً لَسَمِعَا وَسَمِعَ أهْلُ السِّجْنِ
وَلٰكِنَّ يُوسفَ لَمْ يَسْتَعْجِلْ.
بَلْ قَالَ لَهُمَا :
أَنَا أُخبِرُكُمَا بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا قَبْلَ أنْ يأْتِيَكُمَا طَعَامُكُما.
فَجَلَسَا وَاطْمَأَنَّا.
ثمَّ قَالَ لَهُمَا يُوسُفُ :
أنا عَالِمٌ بتَأوِيلِ الرُّؤْيَا، (ذٰلِكُما مِمَّا علّمَني رَبِّي)

فَفَرِحَا وَاطْمَأَنَّا.
وَهُنَا وَجَدَ يُوسُفُ الْفُرْصَةَ فَبَدَأَ مَوْعِظَتَهُ.

١١ – موعظة التوحيد

قَالَ يُوسُفُ (ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي).
وَلَكِنَّ اللهَ لاَ يُؤْتِي عِلْمَهُ كُلَّ أحَدٍ.
إنَّ اللهَ لاَ يُؤْتِي عِلْمَهُ الْمُشْرِكَ.
هَلْ تَعْرِفَانِ لِمَاذَا عَلَّمَنِي رَبِّي؟
لِأَنِّي تَرَكْتُ طَرِيقَ أهْلِ الشِّرْكِ.
(وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ).
(مَا كَانَ لَنَا أنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيءٍ).
قَالَ يُوسُفُ:
وَهٰذَا التَّوْحِيدُ لَيْسَ لَنَا فَقَطْ.
بَلْ هُوَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً.

(ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ).

وَهُنَا وَقَفَ يُوسُفُ وَسَأَلَهُمَا.

تَقُولُونَ رَبُّ الْبَرِّ وَرَبُّ الْبَحْرِ وَرَبُّ الرِّزْقِ وَرَبُّ الْمَطَرِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

(ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

أَيْنَ رَبُّ الْبَرِّ وَرَبُّ الْبَحْرِ وَرَبُّ الرِّزْقِ وَرَبُّ الْمَطَرِ؟

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ).

أُنْظُرُوا إِلَى الْأَرْضِ وَإِلَى السَّمَاءِ وَٱنْظُرُوا إِلَى الْإِنْسَانِ.

(هٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

وَكَيْفَ رَبُّ الْبَرِّ وَرَبُّ الْبَحْرِ وَرَبُّ الرِّزْقِ وَرَبُّ الْمَطَرِ؟

(أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ).
الْحُكْمُ للهِ، الْمُلْكُ للهِ، الْأَرْضُ للهِ، الْأَمْرُ للهِ.

(لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ)
(ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ).
(وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ).

١٢ — تأويل الرؤيا

وَلَمَّا فَرَغَ يُوسُفُ مِنْ مَوْعِظَتِهِ أَخْبَرَهُمَا بِتَأْوِيلِ الرُّؤيا قَالَ: (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً).
(وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ).
وَقَالَ لِلْأَوَّلِ (أُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ).
وَخَرَجَ الرَّجُلاَنِ، فَكَانَ الْأَوَّلُ سَاقِياً لِلْمَلِكَ وَصُلِبَ الآخَرُ.

وَنَسِيَ السَّاقِي أَنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ عِنْدَ المَلِكِ.
وَأَقَامَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ سِنِينَ.

١٣ - رؤيا الملك

وَرَأَى مَلِكُ مِصْرَ رُؤْيَا عَجِيبَةً.
رَأَى فِي الْمَنَامِ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمانٍ.
وَيَأْكُلُ هٰذِهِ الْبَقَرَاتِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ عِجَافٍ.
وَرَأَى المَلِكُ سَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ يابِسَاتٍ.
تَعَجَّبَ المِلِكُ مِنْ هٰذِهِ الرُّؤيَا العَجِيبَةِ وَسَأَلَ جُلَسَاءَهُ عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤيا.
قَالُوا: هٰذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، النَّائِمُ يَرَى أَشْيَاءَ كَثِيرَةً لاَ حَقِيقَةَ لَهَا.
وَلٰكِنْ قَالَ السَّاقِي: لاَ، بَلْ أُخْبِرُكُمْ بِتَأْوِيلِ

هٰذِهِ الرُّؤيَا.
وَذَهَبَ السَّاقِي إلَى السِّجْنِ وَسَأَلَ يُوسُفَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤيَا المَلِكِ.
كان يوسُفُ جَوَاداً كَرِيماً مُشْفِقًا عَلَى خَلْقِ اللّٰهِ فأَخْبَرَهُ بِالتَّأْوِيلِ.
وَكانَ يُوسفُ جَوَادًا كَرِيماً لاَ يَعْرِفُ الْبُخْلَ.
فأَخْبَرَ يُوسفُ بالتَّأوِيلِ وَدَلَّ عَلَى التَّدْبِيرِ
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ، وَاتْرُكُوا مَا حَصَدْتُمْ فِي سُنْبُلِهِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تأكُلُونَ.
وَيَكُونُ بَعْدَ ذٰلِكَ قَحْطٌ عَامٌّ تَأكُلونَ فِيهِ مَا خزَنْتمْ إلاَّ قَلِيلاً.
وَيطُولُ هذَا الْقَحْطُ إلَى سَبع سِنِينَ.
وَبَعْدَ ذٰلِكَ يَأْتِي النَّصْرُ وَيُخْصِبُ النَّاسُ.
وَذَهبَ السَّاقِي وَأَخْبَرَ الْمِلكَ بِتَأْوِيلِ رُؤياهُ.

١٤ - الملك يرسل إلى يوسف

وَلَمَّا سَمِعَ المْلِكُ هٰذَا التَّأْوِيلَ والتَّدْبِيرَ فَرِحَ جِدًّا، وَقَالَ: مَنْ صَاحِبُ هٰذَا التَّأْوِيلِ؟

وَقَالَ المْلِكُ: مَنْ هٰذَا الرَّجُلُ الكَرِيمُ الَّذِي نَصَحَ لَنَا وَدَلَّ عَلَى التَّدْبِيرِ؟.

قَالَ السَّاقِي: هٰذَا يُوسفُ الصِّدِّيقُ وَهُوَ الَّذِي أَخبرَ أَنِّي سَأَكُونُ سَاقِيًا لِسَيِّدِي المْلِكِ.

وَاشْتَاقَ المْلِكُ إِلَى لِقاءِ يُوسفَ، وَأَرْسَلَ إِلٰى يُوسفَ وَقَالَ المْلِكُ (ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي).

١٥ - يوسف يسأل التفتيش

ولَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ إِلَى يُوسفَ وَقَالَ لَهُ إِنَّ المْلِكَ يَدْعُوكَ!

مَا رَضِيَ يُوسفُ أنْ يَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ هٰكذَا.
وَيقُولُ النَّاسُ هٰذَا يُوسُفُ! هٰذَا كانَ أمْسِ فِي السِّجْنِ ، إنَّهُ خَانَ الْعَزِيزَ.
إنَّ يُوسفَ كانَ كَبِيرَ النَّفْسِ أَبِيًّا ، إنَّ يُوسفَ كانَ كَبيرَ الْعَقْلِ ذَكِيًّا.

لَوْ كانَ أَحَدٌ مَكانَ يُوسفَ في السِّجْنِ وَجَاءَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ.
وَقالَ لَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ إنَّ الْمَلِكَ يَدْعُوكَ وَيَنْتَظِرُكَ لَأَسْرَعَ هٰذَا الرَّجُلُ إِلَى بَابِ السِّجْنِ وَخرَجَ.
وَلٰكِنَّ يُوسُفَ لَمْ يُسْرِعْ.
وَلٰكِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَسْتَعْجِلْ.
بَلْ قَالَ لِرَسُولِ الْمَلِكِ : أَنَا أُرِيدُ التَّفْتِيشَ أَنَا أُرِيدُ الْبَحْثَ عَنْ قَضِيَّتِي.
وسَأَلَ الْمَلِكُ عَنْ يُوسُفَ وَعَلِمَ الْمَلِك وَعَلِمَ النَّاسُ

أنَّ يُوسُفَ بَرِيءٌ.
وَخَرَجَ يُوسُفُ بَرِيئاً وَأَكْرَمَهُ الْمِلكُ.

١٦ – على خزائن الأرض

وَكَانَ يوسفُ يَعْلمُ أنَّ الْأَمَانةَ قَلِيلَةٌ في النَّاسِ.
وَكانَ يُوسفُ يَعْلَمُ أنّ الخِيانَةَ كَثِيرَةٌ في النَّاس.
وكَانَ يُوسُفُ يرَى أنَّ النَّاسَ يخُونُونَ في أَمْوَالِ اللهِ.
وَكَانَ يَرَىٰ أنّ في الْأَرْضِ خَزَائِنَ كَثِيرَةً ولٰكنَّها ضَائِعَةٌ.
إنّهَا ضَائِعَةٌ لِأَنَّ الْأُمَراءَ(١) لاَ يَخَافُونَ اللهَ فِيهَا.
فَتَأْكُلُ كِلاَبُهُمْ وَلاَ يَجِدُ النَّاسُ مَا يَأْكُلُونَ.
وَتَلْبَسُ بُيُوتُهُمْ وَلاَ يَجِدُ النَّاسُ مَا يَلْبَسُونَ.

---

(١) الولاة وأصحاب الأمر

وَلا يَنْفَعُ النّاسَ بِخزَائِنِ الْأَرْضِ إلاّ مَنْ كانَ حَفِيظاً عَلِيماً.

ومَنْ كانَ حَفِيظاً وَمَا كَانَ عَلِيماً لاَ يَعْلَمُ أيْنَ خَزَائِنُ الْأَرْضِ وكَيْفَ يَنْتَفِعُ بِهَا.

وَمَنْ كانَ عَلِيماً وَمَا كانَ حَفِيظاً يَأْكُلُ مِنْها وَيَخُونُ فِيهَا.

وَكانَ يُوسُفُ حَفِيظاً عَلِيماً.

وَكَانَ يُوسُفُ لاَ يُرِيدُ أَنْ يَتْرُكَ الْأُمَرَاءَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ.

وَكَانَ يُوسُفُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى النَّاسَ يَجُوعُونَ وَيَمُوتُونَ.

وَكانَ يُوسفُ لاَ يَسْتَحي مِنَ الحَقِّ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ.

(اِجْعَلْني عَلَى خزَائِنِ الْأَرضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

وَهٰكَذَا كانَ يُوسفُ أَميناً لِخَزائِنِ مِصْرَ.
وَاسْتَرَاحَ النَّاسُ جِدًّا وَحَمِدُوا اللهَ.

١٧ – جاء إخوة يوسف

وَكَانَ في مِصْرَ والشَّامِ مَجَاعَةٌ كما أَخْبَرَ يُوسُفُ.
وَسَمِعَ أَهْلُ الشَّامِ وَسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّ في مِصْرَ رَجُلاً رَحِيماً. وَأَنَّ في مِصْرَ جَواداً كَرِيماً، وهُوَ عَلَى خزَائِنِ الْأَرْضِ.
وكَانَ النَّاسُ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ الطَّعَامَ (١).
وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ أَبْنَاءَهُ إِلَى مِصْرَ بِالمَالِ لِيَأْتُوا بالطَّعَامِ
وَبَقي بِنْيَامِينُ عِنْدَ وَالِدِهِ لِأَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ يُحِبُّهُ

(١) الحبوب

جدًّا. وَمَا كانَ يُرِيدُ أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ وَكَانَ يَعقُوبُ يَخَافُ عَلَيْهِ كمَا كانَ يَخَافُ عَلَى يُوسُفَ.

وَتَوَجَّهَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِلَى يُوسُفَ وَهُمْ لاَ يَعْرِفونَ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يُوسُفُ.

وَهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ يُوسُفُ الَّذِي كانَ في الْبِئْرِ.

وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

وَكَيْفَ لاَ يمُوتُ وقَدْ كانَ في البِئْرِ.

كانَ في الْبِئْرِ وَكَانَتْ الْبِئْرُ عَمِيقَةً.

وَكَانَتِ الْبِئْرُ في الْغَابَةِ، وَكانَتِ الْغَابَةُ مُوحِشَةً.

وَكَانَ ذٰلِكَ في اللَّيْلِ، وَكَانَ اللَّيْلُ مُظْلِماً.

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

كَانُوا مُنْكِرِينَ لِيُوسُفَ لاَ يَعْرِفُونَهُ، وَلٰكِنْ مَا أَنْكَرَهُمْ يُوسُفُ بَلْ عَرَفَهُمْ.

عَرَفَ يُوسُفُ أَنَّ هٰؤُلاَءِ هُمْ الّذِينَ أَلْقَوْه في الْبِئْرِ. وَأَنَّ هٰؤُلاَءِ هُمْ الَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ قَتْلَهُ وَلَكِنَّ اللهَ حَفِظَه.

وَلكِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ شَيْئاً وَلَمْ يَفْضَحْهُمْ.

١٨ – بين يوسف وإخوته

وَكَلَّمَهُمْ يُوسُفُ وَقَالَ لَهُمْ :

مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ ؟

قَالُوا : مِنْ كَنْعَانَ !

قَالَ : مَنْ أَبُوكُمْ ؟

قَالُوا: يَعْقُوبُ بنُ إِسْحٰقَ بن إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِمُ الصَّلٰواتُ وَالسَّلاَمُ).

قَالَ : هَلْ لَكُمْ أَخٌ آخَرُ ؟

قَالُوا : نَعَمْ لَنَا أَخٌ اسْمُهُ بِنْيَامِينُ !

قَالَ : لِمَاذا مَا جَاءَ مَعَكُمْ ؟
قَالُوا : لِأَنَّ وَالِدَنَا لاَ يَتْرُكُهُ وَلاَ يُحِبُّ أَن يَبْعُدَ عَنْهُ
قَالَ : لِأَيِّ شَيْءٍ لاَ يَتْرُكُهُ هَلْ هُوَ وَلَدٌ صَغِيرٌ جِدًّا؟
قَالُوا: لاَ : وَلٰكِنْ كَانَ لَهُ أَخٌ اسْمُهُ يُوسُفُ، ذَهَبَ مَعَنَا مَرَّةً، وَذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ.
وَضَحِكَ يُوسُفُ في نَفْسِهِ وَلٰكِنْ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا
وَاشْتَاقَ يُوسُفُ إِلى أَخيهِ بِنْيَامِينَ.
وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَمْتَحِنَ يَعْقُوبَ مَرَّةً ثَانِيَةً.
فَأَمَرَ لَهُمْ يُوسُفُ بِالطَّعَامِ.
وَقَالَ لَهُمْ: (ائْتُوني بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ).
وَلاَ تَجِدُونَ طَعَاماً إِذَا لَمْ تَأْتُوا بِهِ.
وَأَمَرَ يُوسُفُ بِمَالِهِمْ فَوُضِعَ في مَتَاعِهِمْ.

١٩ - بين يعقوب وأبنائه

وَرَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ وَأَخْبَرُوهُ بِالخَبَرِ وَقَالُوا لَهُ: أَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا، وَإِلاَّ لاَ نَجِدُ خَيْراً عِنْدَ الْعَزِيزِ.
وَطَلَبُوا مِنْ يَعْقُوبَ بِنْيَامِينَ وَقَالُوا: (إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)
قَالَ يَعْقُوبُ: (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ).
هَلْ نَسِيتُمْ قِصَّةَ يُوسُفَ. أَتَحْفَظُونَ بِنْيَامِينَ كَمَا حَفِظْتُمْ يُوسُفَ.
(اللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).
وَوَجَدُوا مَالَهُمْ فِي مَتَاعِهِمْ فَقَالُوا لأَبِيهِمْ:
إِنَّ الْعَزِيزَ رَجُلٌ كَرِيمٌ، قَدْ رَدَّ مَالَنَا وَلَمْ يَأْخُذْ مِنَّا ثَمَنًا
أَرْسِلْ مَعَنَا بِنْيَامِينَ نَأْخُذْ حَقَّهُ أَيْضاً.
قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعَاهِدُوا

اللهَ أنَّكُمْ تَرْجِعُونَ بِهِ إلاَّ أنْ تُغلَبُواعلى أمْرِكُمْ. وَعَاهَدُوا اللهَ وَقَالَ يَعْقُوبُ: (اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وكِيلٌ)

وَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: (يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ).

٢٠ – بنيامين عند يوسف

وَدَخَلَ الإخْوَةُ مِنْ أبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ كماَ أمَرَهُمْ أبُوهُمْ وَوَصَلُوا إلى يُوسُفَ.

وَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ بِنْيَامِينَ فَرِحَ جِدًّا وَأَنْزَلَهُ في بَيْتِهِ. وَقَالَ يُوسُفُ لبِنْيَامِينَ (إنِّي أَنَا أَخُوكَ) وَاطْمَأَنَّ بِنْيَامِينُ. وَلَقِيَ يُوسُفُ بِنْيَامِينَ بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ فَذَكَرَ أُمَّهُ وَأَبَاهُ وَذَكَرَ بَيْتَهُ وَذَكَرَ صِغَرَهُ.

وَأَرَادَ يُوسُفُ أَنْ يَبْقَى عِنْدَهُ بِنْيَامِينُ يَرَاهُ كلَّ يَوْمٍ

وَيُكَلِّمُهُ وَيَسْأَلُهُ عَنْ بَيْتِهِ.
وَلٰكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذٰلِكَ، وَبِنْيَامِين رَاجع غَداً إِلَى كَنْعَانَ؟
وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ وَالْإِخْوَة عَاهَدُوا اللّٰهَ عَلَى أنْ يَرْجِعُوا بِهِ مَعَهُمْ؟.
وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِيُوسُفَ أَنْ يَحْبِس بِنْيَامِينَ عِنْدَهُ بغَيْرِ سَبَبٍ؟
وَيَقُولُ النَّاسُ: قَدْ حَبَسَ الْعَزِيزُ عِنْدَهُ كَنْعَانِيًّا بغَيْرِ سَبَبٍ، إنَّ هٰذَا لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.
وَلٰكِنَّ يُوسُفَ كَانَ ذَكِيًّا عَاقِلاً.
كَانَ عِنْدَ يُوسُفَ إِنَاءٌ ثَمِينٌ، وَكَانَ يَشْرَبُ فِيهِ.
وَضَعَ هٰذَا الإِنَاءَ فِي مَتَاعِ بِنْيَامِينَ وَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ.
وَالْتَفَتَ الْإِخْوَةُ، وَقَالُوا مَاذَا تَفْقِدُونَ؟

قَالُوا: نَفْقِدُ صُوَاعَ (إنَاءَ) المَلِكِ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ.

(قَالُوا تَا اللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)!.

(قَالُوا فَمَا جَزَاءُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)؟.

(قَالُوا جَزَاءُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)!.

وَخَرَجَ الإِنَاءُ مِنْ مَتَاعِ بِنْيَامِينَ فَخَجِلَ الْإِخْوَةُ وَلٰكِنْ قَالُوا مِنْ غَيْرِ خَجَلٍ:

إِنْ يَسْرِقْ (بِنْيَامِينُ) فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ (يُوسُفُ) مِنْ قَبْلُ. وَسَمِعَ يُوسُفُ هٰذَا الْبُهْتَانَ فَسَكَتَ وَلَمْ يَغْضَبْ وَكَانَ يُوسُفُ كَرِيماً حَلِيماً.

(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

(قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنّا إذًا لَظَالِمُونَ).

وهَكَذَا بَقِيَ بِنْيَامِينُ عِنْدَ يُوسُفَ وَفَرِحَ الْأَخَوَانِ جَمِيعاً.

إنَّ يُوسُفَ كَانَ وَحِيداً مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ لاَ يَرَى أَحَداً مِنْ أَهْلِهِ.

وَقَدْ سَاقَ اللهُ إلَيْهِ بِنْيَامِينَ أَفَلاَ يَحْبِسُهُ عِنْدَهُ يَرَاهُ وَيُكَلِّمُهُ. وَهَلْ مِنَ الظُّلْمِ أنْ يُقِيمَ أَخٌ عِنْدَ أخِيهِ. أبداً! أبداً!.

٢١ – إلى يعقوب

وَتَحَيَّرَ الْإِخْوَةُ كَيْفَ يَرْجِعُونَ إِلَى أَبِيهِمْ؟!

وَفَكَّرَ الْإِخْوَةُ مَاذَا يَقُولُونَ لِأَبِيهِمْ؟!.

إِنَّهُمْ فَجَعُوهُ أَمْسِ فِي يُوسُفَ، أفَيَفْجَعُونَهُ الْيَوْمَ فِي بِنْيَامِينَ!

أَمَّا كَبِيرُهُمْ فَأَبىٰ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ يَعقُوبَ وَقَالَ لِإِخْوَتِهِ :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حٰفِظِينَ).

وَلَمَّا سَمِعَ يَعْقُوبُ الْقِصَّةَ عَلِمَ أَنَّ للهِ يداً في ذٰلِكَ.

وَأَنَّ اللهَ مُمْتَحِنُه.

أَمْسِ فُجِعَ فِي يُوسُفَ وَالْيَوْمَ يُفْجَعُ فِي بِنْيامِينَ إِنَّ اللهَ لاَ يَجْمَعُ عَلَيْهِ مُصِيبَتَيْنِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَفْجَعُهُ فِي ابْنَيْنِ.

إِنَّ اللهَ لاَ يَفْجَعُهُ فِي ابْنَيْنِ كَيُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ.

إِنَّ للهِ فِي ذٰلِكَ يَداً خَفِيَّةً.

إِنَّ للهِ فِي ذٰلِكَ حِكْمَةً مَخْفِيَّةً.

إِنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ يَمْتَحِنُ عِبَادَه ثم يَسُرُّهُمْ وَيُنْعِمْ عَلَيْهِمْ

ثُمَّ إنَّ الابْنَ الْكَبِيرَ بَقِيَ في مِصْرَ أَيْضاً وَأَبى أَنْ يَرْجِعَ إلى كَنْعَانَ.

أفَيُفْجَعُ في الثَّالِثِ أيْضاً وَقَدْ فُجِعَ مِنْ قَبْلُ في اثْنَيْنِ.

إنَّ هٰذَا لاَ يَكُونُ.

وَهُنَا اطْمأَنَّ يَعْقُوبُ وقَالَ:

(عَسَى اللهُ أنْ يأْتِيَني بِهِمْ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحكِيمُ)

٢٢ – يظهر السر

وَلٰكِنَّ يَعْقُوبَ كَانَ بَشَراً في صَدْرِهِ قَلْبُ بَشَرٍ لاَ قِطْعَةُ حَجَرٍ.

فَذَكَرَ يُوسُفَ وَتَجَدَّدَ حُزْنُهُ وَقَالَ: (يا أَسفَى عَلَى يُوسُفَ).

وَلاَمَهُ أَبْنَاؤُهُ وَقَالُوا إنَّكَ لاَ تَزَالُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَهْلِكَ.

قَالَ يَعْقُوبُ: (إنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).

وَكانَ يَعْقُوبُ يَعْلَمُ أَنَّ اليَأْسَ كُفْرٌ، وَكَانَ يَعْقُوبُ لَهُ رَجَاءٌ كَبِيرٌ في اللهِ.

وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ أَبْنَاءَهُ إلى مِصْرَ لِيَبْحَثُوا عَنْ يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَيَجْتَهِدُوا في ذٰلِكَ.

وَمَنَعَهُمْ يَعْقُوبُ مِنْ أَنْ يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَذَهَبَ الإِخْوَةُ إلى مِصْرَ مَرَّةً ثَالِثَةً.

وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وَشَكَوْا إِلَيْهِ فَقْرَهُمْ وَمُصِيبَتَهُمْ وَسَأَلُوهُ الْفَضْلَ.

وَهُنَا هَاجَ الْحُزْنُ وَالْحُبُّ في يُوسُفَ وَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ.

أَبْنَاءُ أبِي وَأَبْنَاءُ الْأَنْبِيَاءِ يَشْكُونَ فَقْرَهُمْ وَمُصِيبَتَهُمْ إلى مَلِكٍ مِنْ الْمُلُوكِ.

إلى مَتَى أُخْفِي الْأَمْرَ عَنْهُمْ وَإلى مَتَى أَرَى حَالَهُمْ

وَإلى مَتَى لاَ أَرَى أَبي ؟

لَمْ يَمْلِكْ يُوسُفُ نَفْسَهُ وقَالَ لَهُمْ .

(هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

وَكَانَ الْإِخْوَةُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هٰذَا السِّرَّ لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا يُوسُفُ وَنَحْنُ .

فَعَلِمُوا أَنَّهُ يُوسُفُ .

سُبْحَانَ اللهِ! هَلْ يُوسُفُ حَيٌّ ، أما مَاتَ في الْبِئْرِ .

يا سَلاَمُ ! هَلْ يُوسُفُ هُوَ عَزِيزُ مِصْرَ ؟

هُوَ الَّذِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ؟

هُوَ الَّذي كانَ يَأْمُرُ لَنَا بالطَّعَام ؟

ومَا بَقِيَ عِنْدَهُم شَكٌ أنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُمْ هوَ يُوسفَ بْنُ يَعْقُوبَ !

(قَالُوا ءَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ) .

قَال : (أَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ للهُ عَلَيْنَا

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
(قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)
وَمَا لاَمَهُمْ يُوسُفُ عَلَى فَعْلَتِهِمْ، بَلْ قَالَ :
(يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

٢٣ – يوسف يرسل إلى يعقوب

وَاشْتَاقَ يُوسف إلى لِقَاءِ يَعْقُوبَ، وَكَيْفَ لاَ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ وَقَدْ طَالَ الْفِرَاقُ .

وَلِماذَا يَصْبِرُ الآنَ وَقَدْ ظَهَرَ السِّرُّ .

وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ الشَّرَابُ والطَّعَامُ وَأَبُوهُ لاَ يَطِيبُ لَهُ شَرَابٌ وَلاَ طَعَامٌ وَلاَ مَنَامٌ .

قَدْ انْكَشَفَ السِّرُّ، وَقَدْ ظَهَرَ السِّرُّ، وقَدْ أَرَادَ اللهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُ يَعْقُوبَ .

وَكَانَ يَعْقُوبُ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ

فَقَالَ يُوسُفُ :
(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ).

٢٤ – يعقوب عند يوسف

وَلَمَّا سَارَ الرِّجَالُ بِقَمِيصِ يُوسُفَ إلى كَنْعَان، أَحَسَّ يَعْقُوبُ رَائِحَةَ يُوسُفَ، وَقَالَ: (إِنِي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) .

(قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ) .
وَلٰكِنْ كَانَ يَعْقُوبُ صَادِقاً، (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ) .
(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ)

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُم رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

وَلَمَّا وَصَلَ يَعْقُوبُ إلى مِصْر اسْتَقْبَلَهُ يُوسفُ، وَلاَ تَسْأَلْ عَنْ فَرَحِهِمَا وَسُرُورِهِمَا .

وكَانَ يوْماً مَشْهوداً في مِصْرَ وَكَانَ يَوْماً مُبَاركاً.

وَرَفَعَ يُوسُفُ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَوَقَعُوا كُلُّهُمْ سُجَّداً لِيُوسُفَ .

وقَالَ يُوسُفُ: (هٰذَا تأويلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقاً) .

(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي سَاجِدِينَ) .

وَحَمِدَ يُوسُفُ اللّٰهَ حَمْداً طَيِّباً كَثِيراً .

وَشَكَرَ يُوسُفُ عَلَى ذٰلِكَ شُكْراً عَظِيماً .

وَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَآلُ يعْقُوبَ في مِصْرَ زَمَناً طَويلاً

ومَاتَ يَعْقُوبُ وَزَوْجَتُهُ فِي مِصْرَ .

٢٥ – حسن العاقبة

ولَمْ يَشْغَلْ يُوسُفَ هٰذَا المُلْكُ العَظِيمُ عَنْ اللهِ ولَمْ يُغَيِّرْهُ .
وكانَ يُوسُفُ يَذْكُرُ اللهَ وَيَعْبُدُهُ وَيَخَافُهُ .
وَكانَ يُوسُفُ يَحْكُمُ بِحُكْمِ اللهِ ويُنَفِّذُ أَوَامِرَ اللهِ .
وكَانَ يُوسُفُ لا يَرَى المُلْكَ كَثِيراً وَلا يَعُدُّهُ شَيْئاً كَبِيراً
وكانَ يُوسُفُ لاَ يُحِبُّ أنْ يَمُوتَ مَوْتَ مَلِكٍ وَيُحْشَرَ مَعَ المُلوكِ .
بَلْ كانَ يَحِبُّ أَنْ يَمُوتَ موتَ عَبْدٍ وَيُحْشَرَ مَعَ الصَّالِحِينَ .
وَكَانَ دُعَاءُ يُوسُفَ :
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

الأحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْض أَنْتَ وَلِيِّ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْني بالصَّالِحِينَ) .

وَتَوَفَّاهُ اللهُ مُسْلِماً وَأَلْحَقَهُ بِآبَائِهِ إبْرَاهِيمَ وإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ .

سفينة نوح

(١) بعد آدم

بَارَكَ اللّٰهُ في ذُرِّيَّةِ آدَمَ فكَانَ فِيْهَا رِجَالٌ كَثِيْرٌ وَنِسَاءٌ. وَانْتَشَرَتْ ذُرِّيَّةُ آدَمَ وَكَثُرَتْ.

فَلَوْ رَجَعَ آدَمُ وَرَأَى أَوْلادَهُ لَمَا عَرَفَ.

وَلَوْ قِيْلَ لَهُ: هٰذِهِ ذُرِّيَّتُكَ يا آدَمُ لَتَعَجَّبَ كَثِيْراً.

وَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! هٰؤُلاءِ كُلُّهُمْ أَوْلاَدِي؟ هٰذِهِ كُلُّهَا ذُرِّيَّتِي؟!.

وَكَانَتْ لِذُرِّيَّةِ آدَمَ قُرىً كَثِيْرَةٌ، وَبَنَوْا بُيُوْتاً كَثِيْرَةً.

وَكَانُوا يَحْرُثُونَ الْأَرْضَ وَيَزْرَعُوْنَ وَيَعِيشُوْنَ.

وكَانَ النَّاسُ عَلَى دِيْنِ أَبِيْهِمْ آدَمَ، يَعْبُدُونَ اللّٰهَ وَلاَ يُشْرِكُوْنَ بِهِ شَيْئاً!.

وَكَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أَبُوْهُمْ آدَمُ وَرَبُّهُمْ اللّٰهُ.

(٢) حسد الشيطان

وَلٰكِنْ كَيْفَ يَرْضَىٰ إِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ بِهذا؟
أَلاَ يَزَالُ النَّاسُ يَعْبُدُوْنَ اللهَ؟.
أَلاَ يَزَالُ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لاَ يَخْتَلِفُوْنَ؟ إِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُوْنُ! إِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُونُ!.
هَلْ يَدْخُلُ ذُرِّيَّةُ آدَمَ الْجَنَّةَ، وَيَدْخُلُ إِبْلِيْسُ وَذُرِّيَّته النَّارَ؟
إِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُوْنُ، إِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُوْنُ!
إِنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ فَطَرَدَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ.
أَلاَ يَنْتَقِمُ مِنْ بَنِي آدَمَ فَيَدْخُلُوْا مَعَهُ النَّارَ؟
لاَ بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ! لاَ بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ.

(٣) فكرة الشيطان

وَرَأَىٰ الشَّيْطَانُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ

فَيَدْخُلُوْا النَّارَ وَلاَ يَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ أَبَدًا.
وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَعْرِفُ أَنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَيَغْفِرُ كُلَّ شَيْءٍ إِذَا أَرَادَ.
فَأَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى الشِّرْكِ. فَلاَ يَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ أَبَدًا.
وَلٰكِنْ كَيْفَ الطَّرِيْقُ إِلَى ذٰلِكَ، وَالنَّاسُ يَعْبُدُوْنَ اللهَ؟ إِنَّهُ لَوْ ذَهَبَ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ لَهُمْ: «أُعْبُدُوْا الْأَصْنَامَ وَلاَ تَعْبُدُوْا اللهَ» لَشَتَمَهُ النَّاسُ وَضَرَبُوْهُ.
قَالُوْا: مَعَاذَ اللهِ، أَنُشْرِكُ بِرَبِّنَا؟ أَنَعْبُدُ الْأَصْنَامَ؟. إِنَّكَ لَشَيْطَانٌ رَجِيْمٌ! إِنَّكَ لَشَيْطَانٌ خَبِيْثٌ!

(٤) حيلة الشيطان

وَلٰكِنَّ الشَّيْطَانَ وَجَدَ بَابًا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَى رُؤُوْسِ النَّاسِ.

كَانَ رِجَالٌ يَخَافُوْنَ اللّٰهَ، وَيَعْبُدُوْنَهُ لَيْلاً وَنَهَارًا، وَيَذْكُرُوْنَهُ ذِكْرًا كَثِيْراً.

وَكَانُوا يُحِبُّوْنَ اللّٰهَ، وَكَانَ اللّٰهُ يُحِبُّهُمْ وَيَسْتَجِيْبُ لَهُمْ وَكَانَ النَّاسُ يُحِبُّوْنَهُمْ وَيُعَظِّمُوْنَهُمْ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَعْرِفُ ذٰلِكَ جَيِّدًا.

وَقَدْ مَاتَ هٰؤُلاَءِ وَانْتَقَلُوْا إِلَى رَحْمَةِ اللّٰهِ!.

ذَهَبَ الشَّيْطَانُ إِلَى النَّاسِ وَذَكَرَ هٰؤُلاَءِ الرِّجَالَ.

وَقَالَ: كَيْفَ كَانَ فِيْكُمْ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ وَفُلاَنٌ؟

قَالُوْا: سُبْحَانَ اللّٰهِ! رِجَالُ اللّٰهِ وَأَوْلِيَاؤُهُ! أُولٰئِكَ إِذَا دَعَوْا أَجَابَهُمْ، وَإِذَا سَأَلُوْا أَعْطَاهُمْ.

(٥) صور الصالحين

قَالَ الشَّيْطَانُ: فَكَيْفَ حُزْنُكُمْ عَلَيْهِمْ؟

قَالُوْا: شَدِيْدٌ.

قَالَ: وَكَيْفَ اشْتِيَاقُكُمْ إِلَيْهِمْ؟
قَالُوْا: عَظِيْمٌ!
قَالَ: وَلِمَاذَا لاَ تَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ؟
قَالُوْا: وَكَيْفَ السَّبِيْلُ إِلَى ذٰلِكَ وَقَدْ مَاتُوْا؟
قَالَ: اِعْمَلُوْا لَهُمْ صُوَرًا وَانْظُرُوْا إِلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ.
وَأُعْجِبَ النَّاسُ بِرَأْيِ إِبْلِيْسَ وَصَوَّرُوْا الصَّالِحِيْنَ وَكَانُوْا يَنْظُرُوْنَ إِلَى هٰذِهِ الصُّوَرِ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِذَا رَأَوْهَا ذَكَرُوْا أُولٰئِكَ الصَّالِحِيْنَ.

(٦) من الصور الى التماثيل

وَانْتَقَلُوْا مِنَ الصُّوَرِ إِلَى التَّمَاثِيْلِ.
وَعَمِلُوْا لِلْصَّالِحِيْنَ تَمَاثِيْلَ كَثِيْرَةً، وَوَضَعُوْهَا فِي بُيُوْتِهِمْ وَفِي مَسَاجِدِهِمْ.
وَكَانُوْا يَعْبُدُوْنَ اللهَ لاَ يُشْرِكُوْنَ بِهِ شَيْئًا.

وَكَانُوْا يَعْرِفُوْنَ أَنَّ هٰذِهِ تَمَاثِيْلُ لِلْصَّالِحِيْنَ.
وَأَن هٰذِهِ حِجَارَةٌ لاَ تَنْفَعُهُمْ وَلاَ تَضُرُّهُمْ وَلاَ تَرْزُقُهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوْا يَتَبَرَّكُوْن بِهَا وَيُعَظِّمُوْنَهَا، لِأَنَّهَا تَمَاثِيْلُ لِلصَّالِحِيْنَ.
وَكَثُرَتْ هٰذِهِ التَّمَاثِيْلُ فِيْهِمْ، وَكَثُرَ تَعْظِيْمُهَا.
وَإِذَا مَاتَ فِيْهِمْ رَجُلٌ صَالِحٌ عَمِلُوْا لَهُ تِمْثَالًا وَسَمَّوْهُ بِاسْمِهِ.

(٧) من التماثيل إلى الأصنام

وَمَضَىٰ هٰؤُلاَءِ، وَرَأَىٰ الْأَوْلاَدُ آبَاءَهُمْ يَتَبَرَّكُوْنَ بِهَا وَرَأَوْا آبَاءَهُمْ يُعَظِّمُوْنَهَا تَعْظِيْماً شَدِيْدًا.
وَكَانُوْا يَرَوْنَهُمْ يُقَبِّلُوْنَ هٰذِهِ التَّمَاثِيْلَ، وَيَلْمَسُوْنَهَا وَيَدْعُوْنَ عِنْدَهَا.
وَكَانُوْا يَرَوْنَهُمْ يَخْفِضُوْنَ رُءُوسَهُمْ وَيَرْكَعُوْنَ عِنْدَهَا

فَزَادَ الْأَبْنَاءُ عَلَى الآبَاءِ، وَصَارُوْا يَسْجُدُوْنَ لَهَا.
وَصَارُوْا يَسْأَلُوْنَهَا، وَيَذْبَحُوْنَ لَهَا.
وَهٰكَذَا صَارَتْ هٰذِهِ الْأَصْنَامُ آلِهَةً، وَصَارَ النَّاسُ يَعْبُدُوْنَهَا كَمَا كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ اللهَ مِنْ قَبْلُ.
وَكَثُرَتْ هٰذِهِ الآلِهَةُ فِيْهِمْ، هٰذَا وَدٌّ، وَذٰلِكَ سُوَاعٌ، وَهٰذَا يَغُوْثُ، وَذٰلِكَ يَعُوْقُ، وَهٰذَا نَسْرٌ.

(٨) غضب الله

وَغَضِبَ اللهُ عَلَى النَّاسِ غَضَباً شَدِيْدًا وَلَعَنَهُمْ.
وَلِمَاذَا لاَ يَغْضَبُ اللهُ عَلَى النَّاسِ وَلاَ يَلْعَنُهُمْ؟
أَلِهٰذَا خَلَقَهُمْ، أَلِهٰذَا يَرْزُقُهُمْ؟
يَمْشُوْنَ عَلَى أَرْضِ اللهِ وَيَكْفُرُوْنَ بِاللهِ!
وَيَأْكُلُوْنَ رِزْقَ اللهِ وَيُشْرِكُوْنَ بِاللهِ!
إِنَّ هٰذَا لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ! إِنَّ هٰذَا لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ!

غَضِبَ اللهُ عَلَى النَّاسِ ، وَحَبَسَ الْمَطَرَ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ. وَقَلَّ الحَرْثُ وَقَلَّ النَّسْلُ.
وَلٰكِنَّ النَّاسَ مَا عَقَلُوْا، وَلٰكِنَّ النَّاسَ مَا تَابُوْا.

(٩) الرسول

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِّنْهُمْ يُكَلِّمُهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ.
إِنَّ اللهَ لاَ يُكَلِّمُ وَاحِداً وَاحِداً، إِنَّ اللهَ لاَ يُخَاطِبُ كُلَّ أَحَدٍ يَقُولُ لَهُ اِفْعَلْ كَذَا، اِفْعَلْ كَذَا.
إِنَّ الْمُلُوْكَ لاَ يُكَلِّمُوْنَ وَاحِدًا وَاحِدًا
إِنَّ الْمُلُوْكَ لاَ يَذْهَبُوْنَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ يَقُوْلُوْنَ لَهُ اِفْعَلْ كَذَا، اِفْعَلْ كَذَا.
وَالْمُلُوكُ بَشَرٌ كَالْبَشَرِ، يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَرَاهُمْ وَيَسْمَعَ كَلاَمَهُمْ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرَىٰ اللهَ

وَيَسْمَعَ كَلاَمَهُ وَيُكَلِّمَهُ، وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى ذٰلِكَ إلاَّ مَنْ أَرَادَ اللّٰهُ، إِذَا أَرَادَ اللّٰهُ.

فَأَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَى النَّاسِ رَسُوْلاً يُكَلِّمُهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ.

(١٠) بشرٌ أم ملك

وَأَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا الرَّسُوْلُ بَشَرًا، وَأَنْ يَكُوْنَ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ، يَعْرِفُهُ النَّاسُ وَيَفْهَمُوْنَ كَلاَمَهُ وَإِذَا كَانَ الرَّسُوْلُ مَلَكًا قَالَ النَّاسُ: مَا لَنَا وَلَهُ؟ هُوَ مَلَكٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ!

نَحْنُ نَأْكُلُ وَنَشْرَبُ وَلَنَا أَهْلٌ وَذُرِّيَّةٌ فَكَيْفَ نَعْبُدُ اللّٰهَ؟

وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ بَشَرًا قَالَ أَنَا آكُلُ وَأَشْرَبُ وَلِيَ أَهْلٌ وَذُرِّيَّةٌ وَأَنَا أَعْبُدُ اللّٰهَ فَلِمَ لاَ تَعْبُدُوْنَ اللّٰهَ؟

وَإِذَا كَانَ الرَّسُوْلُ مَلَكًا قَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ لاَ تَعْطَشُ وَلاَ تَجُوْعُ، وَإِنَّكَ لاَ تَمْرَضُ وَلاَ تَمُوْتُ فَتَعْبُدُ اللهَ وَتَذْكُرُهُ دَائِماً!.

وَنَحْنُ بَشَرٌ نَعْطَشُ وَنَجُوْعُ، وَنَمْرَضُ وَنَمُوْتُ، فَكَيْفَ نَعْبُدُ اللهَ وَنَذْكُرُهُ دَائِماً؟

وَإِذَا كَانَ الرَّسُوْلُ بَشَراً قَالَ أَنَا مِثْلُكُمْ أَعْطَشُ وَأَجُوْعُ وَأَمْرَضُ وَأَمُوْتُ وَأَعْبُدُ اللهَ وَأَذْكُرُهُ، فَلِمَاذَا لاَ تَعْبُدُوْنَ اللهَ وَلاَ تَذْكُرُوْنَهُ؟

فَيَنْقَطِعُ كَلاَمُ النَّاسِ وَلاَ يَجِدُوْنَ عُذْراً.

(١١) نوح الرسول

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُرْسِلَ نُوْحاً إِلَى قَوْمِهِ.

كَانَ فِي الْقَوْمِ أَغْنِيَاءُ وَرُؤَسَاءُ، وَلٰكِنَّ اللهَ اخْتَارَ نُوْحاً لِرِسَالَتِهِ. وَلَمْ يَخْتَرْ أَحَداً مِنْهُمْ.

اللهُ يَعْلَمُ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَتَهُ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَنْ يَحْمِلُ أَمَانَتَهُ.

وَكَانَ نُوْحٌ رَجُلاً صَالِحاً، كَرِيماً ، وَكَانَ نُوْحٌ رَجُلاً عَاقِلاً حَلِيْماً.

وَكَانَ نُوْحٌ نَاصِحاً شَفِيْقاً، وَكَانَ نُوْحٌ صَادِقاً أَمِيْنًا اِخْتَارَ اللهُ نُوْحاً لِرِسَالَتِهِ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ: «أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ».

فَقَامَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ يَقُوْلُ لِلنَّاسِ: «إِنِّي لَكُمْ رَسُوْلٌ أَمِيْنٌ».

(١٢) ماذا أجابه القوم؟

وَلَمَّا قَامَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ يَقُوْلُ: «إِنِّي لَكُمْ رَسُوْلٌ أَمِينٌ». قَامَ بَعْضُ النَّاسِ يَقُوْلُوْنَ: مَتَى صَارَ هٰذَا نَبِيًّا؟

بِالْأَمْسِ كَانَ رَجُلاً مِنَّا وَالْيَوْمَ يَقُوْلُ أَنَا رَسُوْلُ اللهِ إِلَيْكُمْ!

وَقَالَ أَصْدِقَاءُ نُوْحٍ: هٰذَا كَانَ يَلْعَبُ مَعَنَا فِي الصِّغَرِ وَيَجْلِسُ مَعَنَا كُلَّ يَوْمٍ فَمَتَى جَاءَتْهُ النُّبُوَّةُ؟ أَلَيْلاً أَمْ نَهَاراً!....

وَقَالَ الْأَغْنِيَاءُ وَالْمُتَكَبِّرُوْنَ: أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَداً غَيْرَهُ؟

أَمَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، أَمَا وَجَدَ فِي الْقَوْمِ إِلاَّ فَقِيْراً؟

وَقَالَ الْجُهَّالُ: «مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ».

وَقَالُوا: «لَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلٰئِكَةً ما سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِيْنَ»

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ إِنَّ نُوحاً يُرِيْدُ أَنْ يَنَالَ الرِّيَاسَةَ وَالشَّرَفَ بِهٰذَا الطَّرِيْقِ.

(٣) بين نوح وقومه

كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ هُوَ الْعَقْلُ.

وَكَانُوْا يَرَوْنَ أَنَّ الَّذِي لاَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ هُوَ فِي ضَلاَلَةٍ وَسَفَاهَةٍ.

وَكَانُوا يَقُوْلُونَ: قَدْ كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُوْنَ الْأَصْنَامَ فَلِمَاذَا لاَ يَعْبُدُهَا هٰذَا؟.

وَكَانَ نُوْحٌ يَرَى أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ضَلاَلَةٌ، وَأَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ سَفَاهَةٌ.

وَكَانَ نُوْحٌ يَرَى أَنَّ الآبَاءَ كَانُوْا فِي ضَلاَلَةٍ وَسَفَاهَةٍ وَأَنَّ آدَمَ وَهُوَ أَبُو الآبَاءِ مَا كَانَ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، بَلْ كَانَ يَعْبُدُ اللّٰهَ.

وَأَنَّ الْقَوْمَ فِي ضَلاَلَةٍ وَسَفَاهَةٍ إِذْ يَعْبُدُوْنَ الْحِجَارَةَ وَلاَ يَعْبُدُونَ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ.

قَامَ نُوْحٌ فِي الْقَوْمِ يَقُوْلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «يٰقَوْمِ اَعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ».

«قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ».

«قَالَ يٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلٰلَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُوْلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسٰلٰتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ».

(١٤) اتبعك الأرذلون

وَاجْتَهَدَ نُوْحٌ كَثِيْراً أَنْ يُؤْمِنَ قَوْمُهُ وَيَعْبُدُوْا اللهَ وَيَتْرُكُوا الْأَصْنَامَ.

وَلٰكِنْ مَا آمَنَ بِنُوْحٍ إِلاَّ بَعْضُ الْأَفْرَادِ مِنْ قَوْمِهِ.

مَا آمَنَ بِهِ إِلاَّ بَعْضُ الْأَفْرَادِ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ بِأَيْدِيْهِمْ وَيَأْكُلُوْنَ الْحَلاَلَ.

أَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَدْ مَنَعَهُمْ كِبْرُهُمْ أَنْ يُطِيْعُوا نُوْحاً.
وَشَغَلَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ أن يُفَكِّرُوْا في الآخِرَةِ وَكَانُوْا يَقُوْلُوْنَ: نَحْنُ أَشْرَافٌ وَهٰؤُلاَءِ أَرَاذِلُ.
وَلَمَّا دَعَاهُمْ نُوْحٌ إِلَى اللهِ قَالُوْا:
«أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُوْنَ»؟.
وَطَلَبُوْا مِنْ نُوْحٍ أَنْ يَّطْرُدَ هٰؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْنَ.

وَلٰكِنَّ نُوْحاً أَبَى وَقَالَ: «مَا أَنَا بطَارِدِ الْمُؤْمِنِيْنَ»، إِنَّ بَابِي لَيْسَ بَابَ مَلِكٍ، «إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيْرٌ مُبِيْنٌ».
وَكَانَ نُوْحٌ يَعْرِفُ أَنَّ هٰؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْنَ مُؤْمِنُوْنَ مُخْلِصُوْنَ.

وَأَنَّ اللهَ يَغْضَبُ إِذَا طَرَدَ هٰؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْنَ، وَإِذَنْ لاَ يَنْصُرُهُ أَحَدٌ.

فَقَالَ نُوْحٌ: «يٰقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ».

(٥) حجة الأغنياء

وَقَالَ الْأَغْنِيَاءُ: الَّذِي يَدْعُوْ إِلَيْهِ نُوْحٌ لَيْسَ بِحَقٍّ وَلَيْسَ بِخَيْرٍ.

لِمَاذَا؟.

لِأَنَّا جَرَّبْنَا أَنَّا نَحْنُ السَّابِقُوْنَ فِي كُلِّ خَيْرٍ. لَنَا كُلُّ طَيِّبٍ مِنَ الطَّعَامِ، وَلَنَا كُلُّ جَمِيْلٍ مِنَ اللِّبَاس. وَالنَّاسُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَنَا تَبَعٌ.

وَإِنَّا رَأَيْنَا أَنَّ الْخَيْرَ لاَ يُخْطِئُنَا وَلاَ يُجَاوِزُنَا فِي الْمَدِيْنَةِ.

فَلَوْ كَانَ هٰذَا الدِّيْنُ خَيْراً لَأَتَانَا قَبْلَ هٰؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْنِ «لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُوْنَا إِلَيْهِ».

(١٦) دعوة نوح

وَدَعَا نُوْحٌ قَوْمَهُ، وَاجْتَهَدَ فِي النَّصِيْحَةِ.

«قَالَ يٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيْرٌ مُبِيْنٌ، أَنِ اعْبُدُوْا اللّٰهَ وَاتَّقُوْهُ وَأَطِيعُوْنِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ»

وَكَانَ اللّٰهُ حَبَسَ عَنْهُمْ الْمَطَرَ وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَلَّ الْحَرْثُ وَقَلَّ النَّسْلُ.

فَقَالَ نُوْحٌ: يٰقَوْمِ إِنْ آمَنْتُمْ رَضِيَ عَنْكُمْ اللّٰهُ وَزَالَ هٰذَا الْعَذَابُ.

وَأَرْسَلَ عَلَيْكُمْ الْأَمْطَارَ وَبَارَكَ لَكُمْ فِي الرِّزْقِ وَالْأَوْلاَدِ.

وَدَعَا نُوْحٌ قَوْمَهُ إِلَى اللّٰهِ وَقَالَ لَهُمْ: أَلاَ تَعْرِفُوْنَ اللّٰهَ؟ هٰذِهِ آيَاتُ اللّٰهِ حَوْلَكُمْ أَلاَ تَنْظُرُوْنَ إِلَيْهَا؟ أَلاَ

تَنْظُرُوْنَ إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَلاَ تَنْظُرُوْنَ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟.

مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ؟ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوْراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً؟.

وَمَنْ خَلَقَكُمْ. وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطاً؟

وَلٰكِنَّ قَوْمَ نُوْحٍ لَمْ يَعْقِلُوا! وَلٰكِنَّ قَوْمَ نُوْحٍ لَمْ يُؤْمِنُوْا!

بَلْ إِذَا دَعَاهُمْ نُوْحٌ إِلَى اللهِ جَعَلُوْا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ.

وَكَيْفَ يَفْهَمُ مَنْ لاَ يَسْمَعُ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُ مَنْ لاَ يُرِيْدُ أَنْ يَسْمَعَ؟.

(١٧) دعاء نوح

وَاجْتَهَدَ نُوْحٌ كَثِيراً وَبَقِيَ يَدْعُوْ قَوْمَهُ زَمَناً طَوِيْلاً.

مَكَثَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَاماً

يَدْعُوْهُمْ إِلَى اللهِ.
وَلٰكِنَّ قَوْمَ نُوْحٍ لَمْ يُؤْمِنُوْا.
وَلَمْ يَتْرُكُوْا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَلَمْ يَرْجِعُوْا إِلَى اللهِ.
فَإِلَى مَتَى يَنْتَظِرُ نُوْحٌ؟ إِلَى مَتَى يَرَى فَسَادَ الْأَرْضِ؟
إِلَى مَتَى يَرَى الْحِجَارَةَ تُعْبَدُ؟
إِلَى مَتَى يَرَى النَّاسَ يَأْكُلُونَ رِزْقَ اللهِ وَيَعْبُدُوْنَ غَيْرَهُ؟

لِمَاذَا لاَ يَغْضَبُ نُوْحٌ؟ إِنَّهُ صَبَرَ صَبْراً لَمْ يَصْبِرْ أَحَدٌ مِثْلَهُ!.
أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَاماً اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ.
وَقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَى نُوْحٍ: «إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ».

وَقَالَ قَوْمُ نُوْحٍ لَمَّا دَعَاهُمْ نُوْحٌ مَرَّةً أُخْرَى.
«يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».
وَغَضِبَ نُوحٌ للهِ وَيَئِسَ مِنْ هٰؤُلاءِ وَقَالَ: اللّٰهُمَّ لاَ تَتْرُكْ عَلَى الْأَرْضِ أحَداً مِنَ الْكَافِرِينَ.

(١٨) السفينة

وَأَجَابَ اللهُ دَعْوَةَ نُوحٍ وَأَرَادَ أنْ يُغْرِقَ قَوْمَهُ.
وَلٰكِنَّ اللهُ يُرِيدُ كَذٰلِكَ أَنْ يَنْجُوَ نُوحٌ والْمُؤْمِنُونَ.
فأَمَرَ نُوحاً أَنْ يَصْنَعَ سَفِينَةً كَبِيْرَةً.
وَبَدَأَ نُوحٌ يَصْنَعُ سَفِيْنَةً كَبِيْرَةً.
وَرَآهُ قَوْمُهُ فِي هٰذَا الشُّغْلِ فَوَجَدُوا شُغْلاً.
وَصَارُوا يَسْخَرُوْنَ مِنْهُ.
مَا هٰذَا يَا نُوحُ؟ مِنْ مَتَى صِرْتَ نَجَّاراً؟
أَمَا كُنَّا نَقُولُ لَكَ لاَ تَجْلِسْ إِلَى هٰؤُلاَءِ الْأَرَاذِلِ.
وَلٰكِنَّكَ مَا سَمِعْتَ كَلاَمَنَا وَجَلَسْتَ إِلَى

النَّجَّارِينَ وَالْحَدَّادِينَ فَصِرْتَ نَجَّاراً !
وَأَيْنَ تَمْشِي هٰذِهِ السَّفِينَةُ يَا نُوحُ؟ إِنَّ أَمْرَكَ كُلَّهُ عَجَبٌ.
أَتَمْشِي هٰذِهِ فِي الرَّمْلِ أَمْ تَصْعَدُ الْجَبَلَ؟
الْبَحْرُ مِنْ هُنَا بَعِيدٌ جِدًّا، هَلْ يَحْمِلُهَا الْجِنُّ أَمْ تَجُرُّهَا الثِّيرَانُ؟
وَكَانَ نُوحٌ يَسْمَعُ كُلَّ ذٰلِكَ وَيَصْبِرُ، وَقَدْ سَمِعَ أَشَدَّ مِنْ هٰذَا فَصَبَرَ !
وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ أَحْيَانًا: «إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

(١٩) الطوفـان

وَجَاءَ وَعْدُ اللهِ فَالْعِيَاذُ بِاللهِ !
أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ.

حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاءَ مِنْخَلَةٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً.
وَنَبَعَ الْمَاءُ وَسَالَ حَتَّى أَحَاطَ بِالنَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.
وَأَوْحَى اللهُ إِلَى نُوْحٍ: خُذْ مَعَكَ مَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَهْلِكَ.

وَأَوْحَى اللهُ إِلَى نُوحٍ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ وَطَائِرٍ زَوْجاً، ذَكَراً وَأُنْثَى
لِأَنَّ الطُّوفَانَ عَامٌّ لاَ يَنْجُوْ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلاَ حَيَوَانٌ.
وَكَذٰلِكَ فَعَلَ نُوْحٌ، فَكَانَ مَعَهُ فِي السَّفِيْنَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ.
وَمِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ وَطَائِرٍ زَوْجٌ.
وَسَارَتِ السَّفِيْنَةُ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ.
وَٱرْتَقَى الْقَوْمُ كُلَّ مَكَانٍ عَالٍ وَكُلَّ رَبْوَةٍ يَفِرُّوْنَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وَلٰكِنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ.

(٢٠) ابن نوح

وَكَانَ لِنُوحٍ ابْنٌ كَانَ مَعَ الْكَافِرِينَ.
وَرَأَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ فِي الطُّوفَانِ فَقَالَ: «يٰبُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ».
«قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ».
«قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ».
«وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ».
وَحَزِنَ نُوحٌ عَلَى ابْنِهِ، وَكَيْفَ لاَ يَحْزَنُ وَهُوَ ابْنُهُ.
وَأَرَادَ أَنْ يَنْجُوَ ابْنُهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ لَمْ يَنْجُ مِنَ الْمَاءِ أَمْسِ.
إِنَّ النَّارَ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ، وَإِنَّ عَذَابَ الآخِرَةِ أَشَقُّ أَمَا وَعَدَهُ اللهُ أَنَّهُ يُنْجِي أَهْلَهُ؟ بَلَىٰ! إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

فَأَرَادَ أَنْ يَشْفَعَ لابْنِهِ عِنْدَ اللهِ.

(٢١) ليسَ من أهلكَ

«وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ: إنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ».
وَلَكِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَنْسَابِ بَلْ يَنْظُرُ إِلَى الْأَعْمَالِ.
وَاللهُ لاَ يَقْبَلُ الشَّفَاعَةَ فِي الْمُشْرِكِينَ.
وَلَيْسَ الْمُشْرِكُ مِنْ أَهْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَ ابْنَهُ.
فَنَبَّهَ اللهُ نُوحًا عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ: «يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».
وَتَنَبَّهَ نُوحٌ وَتَابَ إِلَى اللهِ وَقَالَ:

«رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْلِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

(٢٢) بعد الطوفان

وَلَمَّا كَانَ مَا أَرَادَهُ اللهُ وَغَرِقَ الْكُفَّارُ أَمْسَكَتِ السَّماءُ وَغَارَ الْمَاءُ.
وَاسْتَوَتْ السَّفِينَةُ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».
وَقِيل يا نُوْحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ.
وَهَبَطَ نُوْحٌ وَأَصْحَابُ السَّفِينَةِ يَمْشُونَ عَلَى الْبَرِّ بِسَلاَمٍ.
وَهَلَكَ الْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ نُوْحٍ فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ.
وَبَارَكَ اللهُ في ذُرِّيَّةِ نُوحٍ فَانْتَشَرَتْ في الأَرْضِ

وَمَلَأَتِ الْأَرْضَ.
وَكَانَ فِيهَا أُمَمٌ وَكَانَ فِيهَا أَنْبِيَاءُ وَمُلُوكٌ.
«سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ».
«سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ».

العاصفة

(١) بعد نوح

بارَكَ اللهُ في ذُرِّيّةِ نُوحٍ فَانْتَشَرَتْ في الأَرْضِ.
وَكَانَ مِنْهَا أُمَّةٌ يُقَالُ لهَا عَادٌ.
وَكَانُوا رِجَالاً أَقْوِيَاءَ، أَجْسَامُهُمْ كَأَنَّها مِنْ حَدِيدٍ
يَغْلِبُونَ كلَّ وَاحِدٍ وَلاَ يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ.
وَلاَ يَخَافُونَ أَحَدًا وَيَخَافُهُمْ كُلُّ أَحَدٍ.
وَبَارَكَ اللهُ لِعَادٍ في كلِّ شَيْءٍ، فَكانَتْ إِبلُ عَادٍ وَغَنَمُهَا تَمْلأُ الْوَادِي.
وَكَانَتْ خَيْلُ عَادٍ تَمْلَأُ الْمَيْدَانَ.
وَكَانَتْ أَوْلاَدُ عَادٍ تَمْلأُ الْبُيُوتَ.

وَإِذَا خَرَجَتْ إِبْلُ عَادٍ وَغَنَمُهَا إِلَى الْمَرْعَى كَانَ لَهَا مَنْظَرٌ جَمِيْلٌ جداًّ.

وَإِذَا خَرَجَ الْأَطْفَالُ فِي الصَّبَاحِ يَلْعَبُونَ كَانَ لَهُمْ مَنْظَرٌ جَمِيلٌ جداًّ.

وَكَانَتْ أَرْضُ عَادٍ كَذَلِكَ أَرْضًا جَمِيلَةً خَضْرَاءَ فِيهَا بَسَاتِينُ وَعُيُونٌ كَثِيرَةٌ.

(٢) كفران عاد

وَلٰكِنَّ عَادًا لَمْ يَشْكُرُوا اللهَ عَلَى هٰذِهِ النِّعَمِ الْكَثِيْرَةِ وَنَسِيَتْ عَادٌ قِصَّةَ الطُّوْفَانِ الَّتِي سَمِعُوهَا مِنْ آبائهِمْ وَرَأَوْا آثَارَهُ فِي الْأَرْضِ.

وَنَسُوا لِمَاذَا أَرْسَلَ اللهُ الطُّوْفَانَ عَلَى أُمَّةِ نُوحٍ.

وَصَارُوا يَعْبُدُوْنَ الْأَصْنَامَ كَمَا كَانَتْ أُمَّةُ نُوْحٍ

تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ.
وَكَانُوا يَنْحِتُوْنَ الْأَصْنَامَ مِنَ الْحِجَارَةِ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَسْجُدُوْنَ لَهَا وَيَعْبُدُونَهَا.
وَكَانُوا يَسْأَلُونَهَا حَاجَاتِهِمْ وَيَدْعُوْنَهَا وَيَذْبَحُونَ لَهَا
وَكَانُوا عَلَى أَثَرِ أُمَّةِ نُوْحٍ.
وَكَانَتْ عُقُولُهُمْ لاَ تَمْنَعُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.
وَكَانَتْ عُقُولُهُمْ لاَ تَهْدِيهِمْ.
وَكَانُوا عُقَلاَءَ فِي الدُّنْيَا أَغْبِيَاءَ فِي الدِّينِ.

(٣) عدوان عاد

وَصَارَتْ قُوَّةُ عَادٍ وَبَالاً عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ.
لِأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ.
فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ؟ وَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعُدْوَانِ؟.

وَلِمَاذَا لاَ يَظْلِمُوْنَ النَّاسَ؟ وَهُمْ لاَ يَرَوْنَ فَوْقَهُمْ أَحَدًا، وَلاَ يَخَافُونَ حِسَاباً وَلاَ عِقَاباً.

وَكَانُوا كَوُحُوشِ الْغَابَةِ يَظْلِمُ الْكَبِيْرُ مِنْهُمْ الصَّغِيرَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُمْ الضَّعِيفَ.

وَإِذَا غَضِبُوا كَانُوا كَالْفِيلِ الْهَائِج، لاَ يَلْقَى شَيْئًا إِلاَّ قَتَلَهُ.

وَكَانُوا إِذَا حَارَبُوا أَهْلَكُوا الحَرْثَ وَالنَّسْلَ.

وَإِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً.

وَكَانَ الضُّعَفَاءُ يَخَافُونَ شَرَّهُمْ، وَيَفِرُّونَ مِنْ ظُلْمِهِمْ.

وَصَارَتْ قُوَّتُهُمْ وَبالاً عَلَيْهِمْ وَعَلى النَّاس.

وَكَذَلِكَ كلُّ مَنْ لاَ يَخَافُ اللهَ وَلاَ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ.

(٤) قصورُ عاد

وَكَانَ عَادٌ لاَ شُغلَ لَهُمْ إلاَّ الأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَاللَّهْوُ وَاللّعِبُ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَفْخَرُ عَلَى بَعْضٍ في بِنَاءِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ وَالْبُيُوتِ الْوَاسِعَةِ.

وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ تَضِيعُ في الْمَاءِ والطِّين وَالْحِجَارَةِ وَكَانُوا لاَ يَرَوْنَ مَكانًا خَالياً أَوْ أَرْضًا مُرْتَفِعَةً إلَّا بَنَوْا عَلَيْهَا قَصْراً رَفِيْعاً.

وَكَانُوا يَبْنُونَ بُيُوتاً كَأَنَّمَا يَسْكُنونَ فيها دَائِماً وَلاَ يَمُوتُونَ أَبداً

وَكَانُوا يَبْنونَ قُصُوراً مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَالنَّاسُ لاَ يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ وَيَلْبَسُونَ.

وَكَانَ الْفُقَرَاءُ مِنْهُمْ لاَ يَجِدُونَ بَيْتاً يَسْكُنون فيهِ

وَبُيُوتُ الْأَغْنِيَاءِ لاَ سَاكِنَ فِيهَا، وَمَنْ رَآهُمْ وَرَأَى قُصُورَهُمْ عَرَفَ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة.

(٥) هود الرّسول

وَأَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَى عَادٍ رَسُولاً.
إِنَّ اللّٰهَ لاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ، إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.
وَكَانَ عَادٌ لاَ يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ إلاَّ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَبِنَاءِ الْبُيُوتِ.
وَقَدْ فَسَدَتْ عُقُولُهُمْ لِأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الدِّين
وَكَانَ عَادٌ عُقَلاَءَ فِي الدُّنْيَا أَغْبِيَاءَ فِي الدِّينِ، يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ وَلا يَعْقِلُونَ.
فَأَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً يَهْدِيهِمْ.
وَأَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا الرَّسُولُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ،

يَعْرِفُونَهُ وَيَفْهَمُونَ كَلامَهُ.
كَانَ هُودٌ ذلِكَ الرَّسُولَ، وُلِدَ في بَيْتٍ شَرِيفٍ في عادٍ وَنَشَأَ عَلَى عَقْلٍ وَصَلاَحٍ.

(٦) دعوة هود

وَقَامَ هُودٌ في قَوْمِهِ يَدْعُو وَيَقُولُ:
«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ».
وقَالَ هُودٌ: «يَا قَوْمِ كَيْفَ تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ ولاَ تَعْبُدُونَ الَّذِي خَلَقَكُمْ!؟.
يَا قَوْمِ هٰذِهِ الْحِجَارَةُ الَّتي نَحَتُّمُوهَا أَمْسِ كَيْفَ تَعْبُدُونَها الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وبَارَكَ لَكُمْ في الْأَمْوَالِ والْأَوْلاَدِ والْحَرْثِ والنَّسْلِ.
وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً في الْجِسْمِ.

كَانَ مِنْ حَقِّ هَذِهِ النِّعَمِ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تَعْبُدُوا غَيْرَهُ.

إِنَّ هٰذَا الْكَلْبَ الَّذي تَرْمُونَ إِلَيْهِ بِعَظْمٍ لاَ يُفَارِقُ بَيْتَكُمْ وَيَتْبَعُكُمْ كالظِّلِّ.

أَفَرَأَيْتُمْ كَلْباً يَتْرُكُ سَيِّدَهُ وَيَذْهَبُ إِلَى غَيْرِهِ؟

أَوَرَأَيْتُمْ حَيَوَاناً يَعْبُدُ حَجَراً، أَوَرَأَيْتُمْ حَيَوَاناً يَسْجُدُ لِصَنَمٍ؟

هَلِ الْإِنْسَانُ أَذَلُّ مِنَ الْحَيَوَانِ، أَمْ هُوَ أَجَلُّ مِنَ الْحَيَوانِ؟

(٧) جواب القوم

كَانَ الْقَوْمُ في شُغْلٍ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ واللَّهْوِ وَاللَّعِبِ.

وَقَدْ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا.

ضَاقَ قَلْبُهُمْ بِكَلامِ هودٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا يَقُولُ هُودٌ؟ مَاذَا يُرِيدُ هُودٌ؟ نَحْنُ لاَ نَفْهَمُ كَلامَهُ !

قَالُوا : سَفِيهٌ أَوْ مَجْنُونٌ !

وَلَمّا دَعَاهُمْ هُودٌ مَرَّةً أُخْرى، قالَ أَشْرَافُ قَوْمِهِ: «إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

«قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

«أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

(٨) حكمة هود

وَمَا زَالَ هُودٌ يَنْصَحُ لِقَوْمِهِ وَيَدْعُوهُمْ بِحِكْمَةٍ وَرِفْقٍ.

قَالَ هُودٌ: يَا قَوْمِ أَنَا أَخُوكُمْ وَصَدِيقُكُمْ بِالْأَمْسِ! أَلاَ تعْرِفُونَنِي ؟

يَا إِخْوَانِي! لِمَاذَا تَخَافُونَنِي وَتَفِرُّونَ مِنِّي، إِنِّي لاَ أَنْقُصُ مِنْ مَالِكُمْ شَيْئًا.

«يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ».

يَا قَوْمِ مَاذَا تَخَافُونَ إِنْ آمَنْتُمْ باللهِ، وَاللهِ لاَ تَفْقِدُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً إِذَا آمَنْتُمْ باللهِ!

بَلْ يُبَارِكُ اللهُ لَكُمْ فِي الرِّزْقِ وَيَزِيدُ فِي قُوَّتِكُمْ.

وَيَاقَوْمِ لِمَاذَا تَتَعَجَّبُونَ مِنْ رِسَالَتِي؟ إِنَّ اللهَ لاَ يُكَلِّمُ وَاحِداً وَاحِداً!

إِنَّ اللهَ لاَ يُخَاطِبُ كُلَّ أَحَدٍ يَقُولُ لَهُ: افْعَلْ كَذَا، افْعَلْ كَذَا!

إِنَّ اللهَ يُرْسِلُ إِلى كلِّ قَوْمٍ رَجُلاً مِنْهُمْ يُكَلِّمُهُمْ

وَيَنْصَحُ لَهُمْ.
وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ أُكَلِّمُكُمْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ:
«أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ»؟

(٩) إيمان هود

وَلَمْ تَجِدْ عَادٌ جَوَاباً! وَمَا عَلِمُوا كَيْفَ يُجِيبُونَ
هُودًا!.

وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا لَمَّا عَجَزُوا: قَدْ غَضِبَتْ عَلَيْكَ
آلِهَتُنَا فَأَصَابَكَ مَرَضٌ فِي عَقْلِكَ!

وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْكَ وَبَالٌ مِنَ الآلِهَةِ.
قَالَ هُودٌ: إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ حِجَارَةٌ لاَ تَنْفَعُ
أَحَداً وَلاَ تَضُرُّ!

وَإِنّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ حِجَارَةٌ لاَ تَتَكلّمُ وَلاَ تَسْمَعُ وَلاَ تَنْظُرُ !

إنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لاَ تَمْلِكُ خيْراً وَلاَ شَرًّا.

وَلاَ تَمْلِكُ لِأَحَدٍ نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا !

وَإِنَّكُمْ أَيْضاً لاَ تَمْلِكُونَ خَيْراً وَلاَ شَرًّا!

وَلاَ تَمْلِكُونَ لِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا !

إنِّي لاَ أُؤْمِنُ بآلِهَتِكُمْ وَلاَ أَخَافُهُمْ.

«إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

وَلاَ أَخَافُكُمْ أَيْضاً «فَكِيدُونِي جَمِيعاً».

« إِنِّي تَوَكلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ».

كلُّ شَيْءٍ تَحْتَ يَدِهِ، وَلاَ تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إلاَّ بِإِذْنِهِ.

(١٠) عناد عاد

سَمِعتْ عَادٌ كلَّ ذٰلِكَ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا !

ضَاعَتْ فِيهِمْ نَصِيحَةُ هُودٍ! ضَاعَتْ فِيهِمْ حِكْمَةُ هُودٍ.

وَقَالُوا يَا هُودُ مَا عِنْدَكَ دَلِيلٌ وَلاَ بَيِّنَةٌ!

وَلاَ نَتْرُكُ يَا هُودُ آلِهَتَنَا الْقَدِيمَةَ لِقَوْلِكَ الْجَدِيدِ.

أَنَتْرُكُ الآلِهَةَ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا آبَاؤنَا لِقَوْلِ قَائِلٍ؟

أَبَداً، أَبَداً.

وَيَا هُودُ إِنَّكَ لاَ تُؤْمِنُ بِآلِهَتِنَا وَلاَ تَخَافُهُمْ.

فَإِنَّا لاَ نُؤْمِنُ بِإِلَهِكَ وَلاَ نَخَافُ عَذَابَهُ.

وَإِنَّنَا نَسْمَعُكَ كَثِيراً تَذْكُرُ الْعَذَابَ، فَأَيْنَ هُوَ يَاهُودُ، وَمَتَى يَجِيءُ.

قَالَ هُودٌ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

قَالَتْ عَادٌ: فَإِنَّنَا نَنْتَظِرُ ذَلِكَ الْعَذَابَ وَنَشْتَاقُ أَنْ نَرَاهُ.

وَتَعَجَّبَ هُودٌ مِنْ جَرَاءَتِهِمْ، وَتَأَسَّفَ هُودٌ عَلَى سَفَاهَتِهِمْ.

(١١) العذاب

وَكَانَ عَادٌ يَنْتَظِرُونَ الْمَطَرَ كلَّ يَوْمٍ وَيَنْظُرُونَ إِلَى السَّماءِ فَلاَ يَرَوْنَ قِطْعَةَ سَحَابٍ.

وَكَانُوا في حَاجَةٍ إِلَى الْمَطَرِ، وَكَانَ لَهُمْ شَوْقٌ عَظِيمٌ إِلَى الْمَطَرِ،

ذَاتَ يَوْمٍ رَأَوْا سَحَابَةً تَأْتي إِلَيْهِمْ، فَفَرِحُوا جِداً.

وَصَاحُوا: هٰذِهِ سَحَابَةُ مَطَرٍ! هٰذِهِ سَحَابَةُ مَطَرٍ.

وَرَقَصَ النَّاسُ فَرَحاً، وَنَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَقَالُوا: سَحَابَةُ مَطَرٍ! سَحَابَةُ مَطَرٍ!

وَلٰكِنَّ هُوداً فَهِمَ أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ جَاءَ.

وَقَالَ لَهُمْ هُودٌ: لَيْسَ هٰذَا سَحَابَ رَحْمَةٍ، بَلْ هُوَ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وَكَانَ كَذَلِكَ، فَقَدْ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ مَا رَأَى النَّاسُ مِثْلَهَا، وَمَا سَمِعَ النَّاسُ بِمِثْلِهَا.

وَهَبَّتْ الْعَاصِفَةُ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ وَتَهْدِمُ الْبُيُوتَ وَتَحْمِلُ الدَّوَابَّ وَتَرْمِيهَا إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ.

وَطَارَتْ رِمَالُ الصَّحْرَاءِ وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فَلَا يَرَى الْإِنْسَانُ شَيْئاً.

وَدَخَلَهُمُ الرُّعْبُ فَدَخَلوا بُيُوتَهُمْ وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا.

وَاعْتَنَقَ الْأَطْفَالُ بِالْأُمَّهَاتِ، وَاعْتَنَقَ النَّاسُ بِالْجُدْرَانِ، وَدَخَلَ النَّاسُ الْحُجُرَاتِ.

الْأَطْفَالُ يَبْكُونَ، وَالنِّسَاءُ يَصِحْنَ، وَالرِّجَالُ يَدْعُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ.

وَكَأَنَّ قَائِلاً يَقُولُ:

«لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ».

كَانَ ذٰلِكَ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ.

وَمَاتَ الْقَوْمُ فَكَانُوا كَأَشْجَارِ النَّخِيلِ سَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَكَانَ مَنْظَراً غَرِيباً جِداً، النَّاسُ أَمْوَاتٌ يَأْكُلُهُمْ الطَّيْرُ، والْبُيُوتُ خَرَابٌ يَسْكُنُهَا الْبُومُ.

وَنَجَا هُودٌ وَالْمُؤْمِنُونَ بِإِيمَانِهِمْ، وَهَلَكَتْ عَادٌ بِكُفْرِهَا وَعِنَادِهَا.

«أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ».

ناقة ثمود

(١) بعد عاد

وَرِثَتْ ثَمُوْدُ عَادًا كَمَا وَرِثَتْ عَادٌ أُمَّةَ نُوْحٍ.

وَكَانَتْ ثَمُوْدُ عَلَى أَثَرِ عَادٍ، كَمَا كَانَتْ عَادٌ عَلَى أَثَرِ أُمَّةِ نُوْحٍ.

وَكَانَتْ أَرْضُ ثَمُوْدَ أَيْضاً أَرْضاً جَمِيْلَةً خَضْرَاءَ، فِيْهَا بَسَاتِيْنُ وَعُيُوْنٌ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

وَكَانَتْ ثَمُوْدُ كَعَادٍ فِي العِمَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَفِي كَثْرَةِ البَسَاتِيْنِ.

وَفَاقُوهُمْ فِي الْعَقْلِ وَالصِّنَاعَةِ، فَكَانُوْا يَنْحِتُوْنَ

مِنَ الْجِبَالِ بُيُوْتاً وَاسِعَةً جَمِيْلَةً، وَيَنْقُشُوْنَ فِي الْحِجَارَةِ نُقُوْشاً بَدِيْعَةً.

وَقَدْ لاَنَ لَهُمُ الْحَجَرُ بِعَقْلِهِمْ وَصِنَاعَتِهِمْ فَيَصْنَعُوْنَ بِهِ مَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّمْعِ.

وَإِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ مَدِيْنَتَهُمْ رَأَى عَجَباً، رَأَى قُصُوراً عَظِيمَةً كَالْجِبَالِ كَأَنَّمَا بَنَاهَا الْجِنُّ، وَرَأَى أَزْهَاراً جَمِيلَةً فِي الجُدْرَانِ كَأَنَّمَا أَنْبَتَهَا الرَّبِيعُ.

وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَى ثَمُودَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَى ثَمُودَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ.

جَادَتْ لَهُمُ السَّماءُ بِالْأَمْطَارِ، وَجَادَتْ لَهُمُ الْأَرْضُ بِالنَّبَاتِ وَالْأَزْهَارِ، وَجَادَتْ لَهُمْ

الْبسَاتِينُ بالْفَوَاكِهِ وَالْأَثْمَارِ ، وَبَارَكَ اللهُ لَهُمْ في الرِّزْقِ وَالْأَعْمَارِ .

(٢) كفران ثمود

وَلٰكِنَّ كلَّ ذٰلِكَ لَمْ يَحْمِلْ ثَمُودَ عَلَى الشُّكرِ وَعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى.

بَلْ حَمَلَهُمْ ذٰلِكَ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ؛ وَنَسُوا اللهَ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً.

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَخْرُجُونَ مِنْ قُصُورِهِمْ وَجَنَّاتِهِمْ أَبدًا .

وَظَنُّوا أَنَّ الْمَوْتَ لاَ يَدْخُلُ في هٰذِهِ الْجِبَالِ وَلاَ يَجِدُ إِلَيْهِمْ سَبيلاً ! .

لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ أُمَّةَ نُوحٍ إِنَّمَا غَرِقَتْ لِأَنَّهَا كَانَتْ في الْوَادِي.

وَأَنَّ عَاداً إِنَّمَا هَلَكُوا لِأَنَّهُمْ كَانُوا في السَّهْلِ !
وَأَنَّهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْمَوْتِ بِمكَانٍ آمِنٍ.

(٣) عبادة الأصنام

وَلَمْ يَكْفِهِمْ هٰذَا، بَلْ نَحَتُوا الْحِجَارَةَ وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ.

وَصَارُوا يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ كمَا كانَتْ أُمَّةُ نُوْحٍ تَعْبُدُهَا، وَكَذٰلِكَ عَادٌ.

إنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَهُمْ مُلُوكَ الْحِجَارَةِ وَلَكِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ صَارُوا عُبَّادَ الْحِجَارَةِ.

إِنَّ اللهَ كَرَّمَهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

وَلٰكِنَّهُمْ أَهَانُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهَانُوا الْإِنْسَانَ.

«إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

عَجَباً! إنَّ الْحَجَرَ الَّذِي يَنْحِتُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ فَلاَ يَأْبىٰ وَلاَ يَعْصِيهِمْ.
قَدْ خَضَعُوا لَهُ وَوَقَعُوا سَاجِدِينَ !
أَيَعْبُدُ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ؟ أَيَسْجُدُ السَّيِّدُ لِعَبْدِهِ؟
وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَبَوْا أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ فَأَذَلَّهُمُ اللهُ.

(٤) صالح
عليه الصلاة والسلام

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيهِمْ رَسُولاً، كما أَرْسَلَ إِلَى أُمَّـــةِ نُوحٍ وَأَرْسَلَ إِلَى عَادٍ رَسُولاً .
إِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ.
وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ اسْمُهُ صَالِحٌ، وُلِدَ فِي بَيْتٍ

شَرِيفٍ وَنَشَأَ عَلَى عَقْلٍ وصَلاَحٍ.
وَكَانَ وَلَداً نَجيباً جِدًّا، وكَانَ وَلَداً رشِيداً جِداً،
يُشِيرُ إِلَيْهِ النَّاسُ.
وَيَقُولُونَ: هٰذَا صَالِحٌ، هٰذَا صَالِحٌ.
وَكَانَ لِلنَّاسِ فيهِ رَجَاءٌ كَبيرٌ، يَقُولُونَ: سَيَكُونُ
لَهُ شَأْنٌ، سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ.

يَرَى النَّاسُ أَنَّ صَالِحاً يَكُونُ مِنْ أَشْرَافِهِمْ،
وَيَكُونُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ.
وَيَرَونَ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ قَصْرٌ جَمِيلٌ وَبُسْتَانٌ كَبِيرٌ.
وَيَرَى أَبُوهُ أَنَّ ابْنَهُ يَكْسِبُ بِعَقْلِهِ مَالاً عَظِيماً
وَيَخْرُجُ فِي النَّاسِ.
يَخْرُجُ عَلَى فَرَسٍ وَوَرَاءَهُ الْخَدَمُ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ
النَّاسُ، وَيَقُولُونَ هٰذَا ابْنُ فُلاَنٍ، هٰذَا ابْنُ فُلاَنٍ!
وَكَمْ يَكُونُ سُرُورُهُ إِذَا سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ إِنَّهُ

سَعِيدٌ جداً، إِنَّ ابْنَهُ غَنِيٌّ جداً.
وَلٰكِنَّ اللّٰهَ أَرَادَ غَيْرَ ذٰلِكَ، إِنَّ اللّٰهَ أَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَيُرْسِلَهُ إِلَى قَوْمِهِ، لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.
وَهَلْ فَوْقَ ذٰلِكَ شَرَفٌ؟ وَهَلْ فَوْقَ ذٰلِكَ كَرَامَةٌ؟

(٥) دعوة صالحٍ

وَقَامَ صَالِحٌ فِي قَوْمِهِ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:
«يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ».
وَكَانَ الْأَغْنِيَاءُ فِي شُغْلٍ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَكَانُوا فِي لَهْوٍ وَلَعِبٍ.
وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَلاَ يَرَوْنَ إِلٰهاً غَيْرَهَا، فَمَا أَعْجَبَتْهُمْ دَعْوَةُ صَالِحٍ، غَضِبَ أَغْنِيَاءُ ثَمُودَ وَقَالُوا: مَنْ هٰذَا؟
قَالَ الْخُدَّامُ: هٰذَا صَالِحٌ.

قَالُوا : مَاذَا يَقُولُ ؟

قَالُوا: يَقُولُ : اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ، وَيَقُولُ إنَّ اللهَ يَبْعَثُكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَيَجْزِيكُمْ. وَيَقُولُ: أَنَا رَسُولُ اللهِ أَرْسَلَنِي إلَى قَوْمِي.

ضَحِكَ الْأَغْنِيَاءُ وَقَالُوا: مِسْكِينٌ! هَلْ يَكُونُ هٰذَا رَسُولاً؟ مَا عِنْدَهُ قَصْرٌ وَلاَ بُسْتَانٌ، وَمَا لَهُ زَرْعٌ وَلاَ نَخِيلٌ! فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا رَسُولاً ؟

(٦) دعاية الأغنياء

وَرَأَىٰ الْأَغْنِيَاءُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَمِيلُونَ إلَى صَالِحٍ فَخَافُوا عَلَى رِيَاسَتِهِمْ وَقَالُوا :

« مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ».

« وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذًا لَخٰسِرُونَ »

«أَيعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ».
«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ».
«إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».
«إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ».

(٧) قد أخطأ ظننا !

وَكَفَرَ النَّاسُ بِصَالِحٍ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.
وَلَمَّا وَعَظَهُمْ صَالِحٌ وَمَنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ قَالُوا :
يَا صَالِحُ كُنْتَ وَلَداً نَجِيباً جِداً، وَكُنْتَ وَلَداً رَشِيداً جِداً وَكُنَّا نَظُنُّ أَنَّكَ سَتَكُونُ مِنْ كِبَارِ

النَّاس وَأَشْرَافِهِمْ . وَكُنَّا نَظُنُّ أَنَّكَ سَتَكُونُ مِثْلَ فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ فَلَمْ تكُنْ شَيْئاً . وَالّذِينَ كَانُوا في سِنِّكَ ، وَكَانُوا دُونَكَ في الْعَقْلِ أَصْبَحُوا رِجَالاً كِباراً .

وَأَنْتَ يَا صَالِحُ أَخَذْتَ سَبِيلَ الْفَقْرِ ؛ قَدْ أَخْطَأَ ظَنُّنَا فِيكَ ، قَدْ خَابَ رَجَاؤُنَا فِيكَ.

مِسْكِينٌ أَبُوكَ ، مَا نَالَ خَيْراً مِنْكَ.

مِسْكِينَةٌ أُمُّكَ ، لَقَدْ ضَاعَ تَعَبُهَا فِيكَ !

سَمِعَ صَالِحٌ كُلَّ هٰذَا وَتَأَسَّفَ عَلَى قَوْمِهِ ؛ وَإِذَا مَرَّ صَالِحٌ بِقَوْمٍ قَالُوا : رَحِمَ اللهُ أَبَا صَالِحٍ لَقَدْ ضَاعَ ابْنُهُ.

(٨) نصيحة صالح

وَلَمْ يزَلْ صَالِحٌ يَنْصَحُ لِقَوْمِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ بحِكْمَةٍ وَرِفْق.

يَقُولُ: يَا إِخْوَانِي! أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ هُنَا إِلَى الْأَبَدِ؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ تَسْكُنُونَ في هٰذِهِ الْقُصُورِ دَائِماً؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ لاَ تزَالُونَ في هٰذِهِ البَسَاتِينِ وَالْأَنْهارِ؟

وَأَنَّكُمْ لاَ تزَالُونَ تَأْكُلونَ مِنْ هٰذِهِ الزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ؟

وَأَنَّكُمْ لاَ تزَالُونَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجبَالِ بُيُوتاً؟

أَبَداً! أَبداً! انَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُونُ! إِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُونُ! فَلِمَاذَا مَاتَ آباؤُكُم يا إِخْوَانِي!

كَانَتْ لَهُمْ قُصُورٌ، وَكَانَتْ لَهُمْ كَذَٰلِكَ بَسَاتِينُ وَعُيُونٌ.

وَكَانَتْ لَهُمْ زُرُوعٌ وَنَخِيلٌ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ

مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً يَسْكُنُونَ فِيهَا.
وَلكِنَّ كلَّ ذٰلِكَ لَمْ يَنْفَعْهُمْ! وَلَكِنَّ كلَّ ذٰلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُمْ!
وَوَصَلَ إِلَيْهِمْ مَلَكُ الْمَوْتِ وَوَجَدَ إِلَيْهِمْ سَبِيلاً!
كَذٰلِكَ تَمُوتُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً وَيَبْعَثُكُمُ اللهُ وَيَسْأَلُكُمْ عَنْ هٰذَا النَّعِيمِ.

(٩) ما أسألكم عليه من أجر

وَيا إِخْوَانِي لِمَاذَا تَفِرُّونَ مِنِّي؟ مَاذَا تخَافُونَ؟
أَنا لاَ أَنْقُصُ مِنْ مَالِكُمْ شَيْئاً، أَنَا لاَ أَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئاً.
أَنَا أَنْصَحُ لَكُمْ وَأُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي.
«وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ».

وَيَا إِخْوَانِي لِمَاذَا لاَ تُطِيعُونَنِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ؟ وَلِمَاذَا تُطِيعُونَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ؟ وَالَّذِينَ يَفْجُرُونَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ!

وَعَجَزَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَجِدُوا عَلَى ذٰلِكَ جَوَاباً.

فَقَالُوا: «إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

(١٠) ناقة الله

قَالَ صَالِحٌ: وَأَيَّ آيَةٍ تُرِيدُونَ؟

قَالوا: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ هٰذَا الْجَبَلِ نَاقَةً حَامِلاً!

وَكَانَ النَّاسُ يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاقَةَ لاَ تَلِدُهَا إِلاَّ النَّاقَةُ. وَأَنَّ النَّاقَةَ لاَ تَنْبُتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَنْتِجُ مِنَ

الْحجَرِ. وَأَيْقَنُوا أنَّ صَالِحاً سَيَعْجِزُ وَأَنَّهُمْ سَيَنْجَحُونَ !

وَلٰكِنَّ صَالِحاً كَانَ قَوِيَّ الْإِيمَانِ بِرَبِّهِ وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللّٰهَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَدَعَا اللّٰهَ صَالِحٌ، وَكَانَ كما طَلَبَ النَّاسُ، خَرَجَتْ مِنَ الْجَبَلِ نَاقَةٌ حَامِلٌ وَوَلَدَتْ.

وَتَحَيَّرَ النَّاسُ وَدَهِشُوا، وَلٰكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إلاَّ وَاحِدٌ.

(١١) النوبة

قَالَ صَالِحٌ: هٰذِهِ نَاقَةُ اللّٰهِ، وَهٰذِهِ آيَةُ اللّٰهِ! سَأَلْتُمْ فخَلَقَهَا لَكُمْ بِقُدْرَتِهِ.

فَاحْتَرِمُوا هٰذِهِ النَّاقَةَ «وَلاَ تمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ».

وَإِنَّ هٰذِهِ النَّاقَةَ تَأْكُلُ في أَرْضِ اللهِ وَتَشْرَبُ وَتَأْتي وَتَذْهَبُ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ عَلَفُهَا وَمَاؤُهَا، فَالْعَلَفُ كَثِيرٌ وَالْمَاءُ كَثِيرٌ.

وَكَانَتْ هٰذِهِ النَّاقَةُ كَبِيرَةً جِدًّا وَغَرِيبَةً في الْخَلْقِ، فَكَانَتْ مَاشِيَتُهُمْ تَخَافُهَا وَتَنْفِرُ مِنْهَا.

وَكَانَتْ كُلَّمَا جَاءَتْ تَشْرَبُ نَفَرَتِ الْمَاشِيَةُ وَفَرَّتْ.

رَأَى صَالِحٌ ذٰلِكَ فَقَالَ: لِلنَّاقَةِ يَوْمٌ وَلِمَاشِيَتِكُمْ يَوْمٌ. فَيَوْماً تَشْرَبُ هٰذِهِ النَّاقَةُ، وَيَوْماً تَشْرَبُ مَاشِيَتُكُمْ. وَكَذٰلِكَ كَانَ، فَإِذَا كَانَتْ نَوْبَةُ النَّاقَةِ ذَهَبَتْ فَشَرِبَتْ. وَإِذَا كَانَتْ نَوْبَةُ مَاشِيَةِ الْقَوْمِ ذَهَبَتْ فَشَرِبَتْ.

(١٢) طغيان ثمود

وَلٰكِن اسْتَكْبَرَ الْقَوْمُ وَطَغَوْا، وَقَالُوا لِمَاذَا لاَ تَشْرَبُ مَاشِيَتُنَا كُلَّ يَوْمٍ.

وَضَجِرَ النَّاسُ مِنْ هٰذِهِ النَّاقَةِ الَّتِي تَنْفُرُ مِنْهَا مَاشِيَتُهُمْ. وَكَانَ صَالِحُ قَدْ حَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يُهِينُوا هٰذِهِ النَّاقَةَ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَحْذَرُوا.

قَالُوا : مَنْ يَقْتُلْ هٰذِهِ النَّاقَةَ؟

قَامَ رَجُلٌ وَقَالَ : أَنَا !

وَقَامَ الْآخَرُ وَقَالَ : أَنَا !

وَذَهَبَ الشَّقِيَّانِ وَجَلَسَا يَنْتَظِرَانِ خُرُوجَ النَّاقَةِ؛ حَتَّى إِذَا خَرَجَتِ النَّاقَةُ رَمَاهَا الْأَوَلُ بِسَهْمٍ، وَنَحَرَهَا الثَّانِي فَقَتَلَهَا.

(١٣) العذاب

وَلَمَّا عَلِمَ صَالِحٌ أَنَّ النَّاقَةَ قَدْ نُحِرَتْ تَأَسَّفَ وَحَزِنَ جِدًّا ، وَقَالَ لِلنَّاسِ : «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رِجَالٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ؛

فَحَلَفُوا وَقَالُوا نَقْتُلُ صَالِحاً وَأَهْلَهُ فِي اللَّيْلِ ، وَإِذَا سُئِلْنَا نَقُولُ مَا عِنْدَنَا عِلْمٌ ؛

وَلٰكِنَّ اللّٰهَ حَفِظَ صَالِحاً وَأَهْلَهُ .

وَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ ؛ أَصْبَحُوا كَعَادَتِهِمْ فَإِذَا بِصَيْحَةٍ مَعَ زِلْزَالٍ شَدِيدٍ . صَيْحَةٌ تَفَطَّرَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَزِلْزَالٌ تَهَدَّمَتْ مِنْهُ الْبُيُوتُ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ثَمُودَ شَدِيداً .

وَمَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَخَرِبَتْ الْمَدِينَةُ.

وَهَاجَرَ صَالِحٌ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الشَّقِيَّةِ. وَمَا يَصْنَعُونَ فِيهَا؟

وَخَرَجَ صَالِحٌ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى قَوْمِهِ وَهُمْ أَمْوَاتٌ، فَقَالَ بِصَوْتٍ حَزِينٍ:

«يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلٰكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

وَلاَ يَرَى الْإِنْسَانُ الْيَوْمَ هُنَالِكَ إِلاَّ قُصُوراً خَالِيَةً وَبِئْراً مُعَطَّلَةً.

وَلاَ يَرَى إِلاَّ قُرًى مُوحِشَةً لَيْسَ فِيهَا دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ.

وَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دِيَارِ ثَمُودَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الشَّامِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:

«لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ

تكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا مِنْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ».

«أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُود».

بسم الله الرحمن الرحيم

للباحث الداعية الأستاذ سيد قطب

عرفت صاحب هذا الكتيب «السيد أبو الحسن الندوي» . عرفته في شخصه وفي قلمه . فعرفت فيه القلب المسلم والعقل المسلم ، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام .

هذه شهادة لله أؤديها ، وأنا أقدم هذه الطبعة من ذلك الكتيب الصغير .

وقصص النبيين للأطفال – على صغر حجمه – عمل جليل يضاف إلى أعمال السيد أبي الحسن وإخوانه الأفاضل في حقل الدعوة الإسلامية . فليس الكبار وحدهم هم الذين يجب أن يبلغ إليهم الإسلام في صورته النقية ، بل إن قلوب الصغار لأحوج إلى هذا الغذاء ، ليشبوا وطعم الإيمان في نفوسهم ، ونوره في قلوبهم ، وبشاشته في أرواحهم ، والقصص هي المادة الأولى التي تتفتح لها تلك القلوب الصغيرة البريئة .

وهذا الكتيب – وإن كان مكتوباً للصغار – إلا أنني أعتقد أن الكثيرين من الكبار في حاجة إلى أن يقرأوه . فالكثيرون لم يتح لهم تعليمهم الذي سيطر عليه الاستعمار وهيمن عليه التبشير ، أن

يعرفوا شيئاً عن قصص القرآن الكريم ، ومراميه العميقة ، وجوّه الإيماني التهذيبي المؤثر ، كما هو معروض في هذا الكتيب .

ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال — بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام — وشاركت في تأليف مجموعة « القصص الديني للأطفال » في مصر مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم . ولكني أشهد في غير مجاملة — أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي بين يدي ، جاء أكمل من هذا كله . وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها ، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة ، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار .

جزى الله السيد أبا الحسن خيراً ، وزاده توفيقاً ، وهدى بـه الأجيال الناشئة التي تحيط بها العواصف والأعاصير ، وتنتثر في طريقها الأشواك ، وتدلهم من حولها الظلمات ، وتحتاج إلى الهدى والنور والرعاية ، والإخلاص في حياطتها ورعايتها . وعلى الله التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – من كنعان إلى مصر

انْتَقَلَ يَعْقُوبُ «عَلَيْهِ السَّلامُ» إلى مِصْرَ وَانْتَقَلَ مَعَهُ أَوْلادُهُ .

انْتَقَلُوا إلى مِصْرَ لأَنَّ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوب «عَلَيْهِمَا السَّلامُ» هُوَ سَيِّدُ مِصْرَ ، يَأْمُرُ وَيَنْهىٰ فِيهَا .

وَكانُوا في كَنْعَانَ يَرْعَوْنَ الْغَنَمَ وَيَحْلِبُونَ الشَّاةَ وَيَبِيعُونَ الصُّوفَ .

وَعَبِيدُ يُوسُفَ وَخَدَمُهُ يَأْكُلُونَ وَيَنْعَمُونَ في مِصْرَ !

فَمَا يَصْنَعُونَ فِي كَنْعَانَ ؟ وَلِمَاذَا لَا يَذْهَبُونَ إلى مِصْرَ ؟

أَرْسَلَ يُوسُفُ إِلَى يَعْقُوبَ وَأَهْلِهِ وَطَلَبَهُمْ مِنْ كَنْعَان

وَكَانَ يُوسُفُ لَا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ حَتَّى يَرَى أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ .

وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ، وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ عَيْشٌ وَهُوَ وَحِيدٌ فِي مِصْرَ؟

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْقُصُورِ وَأَبُوهُ وَإِخْوَتُهُ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ فِي كَنْعَانَ ؟!

وَجَاءَ يَعْقُوبُ وَأَوْلَادُهُ إِلَى مِصْرَ فَاسْتَقْبَلَهُمْ يُوسُفُ وَفَرِحَ بِهِمْ فَرَحاً عَظِيماً .

وَاسْتَقْبَلَتْ مِصْرُ أُسْرَةَ سَيِّدِهَا وَأُسْرَةَ مَلِكِهَا

الْكَرِيمِ وَفَرِحَتْ بِها فَرَحاً عَظِيماً .

وَأَحَبَّ أَهْلُ مِصْرَ هٰذَا الْبَيْتَ الْكَرِيمَ، لِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ يُوسُفَ لِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلى النَّاسِ .

وَلِأَنَّهُمْ رَأَوْا فِي يُوسُفَ أَخاً نَاصِحاً شَفِيقاً، فَرَأَوْا فِي يَعْقُوبَ وَالِداً مَاجِداً كَرِيماً .

وَكَانَ يَعْقُوبُ كَبِيرَ الْبِلَادِ، وَشَيْخَ مِصْرَ، وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ لَهُ كَالْأَبناءِ .

وَطَابَتْ لِيَعْقُوبَ وَأَبْنَائِهِ الْإِقَامَةُ فِي مِصْرَ وَصَارَتْ لَهُمْ وَطَناً .

٢ — بعد يوسف

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يَعْقُوب فَحَزِنَ عَلَيْهِ يُوسُفُ وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ .

وَدَفَنُوا الشَّيْخَ فِي مِصْرَ وَكَأَنَّهُمْ فَقَدُوا أَبَاهُمْ .

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يُوسُفُ أَيْضاً فَكَانَ يَوْماً عَلَى أَهْلِ مِصْرَ شَدِيداً .

وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ حُزْناً شَدِيداً وَبَكَوا عَلَيْهِ بُكَاءً طَوِيلاً .

وَنَسِيَ النَّاسُ أَحْزَانَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ هٰذَا الْيَوْمِ .

وَدَفَنُوا يُوسُفَ أَيْضاً وَعَزَّى بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَكَانُوا فِي يُوسُفَ سَوَاءً .

كُلُّ صَغِيرٍ فَقَدَ أَبَاهُ وَكُلُّ كَبِيرٍ فَقَدَ أَخَاهُ .

وَمَشَى النَّاسُ إِلَى إِخْوَةِ يُوسُفَ وَأَبْنَائِهِمْ يُعَزُّونَهُمْ .

وَيَقُولُونَ لَهُمْ : أَيُّهَا السَّادَةُ ! لَيْسَتْ خَسَارَتُكُمْ

الْيَوْمَ أَكْبَرَ مِنْ خَسَارَتِنا نَحْنُ .

فَقَدْ فَقَدْنَا فِي دَفِينِ الْيَوْمِ أَخاً شَفِيقاً، وَسَيِّداً رَحِيماً وَمَلِكاً عَادِلاً .

هوَ الَّذِي أَرَاحَ الْعِبادَ، وَأَزَالَ الظُّلْمَ مِنَ الْبِلادِ .

هُوَ الَّذِي مَنَعَ الْكَبِيرَ يَظْلِمُ الصَّغِيرَ، وَمَنَعَ الْقَوِيَّ يَأْكُلُ الضَّعِيفَ .

هُوَ الَّذِي أَغَاثَ المظْلُومَ وَأَجَارَ الْخَائِفَ وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ .

هُوَ الَّذِي هَدَانَا إِلَى الْحَقِّ وَدَعَانَا إِلى اللهِ وَكُنَّا قَبْلَ قُدُومِهِ بَهَائِمَ لَا نَعْرِفُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُ الآخِرَةَ .

هُوَ الَّذِي أَغَاثَنَا أَيَّامَ المجَاعَةِ فَكُنَّا نَأْكُلُ

وَنَشْبَعُ، وَالنَّاسُ يَمُوتُونَ فِي الْبِلَادِ الْأُخْرَى .

إِنَّا لَا نَنْسَى مَلِكَنَا الْكَرِيمَ أَبَداً وَلَا نَنْسَى أَيُّهَا السَّادَةُ أَنَّكُمْ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ .

وَكَمْ فَرِحَ بِكُمْ سَيِّدُنَا يَوْمَ قُدُومِكُم إِلى مِصْرَ وَكَمْ فَرِحْنَا بِفَرَحِ سَيِّدِنَا .

فَالْبِلَادُ بِلَادُكُمْ، وَإِنَّا لَكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ كَمَا كُنَّا فِي حَيَاةِ سَيِّدِنَا .

٣ — بنو اسرائيل في مصر

وَهٰكَذَا كَانَ مُدَّةً طَوِيلَةً !

فَقَدْ حَفِظَ أَهْلُ مِصْرَ مَا قَالُوا وَعَرَفُوا لِلْكَنْعَانِيِّينَ الْفَضْلَ .

وَكَانَ هٰؤُلَاءِ الْكَنْعَانِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا

يُدْعَوْنَ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» أَصْحَابَ شَرَفٍ وَأَمْوَال .

وَلٰكِنْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ بَعْدَ ذٰلِكَ، فَقَدْ فَسَدَتْ أَخْلاقُهُمْ، وَتَرَكُوا الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ وَدُعَاءَ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ، وَسَقَطوا عَلَى الدُّنْيَا .

وَتَغَيَّرَ لَهُمُ النَّاسُ أَيْضاً وَصَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ مَا كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلى آبَائِهِمْ .

وَصَارُوا كَسَائِرِ النَّاسِ، لَا يَمْتَازُونَ عَنِ النَّاسِ إِلَّا بِالنَّسَبِ .

وَصَارَ النَّاسُ يَحْسُدُونَ الْغَنِيَّ مِنْهُمْ وَيَحْتَقِرُونَ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ .

وَصَارَ أَهْلُ مِصْرَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ كَغَرِيبٍ جَاءَ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ .

وَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي مِصْرَ .

وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْبِلَادِ وَأَنَّ مِصْرَ لِلْمِصْرِيِّينَ .

وَيَرَى بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ يُوسُفَ كَانَ غريباً جَاءَ مِنْ كَنْعَانَ .

وَاشْتَرَاهُ عَزِيزُ مِصْرَ .

وَلَيْسَ لِلْكَنْعَانِي أَنْ يَحْكُمَ مِصْرَ .

وَنَسِيَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَضْلَ يُوسُفَ وَكَرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ .

٤ – فرعون مصر

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ فَرَاعِنَةٌ « مُلوكُ مِصْرَ » يُبْغِضُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بُغْضاً شَدِيداً .

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جداً.
فَكَانَ لَا يَرَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهُمْ مِنْ بَيْتِ يُوسُفَ مَلِكِ مِصْرَ الْكَرِيمِ .

بَلْ كَانَ لَا يَرَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ يَسْتَحِقُّونَ الرَّحْمَةَ وَالْإِنْصَافَ .

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جداً.
وَكَانَ يَرَى أَنَّ قَوْمَهُ « الْقِبْطَ » مِنْ نَوْعٍ وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ .

الْقِبْطُ مِنْ نَوْعِ الْمُلُوكِ خُلِقُوا لِيَحْكُمُوا .
وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعِ الْعَبِيدِ خُلِقُوا لِيَخْدِمُوا .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يُعَامِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَامَلَةَ

الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ يَسْتَخْدِمُهَا الإِنْسَانُ وَلَا يُعْطِيهَا إِلاَّ قُوتَ يَوْمِهَا .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ مَلِكاً جَبَّاراً مُتَكَبِّراً لَا يَرَى فَوْقَهُ أَحَداً .

وَكَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ بَلْ كانَ يَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ» .

وَكَانَ مَغْرُوراً بِمُلْكِهِ وَقُصُورِهِ وَقُوَّتِهِ وَيَقُول: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ» .

وَكَأَنَّهُ كانَ خَلِيفَةً لِنَمْرُودَ مَلِكِ بَابِلَ .

وَكانَ يَغْضَبُ إِذَا عَلِمَ أَحَداً يَرَى فَوْقَهُ أَحَداً .

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَالسُّجُودِ لَهُ،

وَأَطَاعَهُ النَّاسُ .

وَامْتَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَيُؤْمِنُونَ بِرُسُلِهِ وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .

٥ – ذبح الأطفال

وَذَهَبَ كَاهِنٌ قِبْطِيٌّ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَالَ لَهُ : « يُولَدُ مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَذْهَبُ مُلْكُكَ عَلَى يَدِهِ » .

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ ، وَأَمَرَ الشُّرْطَةَ أَنْ يَذْبَحُوا كلَّ مَوْلودٍ يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَرَى أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ يَذْبَحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَنْ يَشَاءُ .

كَصَاحِبِ الْغَنَمِ يَذْبَحُ مِنْ غَنَمِهِ مَا يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَا يَشَاءُ .

وَانْتَشَرَتِ الشُّرْطَةُ فِي مِصْرَ يُفَتِّشُونَ وَيَبْحَثُونَ فَإِذَا عَلِمُوا مَوْلُوداً وُلِدَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوهُ وَذَبَحُوهُ كَمَا تُذْبَحُ النَّعْجَةُ .

وَعَاشَتِ الذِّئَابُ فِي الْغَابَةِ وَعَاشَتِ الْحَيَّاتُ وَالْعَقَارِبُ فِي الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا أَحَدٌ .

وَلٰكِنْ مَا كَانَ لِمَوْلُودٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعِيشَ فِي مَمْلَكَةِ فِرْعَوْنَ .

وَذُبِحَ أُلُوفٌ مِنَ الْأَطْفَالِ أَمَامَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ .

وَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْماً عَسِيراً .

وَكَانَ يَوْمَ حُزْنٍ وَبُكَاءٍ .

وَكانَ الْيَوْمُ الَّذي يُولَدُ فِيهِ مَوْلودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ تَعْزِيَةٍ وَرِثَاء .

وَكَانَ يُذْبَحُ مِئَاتٌ مِنَ الْأَطْفَالِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ كَعِيدِ الْأَضْحٰى .

يُذْبَحُ فِيهِ مِئَاتٌ مِنَ الْغَنَمِ وَالنِّعَاجِ وَالْبَقَرِ .

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » .

٦ – ولادة موسى

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَقَعَ مَا كَانَ فِرْعَونُ يَخَافُهُ

وَيحذَره .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِهِ .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُونَ خَلَاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِهِ.

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

وُلِدَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَى رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ

وَعَاشَ مُوسَى ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ عَلَى رَغْمِ الشُّرْطَةِ وَرَقَابَتِهِمْ .

٧ – في النيل

وَلٰكِنْ خَافَتْ أُمُّ مُوسٰى عَلَى مَوْلودِهَا الْجَميلِ ، وَكَيْفَ لَا تَخَافُ وَعَدُوُّ الْأَطْفَالِ بِمِرْصَادٍ ؟.

وَكَيْفَ لَا تَخافُ وَقَدِ اخْتَطَفَتِ الشُّرْطَةُ عَشَرَاتٍ مِنَ الْأَطْفَالِ مِنْ حِجْرِ الْأُمَّهَاتِ في أُسْرَتِها .

مَاذَا تَصْنَعُ الْأُمَّ الْمِسْكِينَةُ ، وَأَيْنَ تُخْفِي هٰذَا الْمَوْلودَ الْجَميلَ وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

هُنَالِكَ أَغَاثَ اللّٰهُ الْأُمَّ الْمِسْكِينةَ وَأَلْهَمَهَا أَنْ تَضَعَهُ فِي صُنْدُوقٍ وَتُلْقِيَه فِي النِّيلِ .

اللّٰهُ أَكْبَرُ ! كَيْفَ تَضَعُ الْأُمُّ الْحَنُونُ طِفْلَهَا

فِي صُنْدُوقٍ وَتُلْقيهِ فِي النِّيلِ ؟!

مَنْ يُرْضِعُ الطِّفْلَ فِي الصُّنْدُوقِ؟ وَكَيْفَ يَتَنَفَّسُ الطِّفْلُ فِي الصُّنْدُوق ؟!

كُل ذٰلِكَ فَكَّرَتِ الْأُمُّ الْحَنُونُ وَلٰكِنَّهَا تَوَكَّلَتْ عَلَى اللهِ وَاعْتَمَدَتْ عَلَى وَحْيِ اللهِ .

وَلَيْسَ الْبَيْتُ أَحْفَظَ لِلطِّفْلِ مِنَ الصُّنْدُوقِ!

هُنَا الشُّرْطَةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَعَدُوُّ الْأَطْفَالِ بِمِرْصَاد .

وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَفعَلَتِ الْأُمُّ الْمِسْكِينَةُ مَا أَمَرَهَا اللهُ وَوَضَعَتْ طِفْلَهَا الْجَمِيلَ فِي صُنْدُوقٍ وَأَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ .

وَجَزِعَتِ الْأُمُّ الْحَنُونُ ثُمَّ صَبَرَتْ وَتَوَكَّلَتْ

عَلَى اللهِ .

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

٨ - في قصر فرعون

كَانَ فِرْعَوْنُ لَهُ قُصُورٌ كَثِيرَةٌ عَلَى شَاطِىءِ النِّيلِ .

وَكَانَ يَتَنَقَّلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَىٰ قَصْرٍ وَيَتَنَزَّهُ عَلَى شَاطِىءِ النِّيلِ .

وَكَانَ يَوْماً جَالِساً عَلَىٰ شَاطِىءِ النِّيلِ يَتَنَزَّهُ وَيَرَى إِلَى النَّهْرِ يَجْرِي تَحْتَ رِجْلَيْهِ .

وَكَانَتْ مَعَهُ مَلِكَةُ مِصْرَ تَتَنَزَّهُ مَعَ الْمَلِكِ

وَتَرَى إِلَى النِّيلِ يَجْرِي وَبَيْنَمَا يَتَنَزَّهَانِ إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُمَا عَلَىٰ صُنْدُوقٍ تَلْعَبُ بِهِ أَمْوَاجُ النِّيلِ كَأَنَّمَا تُقَبِّلُه .

هَلْ تَرَىٰ يَا سَيِّدِي ذٰلِكَ الصُّنْدُوقَ ؟

أَيْنَ الصُّنْدُوقُ فِي النِّيلِ ؟ إِنَّمَا هِيَ خَشَبَةٌ سَقَطَتْ فِي النِّيلِ .

لَا يَا سَيِّدِي إِنَّمَا هُوَ صُنْدُوقٌ !

وَقَرُبَ الصُّنْدُوقُ ، فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ هٰذَا صُنْدُوقٌ !

وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَحَدَ الْخَدَمِ ، وَقَالَ : إِلَيْكَ هٰذَا الصُّنْدُوقَ !

وَذَهَبَ الْخَادِمُ وَأَخْرَجَ الصُّنْدُوقَ !

وَفُتِحَ الصُّنْدُوق فَإِذَا فِيهِ غُلَامٌ جَمِيلٌ

يَبْتَسِمُ .

وَتَحَيَّرَ النَّاسُ، كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيَرَاهُ .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَرَآهُ .

قَالَ بَعْضُ الْخَدَمِ ، إِنَّ هٰذَا الْغُلَامَ إِسْرَائِيلِيٌّ وَلا بُدَّ لِلْمَلِكِ أَنْ يَذْبَحَهُ .

وَرَأَتْهُ الْمَلِكَةُ، وَدَخَلَ حُبُّهُ فِي قَلْبِهَا فَضَمَّتْهُ إِلَىٰ صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْهُ .

وَشَفِعَتْ لَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ وَقَالَتْ: «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» .

وَهٰكَذَا دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ قَصْرَ فِرْعَوْنَ، وَعَاشَ عَلَىٰ رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ .

وَلَمْ يَهْتَدِ الشُّرْطَةُ إِلَىٰ هٰذَا الْمَوْلُودِ الْإِسْرَائِيلِيِّ ،

وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُرَبِّي فِرْعَوْنُ « عَدُوُّ الْأَطْفَالِ » طِفْلاً يَذْهَبُ مُلْكُهُ عَلَىٰ يَدِهِ .

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ ! لَقَدْ أَخْطَأَ فِي شَأْنِ مُوسَىٰ .

وَقَدْ أَخْطَأَ مَعَهُ وَزِيرُه هَامَانُ وَجُنُودُه .

« وَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُـــوا خَاطِئِينَ » .

٩ – من يرضع الطفل ؟؟

وَكَانَ الطِّفْلُ الْجَدِيدُ وَكَانَ الطِّفْلُ الْجَمِيلُ لُعْبَةَ الْقَصْرِ وَلَهْوَ الدَّارِ .

كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُهُ ، وَكُلٌّ يُحِبُّهُ وَيَمْدَحُه ،

لِأَنَّ الْمَلِكَةَ تُحِبُّهُ حُبًّا عَظِيماً .

فَكَيْفَ لَا تُحِبُّهُ سَيِّدَاتُ الْقَصْرِ وَكَيْفَ لَا يُحِبُّهُ خَدَمُ الْقَصْرِ .

وَكُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُهُ، لِأَنَّ الطِّفْلَ جَمِيلٌ .

وَطَلَبَتِ الْمَلِكَةُ مُرْضِعاً تُرْضِعُ الطِّفْلَ، وَجَاءَتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبَىٰ .

وَطَلَبَتِ الْمَلِكَةُ مُرْضِعاً أُخْرَى، وَحَضَرَتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ، وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبَىٰ .

وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً وَخَامِسَةً وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبَىٰ .

عَجَباً! لماذَا لَا يَرْتَضِعُ الطِّفْلُ، لِأَيِّ شَيْءٍ يَبْكِي ؟

اِجْتَهَدَتِ الْمَرَاضِعُ أَنْ تُرْضِعَ الطِّفْلَ لِتُسُرَّ الْمَلِكَةَ وَتَنَالَ مِنْهَا جَائِزَةً، وَلٰكِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .

وَأَصْبَحَ الطِّفْلُ حَدِيثَ الْقَصْرِ وَشُغْلَ الدَّارِ .

هَلْ رَأَيْتِ يَا أُخْتِيَ الطِّفْلَ الْجَدِيدَ ؟

نَعَمْ قَدْ رَأَيْتُهُ، طِفْلٌ جَمِيلٌ جِداًّ .

وَلٰكِنَّهُ طِفْلٌ غَرِيبٌ لَيْسَ كَالْأَطْفَالِ ! إِنَّهُ لَا يَرْتَضِعُ .

وَإِذَا أَخَذَتْهُ مُرْضِعٌ يَبْكِي وَيَأْبَىٰ أَنْ يَرْتَضِعَ، مِسْكِينٌ كَيْفَ يَعِيشُ؟ إِنَّهُ يَمُوتُ .

نَعَمْ قَدْ مَضَىٰ عَلَيْهِ أَيَّامٌ وَلَمْ يَرْتَضِعْ .

١٠ - في حجر أمه

وَقَالَتِ الْأُمُّ الْحَنُونُ لِأُخْتِ مُوسَىٰ :
إِذْهَبِي يَا بِنْتِي وَانْظُرِي أَخَاكِ لَعَلَّهُ حَيٌّ.
إِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنَّهُ يَرُدُّ الطِّفْلَ إِلَيَّ وَأَنَّهُ يَحْفَظُه .
وَذَهَبَتْ أُخْتُ مُوسَىٰ تَبْحَثُ عَنْ أَخِيهَا .
وَسَمِعَتِ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ طِفْلٍ جَمِيلٍ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ .
ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ وَوَقَفَتْ تَسْمَعُ حَدِيثَ النِّسَاءِ فِي الْقَصْرِ .
هَلْ جَاءَتِ الْمُرْضِعُ الَّتِي طَلَبَتْهَا الْمَلِكَةُ مِنْ أَسْوَانَ؟
نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي، وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ أَبَىٰ أَيْضاً

وَلَمْ يَرْتَضِعْ .

يَا سَلَامُ! مَا شَأْنُ هٰذَا الطِّفْلُ؟ لَعَلَّ هٰذِهِ هِيَ السَّادِسَةُ الَّتِي جَرَّبَتْهَا الْمَلَكَةُ .

نَعَمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهَا مُرْضِعٌ نَظِيفَةٌ جِداً وَكُلٌّ يَرْتَضِعُ مِنْهَا .

سَمِعَتْ أُخْتُ مُوسٰى هٰذَا الْكَلَامَ وَقَالَتْ بِأَدَب وَلُطْفٍ:

أَنَا أَعْرِفُ امْرَأَةً فِي الْبَلَدِ، لَا بُدَّ أَنْ يَرْتَضِعَ مِنْهَا الطِّفْلُ .

قَالَتْ امْرَأَةٌ: أَنَا لا أُصَدِّقُ قَدْ جَرَّبْنَا سِتَّ مَرَاضِعَ وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ لَمْ يَرْتَضِعْ .

قَالَتْ أُخْرَى: وَ لِمَاذَا لَا نُجَرِّبُ السَّابعَهَ، مَاذَا عَلَيْنَا ؟

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى الْمَلِكَةِ فَطَلَبَتِ الْجَارِيَةَ وَقَالَتْ:

« إِذْهَبِي وَخُذِي مَعَكِ هٰذِهِ الْمَرْأَةَ » .

وَجَاءَتْ أُمُّ مُوسٰى ، وَجَاءَتْ خَادِمَة وَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا مُوسٰى .

فَاعْتَنَقَ الطِّفْلُ الْمَرْأَةَ وَأَقْبَلَ يَرْتَضِعُ ، كَأَنَّهُ كَانَ مِنْهَا عَلَى مِيعَادٍ .

وَلِمَاذَا لا يَرْتَضِعُ وَهِيَ أُمُّهُ الْحَنُونُ ؟!

وَلِمَاذَا لا يَرْتَضِعُ وَهُوَ جَائِعٌ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ؟!

وَعَجِبَتِ الْمَلِكَةُ وَعَجِبَ أَهْلُ الْقَصْرِ وَارْتَابَ فِرْعَوْن وَقَالَ: لِمَاذَا قَبِلَ هٰذَا الطِّفْلُ هٰذِهِ الْمَرْأَةَ فَهَلْ هِيَ أُمُّهُ ؟

قَالَتْ أُمُّ مُوسىٰ: يَا سَيِّدِي أَنَا امْرَأَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَن كُلُّ طِفْلٍ يَقْبَلُنِي.

وَسَكَتَ فِرْعَوْنُ وَأَجْرَى عَلَيْهَا رِزْقاً.

وَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسىٰ إِلى بَيْتِهَا وَفِي حِجْرِهَا مُوسىٰ.

« فَرَدَدْنَاهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ ».

١١ – إلى قصر فرعون!

وَلَمَّا أَتَمَّتْ أُمُّ مُوسىٰ رَضَاعَتَهُ رَدَّتْهُ إِلى الْقَصْرِ.

وَنَشَأَ مُوسىٰ فِي قَصْرِ المَلِكِ كَمَا يَنْشَأُ أَبْنَاءُ المُلُوكِ.

وَهٰكَذَا زَالَتْ مِنْ قَلْبِ مُوسٰى مَهَابَةُ الْمُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ .

وَرَأَى مُوسٰى بِعَيْنَيْهِ كَيْفَ يَنْعَمُ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُهُ .

وَكَيْفَ يَشْقَىٰ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِيَنْعَمَ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُهُ .

وَكَيْفَ يَجُوعُ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِتَشْبَعَ دَوَابُّ فِرْعَوْنَ .

وَكَيْفَ يُعَامِلُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ .

وَكَيْفَ يَسْتَخْدِمُونَهُمْ وَيَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

وَكَانَ مُوسٰى يَرَى ذٰلِكَ صَبَاحَ مَسَاءَ وَيَسْكُتُ .

وَلٰكِنْ كَانَ مُوسٰى يَغِيظُهُ ذٰلِكَ .
وَكَيْفَ لا يَغِيظُهُ إِهَانَةُ قَوْمِهِ وَأُسْرَتِهِ .
وَهُمْ أَبْنَاءُ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ .
وَمَا ذَنْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ،أَلأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَقْبَاطاً ؟!
أَلأَنَّهُمْ مِنْ كَنْعَانَ ؟ !
هٰذَا لَيْسَ بِذَنْبٍ! هٰذَا لَيْسَ بِذَنْبٍ !

١٢ – الضربة القاضية

وَلَمَّا كَانَ مُوسٰى شَابًّا قَوِياً آتَاهُ اللهُ حُكماً وَعِلْماً .

وَكَانَ مُوسٰى يُبْغِضُ الظَّالِمِينَ وَيَكْرَهُهُمْ، وَيُحِبُّ الضُّعَفَاءَ وَالْمَظْلُومِينَ وَيَنْصُرُهُمْ وَكَذٰلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ .

وَدَخَلَ مُوسٰى مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ مَرَّةً وَالنَّاسُ في لَهْوٍ وَشُغُلٍ .

وَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هٰذَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهٰذَا مِنَ الْأَقْبَاطِ. أَعْدَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

فَصَرَخَ الإِسْرَائِيلِيُّ وَنَادَى مُوسٰى لِنَصْرِهِ وَشَكَى الْقِبْطِيَّ .

وَغَضِبَ مُوسى فَضَرَبَ الْقِبْطِيَّ، فَكَانَتِ الْقَاضِيَةَ .

وَمَاتَ الْقِبْطِيُّ وَنَدِمَ مُوسٰى جِدًّا وَعَرَفَ أَنَّ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

فَتَابَ مُوسٰى إِلى اللهِ وَأَنَابَ وَكَذٰلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ .

« قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ

مُضِلٌّ مُبِينٌ » .

وَتَابَ اللهُ عَلَى مُوسَىٰ، لِأَنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ، بَلْ ضَرَبَهُ وَلٰكِنَّهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ .

وَحَمِدَ اللهَ مُوسَىٰ وَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ وَغَفَرَ لِي « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » .

وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ وَيَحْذَرُ مَتَى تَجِيئُهُ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ وَلَهُم عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَأَصْبَحَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ مَتَىٰ تَجِيئُهُ الشُّرْطَةُ وَيَأْخُذُونَهُ إِلَى الْجَبَّارِ .

وَرَأَى الشُّرْطَةُ قَتِيلاً قِبْطِيّاً مِنْ خَدَمِ فِرْعَوْنَ فَفَتَّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ .

وَمَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَى الْقَاتِلِ وَلَا يَعْلَمُهُ إلاَّ مُوسٰى وَالْإِسْرَائِيلِيُّ ؟!

وَأَصْبَحَ الْقَتِيلُ حَدِيثَ الْبَلَدِ وَشُغْلَ الْمَدِينَةِ، كُلٌّ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلا يَعْلَمُ قَاتِلَهُ .

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَقَالَ لِلشُّرْطَةِ: لا بُدَّ أَن تُفَتِّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ .

١٣ – يظهر السر

وَفِي الْيَوْمِ الثَّاني يَرَى مُوسٰى ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ فِي قِتَالٍ وَخِصَامٍ مَعَ قِبْطِيٍّ آخَرَ .

وَمَا اسْتَحَىٰ الْإِسْرَائِيلِيُّ بَلْ صَرَخَ وَنَادٰى مُوسٰى لِنُصْرَتِهِ .

قَالَ مُوسٰى إِنَّكَ رَجُلٌ وَقِحٌ، أَلا تَزَالُ فِي

قِتَالٍ وَجِدَالٍ مَعَ النَّاسِ وَلا تَزَالُ تَصْرُخُ وَتُنَادِ ينِي .

أَلا أَزَالُ أَنْصُرُكَ وَأُسَاعِدُكَ « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » .

وَلٰكِنْ أَرَادَ مُوسَىٰ أَنْ يُؤَدِّبَ الْقِبْطِيَّ قَلِيلاً وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمَا .

وَرَأَى الْإِسْرَائِيلِيُّ غَضَبَ مُوسَىٰ وَسَمِعَ مَلامَه .

وَخَافَ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَىٰ فَتَكُونَ الْقَاضِيَةَ ، كَمَا ضَرَبَ الْقِبْطِيَّ فَكَانَتِ الْقَاضِيَةَ .

« فَقَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ »

هُنَالِكَ عَرَفَ الْقِبْطِيُّ أَنَّ مُوسَىٰ هُوَ

قَاتِلُ أَمْسِ .

وَذَهَبَ الْقِبْطِيُّ وَأَخبَرَ الشُّرْطَةَ بِأَنَّ مُوسٰى هُوَ الْقَاتِلُ .

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلى فِرْعَوْنَ فَغَضِبَ وَقَالَ : أَذٰلِكَ الْفَتَى رَبِيبُ الْقَصْرِ وَرَضِيعُ الْمُلْكِ ؟

وَلٰكِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يَنْجُوَ مُوسٰى مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ .

إِنَّ مُوسٰى لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ بَلْ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً كَانَتِ الْقَاضِيَةَ .

وَلٰكِنَّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتَه لا يُسَلِّمُونَ ذٰلِكَ وَلا يَقْبَلُونَ لِمُوسٰى عُذْراً .

إِنَّ اللهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِ مُوسٰى ، إِنَّ اللهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ

خَلاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِ مُوسَىٰ .

إِنَّ اللهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يُخرِجَ مُوسَىٰ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالىٰ .

وَكَيْفَ يَكُونُ ذٰلِكَ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ يَدُ الشُّرْطَةِ الظَّالِمِينَ .

وَكَانَ رِجَالُ فِرْعَوْنَ وَوُزَرَاؤُهُ يَتَشَاوَرُونَ وَيَعْزِمُونَ عَلَى قَتْلِ مُوسَىٰ .

وَكَانَ رَجُلٌ يَسْمَعُ كُلَّ ذٰلِكَ وَيَعْرِفُه فَجَاءَ إِلىٰ مُوسَىٰ وَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ وَقَالَ: « أُخْرُجْ إِني لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » .

« فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

١٤ — من مصر إلى مدين

وَلٰكِنْ إِلىٰ أَيْنَ يَذْهَبُ مُوسىٰ، وَمِصْرُ كُلُّهُ مَمْلَكَةٌ لِفِرْعَوْنَ ؟!

وَشُرْطَةُ فِرْعَوْنَ بِالْمِرْصَادِ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ !

أَلْهَمَ اللهُ مُوسىٰ أَنْ يَذْهَبَ إِلىٰ مَدْيَنَ الْبَلَدِ الْعَرَبِي، حَيْثُ لا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُ فِرْعَوْنَ .

إِنَّ مَدْيَنَ بَادِيَةٌ وَقُرًى لَيْسَ فِيهَا مَدَنِيَّةُ مِصْرَ.

وَلَيْسَ فِيهَا قُصُورُ مِصْرَ وَأَسْوَاقُ مِصْرَ .

وَلٰكِنَّهَا بِلادٌ سَعِيدَةٌ لأَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنْ فِرْعَوْنَ

وَإِنَّهَا سَعِيدَةٌ لأَنَّهَا بِلادٌ حُرَّةٌ لَيْسَتْ تَحْتَ حُكْمِ فِرْعَوْنَ .

يَا حَبَّذَا الْبَدَاوَةُ مَعَ الْحُرِّيَةِ وَالْعَدْلِ .
وَيَا شَقَاوَةَ الْمَدَنِيَّةِ مَعَ الْعُبُودِيَّةِ وَالذُّلِّ .
هُنَالِكَ يُصْبِحُ كلُّ أَحَدٍ لا يَخَافُ سَطْوَةَ فِرْعَوْنَ وَقَهْرَه .
وَهُنَالِكَ يَبِيتُ كُلُّ أَحَدٍ لا يَخَافُ شُرْطَةَ فِرْعَوْنَ وَشَرَّهُ هُنَالِكَ لا تُذْبَحُ الْأَبْنَاءُ .
قَصَدَ مُوسَىٰ مَدْيَنَ . وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ أَيَتْبَعُهُ أَحَدٌ وَلٰكِنْ نَامَ عَنْهُ الشُّرْطَةُ .
خَرَجَ مُوسَىٰ عَلَى اسْمِ اللهِ يَدْعُو اللهَ وَيَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ .
« وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيل » .

في مدين

وَصَلَ مُوسى إِلى مَدْيَنَ، لا يَعْرِفُ أَحَداً وَلا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ .

فَمَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ في اللَّيْلِ؟ وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟

تَحَيَّرَ مُوسٰى وَلٰكِنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ لا يُضِيعُهُ !

وَكَانَ هُنَالِكَ بِئْرٌ يَسْقِي عَلَيْهَا النَّاسُ غَنَمَهُمْ وَمَاشِيَتَهُمْ .

وَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ غَنَمَهُمَا وَتَنْتَظِرَانِ أَنْ يَسْقِيَ النَّاسُ فَتَسْقِيَا .

رَأَى مُوسٰى ذٰلِكَ وَفِي قَلْبِهِ حَنَانُ الْكَرِيمِ وَشَفَقَةُ الْأَبِ الرَّحِيمِ .

فَقَالَ: لِمَاذَا لا تَسْقِيَانِ ؟

قَالَتَا: لا يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَسْقِيَ غَنَمَنَا حَتَّى

يَسْقِي النَّاسُ، لأَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ. وَنَحْنُ ضُعَفَاءُ، وَلأَنَّهُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ إِنَاثٌ .

وَكَأَنَّمَا عَرَفَتَا أَنَّ مُوسَىٰ سَيَسْأَلُهُمَا : فَلِمَاذَا لا يَسْقِي أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ بَيْتِكُنَّ ؟

فَسَبَقَتَا وَقَالَتَا : « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » .

وَهَاجَ فِي مُوسَىٰ حَنَانُ الْكَرِيمِ وَسَقَىٰ لَهُمَا وَذَهَبَتَا .

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مُوسَىٰ الآنَ ؟!

وَإِلَى أَيْنَ يَأْوِي فِي اللَّيْلِ وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟!

إِنَّهُ لا يَعْرِفُ أَحَداً وَلا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ !

« ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » .

١٦ — الطلب

وَوَصَلَتِ الْجَارِيَتَانِ إِلى الْبَيْتِ قَبْلَ الْمِيعَادِ فَتَعَجَّبَ أَبُوهُمَا وَسَأَلُهُمَا عَنِ السَّبَبِ .

وَقَالَ لَهُمَا : مَا أَعْجَلَكُمَا يَا بِنْتَيَّ، وَكَيْفَ وَصَلْتُمَا الْيَوْمَ قَبْلَ الْمِيعَادِ ؟

قَالَتِ السَّيِّدَتَانِ : قَدْ قَدَّرَ اللهُ لَنَا رَجُلاً كَرِيماً سَقَى لَنَا .

تَعَجَّبَ الشَّيْخُ وَعَرَفَ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ لأَنَّ أَحَداً لَمْ يَرْحَمْهُنَّ يَوْماً .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَيْنَ تَرَكْتُمَا الرَّجُلَ ؟

قَالَتَا : تَرَكْنَاهُ فِي مَكَانِهِ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ لَيْسَ لَهُ مَأْوَى !

قَالَ الشَّيْخُ : مَا أَحْسَنْتُمَا يَا بِنْتَيَّ، رَجُلٌ

غَرِيبٌ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا وَلَيْسَ لَهُ مَأْوًى في الْبَلَدِ .

إِلى مَنْ يَأْوِي في اللَّيْلِ ، وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟!

إِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الضِّيَافَةِ، وَإِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الْإِحْسَانِ !

لِتَذْهَبْ إِحْدَاكُمَا وَتَأْخُذْهُ مَعَهَا .

« وَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » .

وَعَرَفَ مُوسَى أَنَّ اللهَ قَدْ أَجَابَ دُعَاءَهُ وَبَوَّأَ لَهُ ، فَمَا أَبَى .

وَخَرَجَ مُوسَى أَمَامَهَا لِئَلاَّ يَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا، وَمَشَى مُوسَى مَشْيَ الْكِرَامِ .

وَلَمَّا وَصَلَ إِلى الشَّيْخِ سَأَلَهُ عَن اسْمِهِ وَوَطَنِهِ وَخبَرِه .

وَأَخبَرَ مُوسٰى خبَرَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَه .

سَمِعَ الشَّيْخُ كُلَّ ذٰلِكَ بِصَبْرٍ وَهُدُوءٍ، وَلَمَّا انْتَهى مُوسٰى مِنْ قِصَّتِهِ .

« قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

١٧ — الزواج

وَأَقَامَ مُوسٰى عِنْدَهُمْ مَقَامَ ضَيْفٍ كَرِيمٍ ، بَلْ حَلَّ مِنْهُمْ مَحَلَّ الْوَلَدِ الْعَزِيزِ .

وَقَالَتْ سَيِّدَةٌ لِوَالِدِهَا يَوْماً في بَسَاطَةٍ وَطَهَارَةٍ .

« يَا أَبتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ » .

قَالَ الشَّيْخُ: وَمَا عِلْمُكِ بِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ يَا بِنْتِي ؟

قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ فَلأَنَّهُ رَفعَ الْغِطَاءَ عَنِ الْبِئْرِ وَحْدَهُ، وَلا يَرْفَعُهُ إِلاَّ جَمَاعَةٌ .

وَأَمَّا أَمَانَتُهُ يَا أَبتِ فَلأَنَّهُ مَشَى أَمَامِي لا يَنْظُرُ إِلَيَّ طُول الطَّرِيق .

وَلا بُدَّ لِلأَجِيرِ وَلا بُدَّ لِلْخَادِمِ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا أَمِيناً .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَوِيًّا ضَعفَ عَنِ الْعَمَلِ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمِيناً لَمْ تَنْفَعْنَا قُوَّتُهُ مَعَ خِيَانَتِهِ .

وَوَافَقَ كَلامُ السَّيِّدَةِ هَوًى فِي قَلْبِ الشَّيْخِ وَلٰكِنَّهُ فَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَوَالِدٍ .

وَفَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَشَيْخٍ عَاقِلٍ .

قَالَ الشَّيْخُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا يَكُونَ أَحَقَّ مِنْ هٰذَا الْفَتَى بِأَنْ يَكُونَ صِهْراً لِي .

وَأَيْنَ أَجِدُ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلَ مِنْ هٰذَا الشَّابِّ ؟!

أَمَّا فِي مَدْيَنَ فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً أَهْلاً لِذٰلِكَ !

وَلَعَلَّ اللهَ قَدْ سَاقَ إِلَيَّ هٰذَا الْفَتَى لِيَكُونَ لِي صِهْراً وَوَزِيراً .

فَقَالَ فِي وَقَارٍ وَشَفَقَةٍ وَحِكْمَةٍ:

«إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ» .

وَهٰذَا هُوَ صِدَاقُكَ، أَمَّا هٰذِهِ السَّنَوَاتُ الثَّمَانِيُ فَلا بُدَّ مِنْهَا .

فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

خَافَ الشَّيْخُ أَنْ يَذْهَبَ الشَّابُّ بِبِنْتِهِ وَيَبْقَى وَحِيداً .

وَرَأَى الشَّيْخُ أَنْ يُجَرِّبَ الشَّابَّ أَيْضاً حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَدَّعَهُ .

وَافَقَ مُوسٰى عَلَى ذَلِكَ وَرَأَى أَنَّ هٰذَا مِنَ اللّٰهِ وَأَنَّ اللّٰهَ سَيُبَارِكُ فِي ذَلِكَ .

إِنَّ اللّٰهَ قَدْ سَاقَهُ إِلى مَدْيَنَ وَأَرْسَلَهُ إِلى الشَّيْخِ وَأَلْقَى فِي قَلْبِهِ حَنَاناً وَحُبًّا .

فَقَالَ: « ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » .

وَلٰكِنْ أَرَادَ مُوسٰى - بِحِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ - أَنْ يَحْفَظَ لَهُ حَقَّ الْخِيَارِ لَعَلَّهُ يَسْأَمُ فَقَالَ :

« أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » .

إلى مصر

« وَلَمَّا قَضَى مُوسٰى الْأَجَلَ سَارَ بِأَهْلِهِ » وَوَدَّعَ الشَّيْخَ وَوَدَّعَهُ الشَّيْخُ وَدَعَا لَهُ :

عَلَى بَرَكَةِ اللهِ يَا وَلَدِي ! فِي أَمَانِ اللهِ يَا بِنْتِي !

وَسَافَرَ مُوسٰى بِأَهْلِهِ، وَاللَّيْلُ كُلُّهُ بَرْدٌ وَظَلامٌ .

وَلٰكِنْ أَيْنَ النّارُ في الصَّحَرَاءِ ؟
وَمَاذَا يَصْنَعَانِ إِذَا لَمْ يَجِدَا نَاراً يَصْطَلِيَانِ بِهَا، وَلَمْ يَجِدَا نُوراً يَهْتَدِيَانِ بِهِ ؟!
وَبَيْنَمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَمُوسَىٰ يَبْحَثُ عَنْ نَارٍ «إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» .

وَسَارَ مُوسَىٰ قِبَلَ النَّارِ عَلَى جَنَاحِ الشَّوْقِ.
«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» .
هُنَالِكَ كَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ .
«وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ »
إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ

لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ » .

وَكَانَ فِي يَدِ مُوسَىٰ عَصاً كَانَ يَحْمِلُهَا وَيَسْتَعِينُ بِهَا .

فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ » .

وَأَجَابَ مُوسَىٰ فِي بَسَاطَةٍ وَسَذَاجَةٍ .

« هِـيَ عَصَايَ » .

وَأَخَذَ مُوسَىٰ يَعُدُّ فَوَائِدَ هٰذِهِ الْعَصَا فِي تَفْصِيلٍ لأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَ اللهَ وَيَكُونَ حَدِيثُه طَوِيلاً .

« هِـيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِـي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرَى »

« قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ » .
« فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ » .
« قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ » .

وَمُنِحَ مُوسَىٰ آيَةً ثَانِيَةً، هِيَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ فَقَالَ :

« وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ » .

١٩ ــ اذهب الى فرعون إنه طغى

وَأَمَرَ اللهُ مُوسَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَشْرَعَ عَمَلَهُ الَّذِي خَلَقَهُ لِأَجْلِهِ .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّ فِرْعَوْنَ

أَفْسَدَ في الْأَرْضِ .

إنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ كَفَرُوا بِاللهِ ، إنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَفْسَدُوا في أَرْضِ اللهِ .

إنَّ اللهَ لا يَرْضٰى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ في الْأَرْضِ .

فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسٰى إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ «إنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فٰسِقِينَ» .

لٰكِنْ كَيْفَ يَذْهَبُ مُوسٰى إلى فِرْعَوْنَ وَكَيْفَ يُوَاجِهُ الْجَبَّارَ .

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ وَمَا أَمْسِ بِبَعِيد !

وَهُوَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، وَيَعْرِفُهُ الشُّرْطَةُ وَيَعْرِفُهُ أَهْلُ الْقَصْرِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » .

وَذَكَرَ مُوسَىٰ أَنَّ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةً .

وَلٰكِنَّ اللهَ كَانَ يَعْرِفُ ذٰلِكَ كُلَّهُ وَيُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسَىٰ رَغْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ .

« وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ » .

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلى هٰرُونَ » .

« وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » .

« قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيٰتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ » .

« فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعٰلَمِينَ » .

« أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

وَأَوْصَى اللهُ مُوسٰى وَهَارُونَ بِاللِّينِ وَالرِّفْقِ مَعَ فِرْعَوْنَ .

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ مَعَ أَعْدَائِهِ إِلى حَدٍّ فَقَالَ :

« فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشٰى » .

٢٠ — أمام فرعون

وَجَاءَ مُوسٰى وَهَارُونُ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَقَامَا فِي مَجْلِسِهِ يَدْعُوَانِهِ إِلى اللهِ .

وَغَضِبَ الْجَبَّارُ مِنْ جَرَاءَةِ مُوسَىٰ وَقَالَ فِي عُلُوٍّ وَكِبْرٍ :

مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا الشَّابُّ حَتَّى تَقُومَ فِي مَجْلِسِي وَتَعِظَنِي . أَلَسْتَ ذَٰلِكَ الْغُلَامَ الَّذِي الْتَقَطْنَاهُ مِنَ الْبَحْرِ؟!

« أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ » .

« وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ » .

وَلَمْ يَغْضَبْ مُوسَىٰ وَلَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَجْحَدْ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بَلْ أَجَابَ فِي صَرَاحَةٍ وَوَقَارٍ .

« قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

وَقَالَ مُوسٰى: إِنَّكَ يَا فِرْعَوْنُ تَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَلٰكِنْ لا تَنْظُرُ لِمَاذَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ وَكَيْفَ أَمْكَنَكَ أَنْ تُرَبِّيَنِي ؟.

إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَأْمُرْ بِقَتْلِ الْأَطْفَالِ لَمَا أَلْقَتْنِي أُمِّي فِي النِّيلِ وَمَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ .

وَهَلْ هٰذِهِ نِعْمَةٌ تُعَدُّ وَتُذْكَرُ فِي جَنْبِ ظُلْمِكَ وَقَسَاوَتِكَ ؟

إِنَّكَ عَامَلْتَ قَوْمِي كُلَّهُمْ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوابِّ .

وَكُنْتَ تَزْجُرُهُمْ زَجْرَ الْكِلابِ .

وَكُنْتَ تَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

فَأَيُّ فَضْلٍ لَكَ إِذَا كَفَلْتَ طِفْلاً مِنْهُمْ ؟!

وَذٰلِكَ أَيْضاً عَنْ جَهْلٍ وَخَطَإٍ !

«وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» .

٢١ — الدعوة إلى الله

وَعَجزَ فِرْعَوْنُ وَلَمْ يَجِدْ جَوَاباً، فَأَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ فقَالَ:

«وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» الَّذِي أَسْمَعُكَ تَذْكُرُهُ ؟

«قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» .

غَضِبَ فِرْعَوْنُ مِنْ هٰذَا الْجَوَابِ وَأَرَادَ أَنْ يَغْضَبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَيَتَعَجَّبُوا .

«فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلا تَسْتَمِعُونَ» ؟

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسٰى الْكَلامَ بَلْ ضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً .

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُم الْأَوَّلِينَ »

وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَصْبِرْ وَقَالَ:

« إِنَّ رَسُولَكُم الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسٰى الْكَلامَ وَضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَالِثَةً .

« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَشْغَلَ مُوسٰى عَنْ هٰذَا الْمَوْضُوعِ الْمُرِّ .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُثِيرَ غَضَبَ مَلَئِهِ .

فَقَالَ: « وَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولٰى ؟! »

قَالَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ: إِذَا قَالَ مُوسَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ.

قُلْتُ: فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ!

وَإِذَا قَالَ مُوسَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ وَسَفَاهَةٍ.

غَضِبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَقَالُوا إِنَّ مُوسَىٰ سَبَّ آبَاءَنَا.

وَلٰكِنَّ مُوسَىٰ كَانَ أَعْقَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَكَانَ مُوسَىٰ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، فَقَالَ:

«عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى».

ثُمَّ أَنْشَأَ مُوسَىٰ يَقُولُ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَفِرُّ مِنْهُ وَيَتَخَلَّصُ:

« لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَبُهِتَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَقَالَ مَا تَقُولُهُ الْمُلُوكُ كُلُّهُمْ إِذَا عَجَزُوا وَغَضِبُوا .

« قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » .

معجزات موسى

وَلَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ سَهْمَهُ ، أَرَادَ مُوسٰى أَنْ يَرْمِيَهُ بِسَهْمِ اللهِ .

« قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ؟ ! »

« قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ »
« فَأَلْقَى مُوسٰى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ » .

« وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ »
وَوَجَدَ فِرْعَوْنُ مَقَالاً يَقُولُهُ لِجُلَسَائِهِ .
« قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » .
وَوَافَقَ أَهْلُ المَجْلِسِ « قَالُوا إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » .
« قَالَ مُوسٰى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » .

وَرَمٰى فِرْعَوْنُ مُوسٰى بِسَهْمٍ آخَرَ فَقَالَ :
« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا

نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِين ».

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُخَوِّفَ الْمَلأَ مِنْ مُوسى فِعْلَ الْمُلُوكِ .

فَقَالَ: « يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » .

أَشَارَ الْمَلأُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يَجْمَعَ السَّحَرَةَ مِنْ مَمْلَكَتِهِ وَيَرْمِيَ بِهِمْ مُوسى .

وَهٰكَذَا كَانَ: نُودِيَ فِي مَمْلَكَةِ مِصْرَ « أَلا مَنْ كَانَ يَعْرِفُ السِّحْرَ فَلْيَحْضُرْ إِلى الْمَلِكِ » .

وَاجْتَمَعَ السَّحَرَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْمَمْلَكَةِ .

وَكَانَ يَوْمُ الزِّينَةِ هُوَ الْمِيعَادَ .

«وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ، لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ» ؟

٢٣ — إلى الميدان

وَتَرَى النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهِمْ ضُحًى! وَيَمْشُونَ إِلَى الْمَيْدَانِ أَفْوَاجاً .

وَيَمْشُونَ إِلى الْمَيدَانِ أَطْفَالاً ، وَشُبَّاناً وَشُيُوخاً ، وَرِجَالاً وَنِسَاءً .

وَلَمْ يَبْقَ في الْبَيْتِ إِلاَّ مَرِيضٌ أَوْ عَاجِزٍ .

وَلا تَسْمَعُ في الْمَطَرِيَّةِ[1] إِلاَّ حَدِيثَ السِّحْرِ وَأَسْمَاءَ السَّحَرَةِ .

(١) قصبة مصر أيام الفراعنة .

هَلْ جَاءَ سَاحِرُ أُسْوَانَ[1] الْأَكْبَرُ أَيْضاً ؟
نَعَمْ وَسَاحِرُ الْأُقْصُرِ[2] وَسَاحِرُ الْجِيزَةِ[3] الشَّهِيرُ !
مَاذَا تَرَى يَا أَخِي مَنْ يَغْلِبُ ؟
إِنَّ مِصْرَ قَدْ أَلْقَتْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا تَرَى يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ !
وَكَيْفَ يَغْلِبُهُمْ مُوسَى وَأَخُوهُ وَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ ؟
نَشَأَ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ وَكَانَ فِي مَدْيَنَ سِنِينَ .
فَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ ؟
أَفِي مِصْرَ ؟ لَا !

(١ - ٢ - ٣) مدن مصر القديمة .

أَفي مَدْيَنَ ؟ مَا سَمِعْنَا أَنَّ هُنَالِكَ فَنًّا !

وَجَاءَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ بَينَ يَأْسٍ وَرَجَاءٍ وَلَعَلَّ الْيُأْسَ أَغْلَبُ، اللهُ يَرْحَمُ ابْنَ عِمْرَانَ! اللهُ يَنْصُرُ بَني إِسْرَائِيلَ !

وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَأَقْبَلُوا بِخُيَلائِهِمْ وَفَخْرِهِمْ

وَخَرَجُوا في مَلَابِسَ مُلَوَّنَةٍ وَخَرَجُوا يَحْمِلُونَ الْعِصِيَّ وَالْحِبَالَ .

وَخَرَجُوا يَضْحَكُونَ وَيَمْرَحُونَ، الْيَوْمَ يَوْمُ الْفَنِّ !

الْيَوْمَ يَرَى المَلِكُ صَنِيعَنَا، الْيَوْمَ يَرَى الْقَوْمُ فَضْلَنَا !

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

« قَالَ نعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .
وَهٰذِهِ هِيَ جَائِزَةُ الْمُلُوكِ! وَهٰذَا عَطَاءُ الْمُلُوكِ !
وَهٰذَا الَّذِي يُخْدَعُ بِهِ الرِّجَالُ ! وَهٰذَا الَّذِي يُصَادُ بِهِ الْأَبْطَالُ !
وَفَرِحَ السَّحَرَةُ بِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ .

٢٤ — بين الحق والباطل

« قَالَ لَهُمْ مُوسٰى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » .
« فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » .
وَرَأَى النَاسُ عَجَباً، حَيَّاتٌ تَسْعَى في المَيْدانِ، وَدُهِشَ النَاسُ وتَراجَعوا إلى الخَلْفِ

وهَتَفُوا: حيَّاتٌ ! حيَّاتٌ !

وَصَاحَتِ النِّساءُ وبَكَتِ الأَطْفالُ وعَلَا الهُتَافُ في المَيْدَانِ: حيَّاتٌ ! حيَّاتٌ !

وَرَأَى مُوسٰى مَا رَأَىٰ النَّاسُ وتَعَجَّبَ «فإِذَا حِبَالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ من سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعَى» .

وَخطَرَ في قَلْبِ مُوسٰى خَاطِرُ خَوْفٍ!

وَلِمَاذَالَا يَخَافُ مُوسٰى ؟

هٰذَا يَوْمُ الرِّهَانِ! وَعِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الرَّجُلُ أَوْ يُهَانُ !

وَإِذَا غَلَبَ السَّحَرَةُ - لَا قَدَّرَ اللهُ ذٰلِكَ .

وَإِذَا غُلِبَ مُوسٰى - لا سَمَحَ اللهُ بِذٰلِكَ .

فَمَاذَا يَكُونُ ؟ العِيَاذُ بِاللهِ ! !

وَلَيْسَ غَلَبُ مُوسٰى غَلَبَ رَجُلٍ ، بَلْ هُوَ غَلَبُ دِينٍ أَمَامَ مَلِكٍ .

بَلْ هُوَ غَلَبُ حَقٍّ أَمَامَ بَاطِلٍ .
لَا قَدَّرَ اللّٰهُ ذٰلِكَ! لا سَمَحَ اللّٰهُ بِذٰلِكَ !
وَلٰكِنَّ اللّٰهَ شَجَّعَهُ وَقَالَ:
« لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

« وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى »
« قَالَ مُوسٰى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّٰهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّٰهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ».
« وَأَلْقَى مُوسٰى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

مَا يَأْفِكُونَ » .

« فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ودهِش السَّحَرَةُ وَبُهِتُوا .

أَيُّ شَيْءٍ هٰذَا؟ إِنَّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَصْلَهُ

وَإِنَّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَنْوَاعَهُ .

وَنَحْنُ أَسَاتِذَةُ الْفَنِّ! وَنَحْنُ أَئِمَّةُ الْفَنِّ !

هٰذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ! هٰذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ !

لَوْ كَانَ مِنَ السِّحْرِ لَضَرَبْنَا السِّحْرَ بِالسِّحْرِ وَقَرَعْنَا الْفَنَّ بِالْفَنِّ !

وَلٰكِنِ اضْمَحَلَّ فَنُّنَا أَمَامَ هٰذَا، وَذَابَ كَمَا يَذُوبُ النَّدَى أَمَامَ الشَّمْسِ .

فَمِنْ أَيْنَ هٰذَا ؟ هٰذَا مِنَ اللهِ !

اقْتَنَعَ السَّحَرَةُ بِأَنَّ مُوسٰى نَبِيٌّ وَأَنَّ اللّٰهَ قَدْ مَنَحَهُ مُعْجِزَةً فَصَرَخُوا وَهَتَفُوا:

«آمَنَّا بِرَبِّ هٰرُونَ وَمُوسٰى» .

«وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سٰجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسٰى وَهٰرُونَ» .

٢٥ — وعيد فرعون

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ !

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ وَرَعَدَ .

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ يَرْجُوهُ !

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَهْزِمَ مُوسٰى بِالسَّحَرَةِ فَأَصْبَحَ السَّحَرَةُ جُنْدَ مُوسٰى

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ مُوسٰى فَجَاءَ

بِالسَّحَرَةِ فَإِذَا بِهِمْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ !

إِنَّ سِهَامَهُ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الْأَجْسَامِ .

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْأَلْسِنَةِ .

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئاً أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَقَالَ فِي كِبْرٍ وَجَبَرُوتٍ .

« آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » ؟!

وَرَمَاهُمْ فِرْعَوْنُ بِسَهْمٍ مِنْ سِهَامِ الْمُلُوكِ فَقَالَ :

« إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » !

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَانٍ فَقَالَ :

« إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » ! !

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَالِثٍ مَسْمُومٍ هُوَ السَّهْمُ الْأَخِيرُ فِي كِنَانَةِ الْمُلُوكِ .

« لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » .

وَتَلَقَّى الْمُؤْمِنُونَ السِّهَامَ كُلَّهَا بِجُنَّةِ الْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ وَقَالُوا :

« لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » .

« إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وَقَالُوا فِي إِيمَانٍ وَحَمَاسَةٍ :

« إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا

أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَذٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

سفاهة فرعون

وَاهْتَمَّ فِرْعَوْنُ بِأَمْرِ مُوسى كَثِيراً وَطَارَ نَوْمُهُ .

وَبَقِيَ فِرعَوْنُ لا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ .

وَأَثَارَ غَضَبَهُ الآخَرُونَ أَيْضاً وَقَالُوا :

« أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ » ؟!

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَثَارَ .

« قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَصُدَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلَ مِصْرَ عَنْ مُوسىٰ بِكُلِّ حِيلَةٍ .

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ * وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » !

وَقَالَ فِرْعَوْنُ فِي رَزَانَةٍ وَحِلْمٍ :

« يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي » !!

كَأَنَّهُ فَتَّشَ كَثِيراً وَفكَّرَ كَثِيراً وَنَصَحَ لِقَوْمِهِ.

وَقَالَ فِي سَفَاهَةٍ وَجُنُونٍ :

« فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وَأَوْقَدَ هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ، وَبَنَى صَرْحا وَلٰكِنْ إِلَى أَينَ ؟ تَعِبَ هَامَانُ وَتَعِبَ الْبَنَّاؤُونَ وَنَفِدَ الطِّينُ وَالآجُرُّ .

وَلا يَزَالُ فِرْعَوْنُ بَعِيداً لَمْ يَصِلْ إِلى السَّحَابِ فَضْلاً عَنِ الْقَمَرِ .

وَلَمْ يَصِلْ إِلىٰ الْقَمَرِ فَضْلاً عَنِ الشَّمْسِ .

وَلَمْ يَصِلْ إلى الشَّمْسِ فَضْلاً عَنِ الْكَوَاكِبِ.
وَلَمْ يَصِلْ إلى الْكَوَاكِبِ فَضْلاً عَنِ السَّماءِ.
وَخَابَ فِرْعَوْنُ وَخَجِلَ وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ.

مِسْكِينٌ أَلا يَدْرِي أَنَّ اللهَ «خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى».

«لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى».

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ».

وَلَمْ يَجِدْ فِرْعَوْنُ حِيلَةً إِلاَّ أَنْ يَقْتُلَ مُوسٰى وَحُجَّتُهُ أَنَّ مُوسٰى يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ.

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ

رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ــ مؤمن آل فرعون

وَلَمَّا أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى قَامَ رَجُلٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَقَالَ :

« أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ مِنْ رَبِّكُمْ » .

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: لِمَاذَا تَتَعَرَّضُونَ لِمُوسَى وَلِمَاذَا تُؤْذُونَهُ ؟

إِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَاتْرُكُوهُ وَشَأْنَهُ وَخَلُّوا سَبِيلَهُ .

« إِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ » .

وَإِذَا آذَيْتُمُوهُ وَوَقَعْتُمْ بِهِ وَكَانَ نَبِيًّا فَلَكُمُ الْوَيْلُ .

« وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » .

وَيَا إِخْوَانِي لا تَغْتَرُّوا بِمُلْكِكُمْ، وَلا تَغْتَرُّوا بِقُوَّتِكُمْ وَجُنُودِكُمْ .

« يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟! »

وَكَانَ جَوَابُ فِرْعَوْنَ أَنْ قَالَ:

« مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

وَأَرَادَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنْ يُحَذِّرَ قَوْمَهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ وَمَصِيرَ الظَّالِمِينَ فَقَالَ :

«وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ» .

وَخَوَّفَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَمَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟

«يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» .

«الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» .

«وَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» .

يَوْمَ يُنَادِي الْمَلِكُ الْجَبَّارُ: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» .

يَوْمَ يَفْزَعُ النَّاسُ وَيَصْرُخُونَ وَيُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيَوْمَ يُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ .

فَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ :

«وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» .

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ: إِنَّ اللهَ قَدْ وَهَبَكُمْ نِعْمَةً وَلٰكِنَّكُمْ مَا عَرَفْتُمْ فَضْلَهَا وَمَا قَدَرْتُمُوها حَقَّ قَدْرِهَا حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ تَأَسَّفْتُمْ عَلَيْهَا .

ذٰلِكَ يُوسُفُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ وَسَلامُهُ الَّذِي مَا عَرَفْتُمُوهُ وَلَمْ تَقْدِرُوهُ قَدْرَهُ .

وَلٰكِنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُلْتُمْ: سُبْحَانَ اللهِ نَبِيٌّ وَلا

كَيُوسُفَ .

مَلِكٌ وَلا كَيُوسُفَ! رَجُلٌ وَلا كَيُوسُفَ !
وَمَنْ لَنَا بِنَبِيٍّ بَعْدَهُ؟! مَنْ لَنَا بِمِثْلِهِ ؟!
أَبَداً ! لَنْ يَأْتِيَ مِثْلُهُ !

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً » .

كَذٰلِكَ تَفْعَلُونَ بَعْدَ هٰذَا النَّبِيِّ أَيْضاً! وَتَنْدَمُونَ !

٢ — نصيحة الرجل

وَوَعَظَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَبَذَلَ لَهُمْ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ .

« وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

وَعَلِمَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنَّ الْقَوْمَ فِي سَكْرَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَأَنَّ فِرْعَوْنَ مَغْرُورٌ بِمُلْكِهِ وَقُوَّتِهِ .

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْحَيَاةَ حُلْمٌ مِنَ الْأَحْلامِ وَأَنَّ الدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ .

وَعَرَفَ الرَّجُلُ مَا يَمْنَعُ الْقَوْمَ مِنِ اتِّبَاعِ مُوسٰى ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ سُكَارَى بِسَكْرَةِ الدُّنْيَا .

وَالسَّكْرَانُ مَا يَسْمَعُ وَمَا يَشْعُرُ .

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ حَيْثُ لا يَسْمَعُونَ صَوْتَ مُوسٰى .

فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ فَقَالَ :

«يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتٰعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» .

وَطَفِقَ الْجُهَّالُ مِنْ قَوْمِهِ يَدْعُونَهُ إِلى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَيَدْعُونَهُ إِلى دِينِ الآبَاءِ .

فَإِذَا قَالَ لَهُمْ تَعَالُوا إِلى اللهِ! قَالُوا لَهُ ارْجِعْ إِلى دِينِ الآبَاءِ !

وَلَمَّا بَالَغُوا فِي الدَّعْوَةِ قَالَ لَهُمْ :

«وَيٰقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلى النَّجٰوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلى النَّارِ» .

«تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ» .

وَقَالَ لَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ: أَيُّ نَبِيٍّ جَاءَ مِنْ آلِهَتِكُمْ ؟

وَأيُّ كِتَابٍ نَزَلَ؟ وَمَنْ دَعَا إلَيْهِ ؟

« إنْ هيَ إلاَّ أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » .

وَهؤُلاءِ رُسُلُ اللهِ دَعَوْا إلى اللهِ، ذٰلِكَ إبْرَاهِيمُ ﷺ وَيُوسُفُ وَهٰذَا نَبِيُّ اللهِ مُوسٰى .

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ! وَفي كُلِّ مَكَانٍ لَهُ دَعْوَةٌ !

« لا جَرَمَ أنَّما تَدْعُونَني إلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيا وَلا في الآخِرَةِ » .

وَلمَّا يَئِسَ الرَّجُلُ من هِدايَتِهِمْ وَسَئِمَ الرَّجُلُ مِنْ بَلادَتِهِمْ تَرَكَهُمْ وقالَ لَهُمْ :

« فَسَتَذْكُرونَ مَا أقُولُ لَكُمْ وأُفَوِّضُ أمْرِي إلَى اللهِ إنَّ اللهَ بَصيرٌ بِالْعِبَادِ » .

وَغَضِبَ النَّاسُ وَأَرَادَ آلُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَقْتُلُوهُ وَلٰكِنَّ اللهَ عَصَمَهُ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ .

« فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ »

٣ — زوج فرعون

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الْأَجْسَامِ

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْأَلْسِنَةِ .

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئاً أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .

وَكَانَ إِذَا آمَنَ أَحَدٌ بِمُوسٰى فِي أَقْصٰى

مَمْلَكَةِ مِصْرَ جُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ .

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ، وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ وَرَعَدَ .

وَقَالَ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُوسٰى قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَهُ ؟!

يَعِيشُ فِي مَمْلَكَتِي وَيَعْصِيَنِي، وَيَأْكُلُ رِزْقِي وَيَكْفُرُنِي ؟!

أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ رَجُلٍ فِي مِصْرَ مِنْ نَفْسِهِ !

وَيَنْسٰى فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي مَمْلَكَةِ اللهِ وَيَعْصِيهِ، وَيَأْكُلُ رِزْقَ اللهِ وَيَكْفُرُ بِهِ .

وَأَرَاهُ اللهُ آيَةً فِي بَيْتِهِ، آيَةً فِي أَهْلِهِ .

أَرَاهُ اللهُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأَجْسَامِ

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ

سُلْطَاناً عَلَى الأَلْسِنَةِ .

وَأَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ، وَأَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ .

دَخَلَ الإِيمَانُ في بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ لا يَشْعُرُ، وَلا يَمْلِكُ شَيْئاً .

وَآمَنَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بِاللهِ وَكَفَرَتْ بِفِرْعَوْنَ .

وَآمَنَتْ بِمُوسَى عَلَى رَغْمِ زَوْجِهَا مَلِكِ مِصْرَ .

آمَنَتْ بِمُوسَى أَعْلَمُ خَلْقِ اللهِ بِفِرْعَوْنَ وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ .

وَلَمْ يَصْنَعْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ شَيْئاً وَلَمْ يَشْعُرُوا بِذٰلِكَ وَلَهُمْ شَامَّةُ النَّمْلِ وَعُيُون

الْغُرابِ .

وَلَمْ يَشْعُرْ بِذٰلِكَ فِرْعَوْنُ وَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا .

وَلَوْ عَلِمَ بِذٰلِكَ فِرْعَوْنُ مَاذَا فَعَلَ ؟ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْجِسْمَ وَلٰكِنَّهُ لا يَمْلِكُ الْعَقْلَ .

وَإِنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى اللِّسَانِ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ سُلْطَانٌ .

عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا وَلٰكِنْ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَ أَبَوَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِهِمَا بَارًّا رَشِيداً وَلٰكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُطِيعَهُمَا فِي الشِّرْكِ .

«وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وَاسْتَقَامَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَكَانَتْ تَعْبُدُ اللهَ فِي بَيْتِ عَدُوِّ اللهِ .

وَكَانَتْ تَخَافُ اللهَ وَتَتَبَرَأُ إِلَى اللهِ مِمَّا يَعْمَلُ فِرْعَوْنُ .

وَرَضِيَ اللهُ عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَاها اللهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَضَرَبَهَا اللهُ مَثَلاً لِلْمُؤْمِنِينَ لِإِيمَانِهَا وَشَجَاعَتِهَا .

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ

الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ » .

٤ ــ محنة بني إسرائيل

وَلَمَّا عَلِمَ النَّاسُ عَدَاوَةَ فِرْعَوْنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، تَقَرَّبُوا إِلى فِرْعَوْنَ بِعَدَاوَتِهِمْ وإِيذَائِهِمْ.

وَاجْتَرَأَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَطْفَالُ وَهَرَّتْهُمُ الْكِلابُ .

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِحْنَةٌ جَدِيدَةٌ! وَفي كُلِّ يَوْمٍ بَلِيَّةٌ نَازِلَةٌ .

وَمُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يُسَلِّيهِمْ وَيُوصِيهِمْ بِالصَّبْرِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ :

« اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وَسَئِمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هٰذِهِ الْمِحْنَةَ وَهٰذَا الْأَذَى وَقَالُوا لِمُوسٰى :

لَمْ تَنْفَعْنَا شَيْئاً ! لَمْ تُغْنِ عَنَّا شَيْئاً !

« قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » .

وَلٰكِنَّ مُوسٰى لَمْ يَجْزَعْ! وَلٰكِنَّ مُوسى لَمْ يَيْأَسْ !

« قَالَ عَسٰى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

« وَقَالَ مُوسٰى يٰقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » .

« فَقَالُوا عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ

الْقَوْمِ الْكٰفِرِينَ » .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَمْنَعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ ، وَيَغْضَبُ إِذَا رَآهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيُصَلُّونَ لَهُ .

وَكَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا مَسَاجِدَ لِلهِ فِي أَرْضِهِ، وَكَانَ يَغْضَبُ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ فِي أَرْضِهِ .

مَا أَجْهَلَ فِرْعَوْنَ! الْأَرْضُ للهِ لا لِفِرْعَوْنَ !

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ عِبَادَ اللهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ عَلىٰ أَرْضِ اللهِ ؟!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دَعَا إِلى عِبَادَتِهِ عَلَى أَرْضِ اللهِ ؟!

وَلٰكِنَّ فِرْعَوْنَ مَا كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ

أحداً يفْعَلُ مَا يَشَاءُ في بيْتِهِ !

فَأَمَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى :
« اجْعَلُوا بيُوتكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ »

وَعَجزَ فِرْعَوْنُ وَعَجِزَت شُرْطَتُهُ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِبَادَةِ اللهِ !

وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ؟! وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَعِبَادَةِ اللهِ ؟!

٥ ـ المجاعات

وَلَمَّا طَغَى فِرْعَوْنُ وَأَسْرَفَ في الْغَفْلَةِ وَالْعِنَادِ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُنَبِّهَهُ .

إِنَّ اللهَ لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ! إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ !

وَكَانَ فِرْعَوْنُ بَلِيداً جِدًّا، ضَاعَتْ فِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ .

وَالْحِمَارُ لا يَتَنَبَّهُ حَتَّى يُضْرَبَ !

فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُنَبِّهَهُ !

وَمِصْرُ بِلَادٌ مُخْصِبَةٌ خَضْرَاءُ، بِلادُ الْخَيْرَاتِ وَالْأَثْمَارِ وَبِلادُ الْحُبُوبِ .

وَقَدْ عَلِمْتُمْ كَيْفَ أَنْجَدَتْ مِصْرُ بِلاداً بَعِيدَةً أَيَّامَ الْمَجَاعَةِ فِي عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

وَكَيْفَ أَنْجَدَتْ مِصْرُ أَهْلَ الشَّامِ وَأَهْلَ كَنْعَانَ !

وَالنِّيلُ هُوَ الَّذِي يُرْوِي أَرْضَ مِصْرَ وَيَسْقِي زُرُوعَهُمْ .

وَهُوَ مَنْبَعُ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ فِي مِصْرَ .
وَكَانَ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُ مِصْرَ يَظُنُّونَ أَنَّ النِّيلَ هُوَ مِفْتَاحُ الرِّزْقِ .
وَأَنَّ مِصْرَ غَنِيَّةٌ بِالنِّيلِ عَنِ الْمَطَرِ وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ .
وَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .
وَأَنَّ النِّيلَ يَجْرِي بِأَمْرِهِ وَيَفِيضُ بِأَمْرِهِ .
وَأَمَرَ اللهُ النِّيلَ فَغَاضَ مَاؤُهُ وَذَهَبَ فِي الْأَرْضِ .
فَمَاذَا يُرْوِي زُرُوعَ أَهْلَ مِصْرَ ؟ !
نَقَصَتْ ثَمَرَاتُهُمْ وَنَقَصَتْ حُبُوبُهُمْ وَكَانَتْ مَجَاعَةٌ بَعْدَ مَجَاعَةٍ !

وَعَجِزَ فِرْعَوْنُ وَعَجِزَ هَامَانُ وَعَجِزَتْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ عَنْ كُلِّ حِيلَةٍ .

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ رَبَّهُمْ، وَأَنَّ الرِّزْقَ بِيَدِ اللهِ !

وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَوْنَ ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَهْلَ مِصْرَ وَلَمْ يُنَبِّهْهُمْ !

وَحَالَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ .

قَالُوا هٰذِهِ الْمَجَاعَاتُ وَهٰذِهِ السِّنُونَ مِنْ شُؤْمِ مُوسٰى وَقَوْمِهِ !

يَا لَلْعَجَبِ! أَلَمْ يَكُنْ مُوسٰى مِنْ قَبْلُ؟! أَلَمْ يَكُنْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ؟!

بَلْ ذٰلِكَ مِنْ شُؤْمِ أَعْمَالِهِمْ ! ! بَلْ ذٰلِكَ

مِنْ شُؤْمِ كُفْرِهِمْ !

وَعَانَدَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَقَالُوا إِنَّا لا نَخْضَعُ لِهٰذَا السِّحْرِ .

«وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» .

٦ — خمس آيات

وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً أُخْرَى .

أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْطَارَ ، فَفَاضَ النِّيلُ .

وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ .

حَتَّى غَرِقَتِ الزُّرُوعُ وَالْحُقُولُ ، وَتَلِفَتِ الْحُبُوبُ وَالثِّمَارُ .

وَعَادَ الْمَطَرُ عَلَيْهِمْ وَبَالاً .

وَبَيْنَمَا هُمْ يَشْكُونَ قِلَّةَ الْمَاءِ إِذَا هُمْ يَشْكُونَ كَثْرَةَ الْمِيَاهِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ الْجَرَادَ يَأْكُلُ الزُّرُوعَ وَالْحُقُولَ وَيَقَعُ عَلَى الْأَشْجَارِ فَلا يَذَرُ مِنْهَا شَيْئاً .

وَعَجَزَتْ جُنُودُ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتُهُ عَنْ قِتَالِ جُنْدِ اللهِ .

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهَامُ .

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ ضَعْفَ فِرْعَوْنَ، وَعَجْزَ هَامَانَ، وَقِلَّةَ حِيلَةِ الشُّرْطَةِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَعْتَبِرُوا ! وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَتَنَبَّهُوا !

فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ جُنْداً آخَرَ، ذٰلِكَ هُوَ

الْقُمَّلُ .

وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلُ، فَالْعِيَاذُ بِاللهِ ! الْقُمَّلُ فِي الْفِرَاشِ، وَالْقُمَّلُ فِي الثِّيَابِ. وَالْقُمَّلُ فِي الرَّأْسِ، وَالْقُمَّلُ فِي الشَّعْرِ .

فَطَارَ نَوْمُهُمْ وَبَاتُوا يَقْصَعُونَ[1] الْقُمَّلَ وَيَسُبُّونَهُ، حَتَّى يُصْبِحُوا .

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ وَالْقُمَّلُ لَا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ وَلَا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهَامُ، وَلَا يُنْجِدُهُمْ فِي ذٰلِكَ جُنُودُهُمْ وَشُرْطَتُهُمْ .

ثُمَّ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ، فَفِي الطَّعَامِ ضَفَادِعُ، وَفِي الشَّرَابِ ضَفَادِعُ، وَبَيْنَ مَلَابِسِهِمْ ضَفَادِعُ .

---

(١) قصع القملة بظفره : قتلها .

وَسَئِمُوا هٰذِهِ الضَّفادِعَ وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُمْ .
وَانْتَشَرَتِ الضَّفَادِعُ وَفَشَتْ في جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبَيْتِ .
تِلْكَ تَنِقُّ(٢) وَهٰذِهِ تَثِبُ هُنَا وَتِلْكَ تَقْفِزُ هُنَاكَ .
وَلا يَقْتُلُونَ وَاحِدَةً إِلاَّ وَتَأْتي عَشْرٌ وَلا يُخْرِجُونَ وَاحِدَةً إِلاَّ وَتَظْهَرُ خَمْسٌ كَأَنَّهَا تُولَدُ في الْبَيْتِ .
عَجِزَتِ الْحُرَّاسُ وَعَجِزَتِ الشُّرْطَةُ عَنِ الضَّفَادِعِ .
وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً خَامِسَةً، ذٰلِكَ هُوَ الدَّمُ .

(٢) تصوت

فَسَالَ الرُّعَافُ مِنْ آنافِهِمْ وَضَعُفُوا وَتَعِبُوا جِدًّا .

وَعجزَ الْأَطِبَّاءُ عَن الْعِلَاجِ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ دَوَاءٌ .

وَكُلَّمَا رَأَوْا آيَةً قَالُوا لِمُوسىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا الْبَلَاءَ وَنَتُوبَ وَنُؤْمِنَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

فَلَمَّا كَشَفَ اللّٰهُ عَنْهُمُ الْبَلَاءَ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ .

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ » .

٧ — الخروج

وَضَاقَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْضُ مِصْرَ وَهِيَ وَاسِعَةٌ

وَمَا يَصْنَعُونَ بِخِصْبِ مِصْرَ وَخَيْرَاتِهَا وَهُمْ فِي سِجْنٍ يَذُوقُونَ كُلَّ يَوْمٍ صُنُوفاً مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ ؟!

إِلَى متى يَصْبِرُونَ، أَلَيْسُوا بَنِي آدَمَ يَشْعُرُونَ بِالْأَذَى وَالْأَلَمِ ؟!

وَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى أَنْ يَسْرِيَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلاً وَيَخْرُجَ بِهِمْ مِنْ مِصْرَ .

وَأَحَسَّ بِذٰلِكَ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ وَأَخْبَرُوا بِذٰلِكَ فِرْعَوْنَ .

سَارَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي اللَّيْلِ نَحْوَ

الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ سِبْطاً كُلُّ سِبْط عَلَيْهِ أَمِيرٌ .

وَالطَّرِيقُ إِلَى الشَّامِ طَرِيقٌ وَاضِحٌ مَعْلُومٌ، بَرٌّ يَصِلُ بَيْنَ الْبَرَّيْنِ وَقَدْ جَازَهُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ(١) .

وَلٰكِنَّ مُوسَى أَرَادَ أَمْراً وَأَرَادَ اللهُ أَمْراً وَكَانَ مَا أَرَادَهُ اللهُ .

أَخْطَأَ مُوسَى الطَّرِيقَ، وَحَيْثُ أَخْطَأَ مُوسَى أَصَابَ الْقَدَرُ .

ظَنَّ مُوسَى أَنَّهُ يَسِيرُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى جَانِبِ الشِّمَالِ .

فَإِذَا بِهِمْ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ إِلَى جَانِبِ

(١) مرة ذهاباً إلى مدين ، ومرة إياباً إلى مصر .

الشَّرْقِ[١] .

وَإِذَا بِهِمْ أَمَامَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ تَتَلاطَمُ أَمْوَاجُهُ .

يَا حَافِظُ ! يَا سَاتِرُ ! أَيْنَ نَحْنُ ؟

كَانَ الجَوَابُ إِنَّنَا أَمَامَ الْبَحْرِ !

وَالْتَفَتُوا إِلَى الْوَرَاءِ فَإِذَا بِغُبَارٍ سَاطِعٍ !

وَإِذَا بِجُنْدٍ عَظِيمٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ!

هُنَالِكَ ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ .

يَا ابْنَ عِمْرَانَ! مَاذَا أَنْكَرْتَ مِنَّا حَتَّى دَبَّرْتَ قَتْلَنَا !

وَجِئْتَ بِنَا إِلَى شَطِّ الْبَحْرِ لِيَقْتُلَنَا فِرْعَوْنُ قَتْلَ الْفِيرَانِ حَيْثُ لا فِرَارَ وَلَا نَجَاةَ .

---

(١) يحسن بالمعلم أن يستلفت الطلبة إلى خارطة مصر .

لَا نَذْكُرُ إِلَيْكَ سُوءًا فَلِمَاذَا هٰذَا الانْتِقَامُ ؟!
أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْبَلَاءِ لأَجْلِكَ حَتَّى جِئْتَ بِنَا إِلَى هُنَا ؟! .

هَا هُوَ الْبَحْرُ أَمَامَنَا، وَهَا هُوَ الْعَدُوُّ وَرَاءَنَا، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْمَوْتُ !
هُنَالِكَ أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَاسْتَوْلَى الْيَأْسُ ثُمَّ خَفَتَتِ الْأَصْوَاتُ .
هُنَالِكَ تَزَلْزَلَ كُلُّ أَحَدٍ، وَحُقَّ لِلجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ أَنْ تَتَزَلْزَلَ .
وَلٰكِنَّ إِيمَانَ مُوسَى بِرَبِّهِ لَمْ يَتَزَلْزَلْ وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتاً فِيهِ جَلَالُ النُّبُوَّةِ .
« كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ » .

وَأَمَرَ اللهُ مُوسىٰ أَنْ يَضْرِب بِعَصَاهُ الْبَحْرَ . فَضَرَبَ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ وَقَامَ الْمَاءُ عَلَى كُلِّ جَانِبٍ كَالْجَبَلِ .

وَإِذَا اثْنَا عَشَرَ طَرِيقاً لاثْنَي عَشَرَ سِبْطاً لِكُلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ .

وَسَارَ الْقَوْمُ آمِنِينَ وَوَصَلُوا إِلَى بَرِّ الْأَمْنِ وَالسَّلامِ .

٨ – غرق فرعون

وَرَأَى فِرْعَوْنُ كَيْفَ سَارَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَبَرُوا الْبَحْرَ آمِنِينَ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِجُنُودِهِ أُنْظُرُوا إِلَى الْبَحْرِ كَيْفَ انْفَلَقَ طَوْعاً لِأَمْرِي حَتَّى آخُذَ هٰؤُلاءِ

الْفَارِّينَ .

وَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فجزِع بَنُو إِسْرَائِيلَ مَرَّةً أُخْرَى .

هَا هُوَ الْعَدُوُّ هَا هُوَ الظَّالِمُ يُرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ الطَّرِيقَ إِلَيْنَا .

وَلا يَمْنَعُهُ مِنَّا شَيْءٌ، وَسَيَلْحَقُنَا ويَأْخُذُنَا إِلى مِصْرَ مَأْسُورِينَ أَذِلَّاءَ أَوْ يَقْتُلُنَا فِي هٰذِهِ الْبَرِّيَّةِ غُرَباءَ .

وَأَرَادَ مُوسىٰ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَرَّ فَيَعُودُ بَحْراً كَمَا كَانَ وَلٰكِنْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أُتْرُكِ الْبَحْرَ سَاكِناً « إِنَّهُم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ » .

وَلَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلى عَرْضِ الْبَحْرِ (وَهُوَ بَرٌّ) انطَبَقَ عَلَيْهِمْ .

وَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنُ الجِدَّ زَالَتْ سَكْرَتُهُ

« حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ « لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ » .

وَ « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِهَا خَيْراً » .

فَقِيلَ لَهُ « ءَآلْئٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » .

وَمَاتَ فِرْعَوْنُ فِي الْبَحْرِ غَرَقاً .

مَاتَ الْجَبَّارُ الَّذِي قَتَلَ أُلُوفاً مِنَ الْأَطْفَالِ وَالرِّجَالِ ذَبْحاً وَخَنْقاً .

مَاتَ الطَّاغِيَةُ الَّذِي قَتَلَ أُلُوفَ آلَافٍ صَبْراً وَشَنْقاً .

مَاتَ مَلِكُ مِصْرَ بَعِيداً عَنْ عَرْشِهِ بَعِيداً عَنْ قَصْرِهِ، بَعِيداً عَنْ سُلْطَانِهِ لا طَبِيبٌ يُدَاوِيهِ وَلا صَدِيقٌ يُوَاسِيهِ، وَلا عَيْنٌ تَبْكِيهِ .

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي شَكٍّ عَنْ مَوْتِهِ يَقُولُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لا يَمُوتُ .

أَمَا كُنَّا نَرَاهُ يَقْضِي أَيَّاماً وَلا يَأْكُلُ وَلا يَشْرَبُ ؟!

وَقَذَفَ الْبَحْرُ جُثَّتَهُ فَأَيْقَنُوا بِمَوْتِهِ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِفِرْعَوْنَ « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » وَكَانَتْ جُثَّةُ فِرْعَوْنَ آيَةً لِلنَّاظِرِينَ وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ .

وَغَرِقَ جُنْدُ فِرْعَوْنَ عَنْ آخِرِهِ وَمَا نَجَا مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وَخَلَّفُوا مِصْرَ وَرَاءَهُمْ وَلَمْ يَجِدُوا فِي أَرْضِهَا الْوَاسِعَةِ ذِرَاعاً لِمَدْفَنٍ .

« كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْماً آخَرِينَ ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » .

٩ — في البرية !

وَصَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلى بَرِّ الْأَمْنِ وَالسَّلامِ

وَتَنَفَّسُوا في هَوَائِهِ كالأَحْرَارِ الأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ لا يَخَافُونَ فِرْعَوْنَ وَلا يَخَافُونَ هَامَانَ وَلا يَخَافُونَ شُرْطَتَهُ .

هُنَالِكَ يَمْشُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ لا يَخْشَوْنَ أَحداً إِلاَّ اللهَ .

وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْحَضَرِ وَكَانَتِ الشَّمْسُ تُؤْذِيهِمْ في الْبَرِّيَّةِ .

وَكَانُوا ضُيُوفَ اللهِ! أَلَمْ تَرَ إِلى المُلُوكِ كَيْفَ يُكْرِمُونَ ضُيُوفَهُمْ ؟!

وَكَيْفَ يَضْرِبُونَ لَهُمُ الْخِيَامَ تَقِيهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ ؟!

إِنَّ كَرَامَةَ اللهِ فَوْقَ كُلِّ كَرَامَةٍ !

وَأَمَرَ اللهُ الْغَمامَ أَنْ يُظِلَّهُمْ، فَكَانُوا

يَمْشُونَ فِي ظِلِّ الْغَمامِ ، وَكَانَ الْغَمامُ يَسِيرُ مَعَهُمْ حَيْثُ سَارُوا وَيَقِفُ أَيْنَمَا وَقَفُوا .

وَعَطِشَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلا مَاءَ فِي الْبَرِّيَّةِ ، وَلا نَهْرَ وَلا بِئْرَ .

ذَهَبُوا إِلى مُوسَىٰ ، يَشْكُونَ إِلَيْهِ الْعَطَش كَمَا يَشْكُو الطِّفْلُ إِلى أُمِّهِ وَيَسْتَغِيثُهَا .

وَدَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ ! وَمَنْ لَهُ غَيْرُهُ ؟!

فَقَالَ « اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » .

« فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ » .

وَجَاعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَشَكَوا إِلى مُوسَىٰ الْجُوعَ كَمَا يَشْكُو الطِّفْلُ إِلى أُمِّهِ وَيَسْتَغِيثُهَا .

وَقَالُوا إِنَّكَ أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ أَرْضِ

الْفَوَاكِهِ وَالثَّمَرَاتِ وَأَرْضِ الْخَيْرَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ فَمَنْ لَنَا بِطَعَامٍ فِي هٰذِهِ الْبَرِّيَّةِ ؟

دَعَا مُوسٰى رَبَّهُ ! وَمَنْ لَهُ غَيْرُه؟! فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الطَّعَامَ .

أَنْزَلَ لَهُمْ عَلَى أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ مِثْلَ الْحَلْوَى، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ طَيْراً يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْأَشْجَارِ بِسُهُولَةٍ .

ذٰلِكَ هُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوٰى، ضِيَافَةُ اللهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ .

١٠ — كفران بني إسرائيل

وَلٰكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَفْسَدَ ذَوْقَهُمْ وَخُلُقَهُمْ الْعُبُودِيَّةُ الطَّوِيلَةُ .

وَكَانُوا لا يَقِرُّونَ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانُوا لا يَسْكُنُونَ إِلى شَيْءٍ وَكَانُوا في طِبَاعِهِمْ أَطْفَالاً .

وَكَانُوا قَلِيلِي التَّشَكُّرِ كَثِيرِي التَّشَكِّي سَرِيعِي السَّآمَةِ يُحِبُّونَ مَا مُنِعُوا وَيَكْرَهُونَ مَا أُعْطُوا .

وَلَمْ يَلْبَثُوا قَلِيلاً أَنْ قَالُوا لِمُوسٰى قَدْ سَئِمْنَا هٰذَا الطَّعَامَ الْوَاحِدَ، وَقَدْ سَئِمْنَا هٰذَا اللَّحْمَ وَهٰذِهِ الْحَلْوَى .

وَقَدِ اشْتَهَيْنَا الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ .

« يٰمُوسٰى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا » .

تَعَجَّبَ مُوسٰى مِنْ هٰذَا السُّؤَالِ الْغَرِيبِ

وَقَالَ بِصَوْتٍ فِيهِ الْإِنْكَارُ وَفِيهِ الْاسْتِعْجَابُ وَفِيهِ الْعِتَابُ .

« أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » ؟!

أَبُقُولاً وَخُضَرَ مَكَانَ طُيُورٍ وَحَلْوَىٰ لَمْ تَمَسَّهَا يَدُ إِنْسَان ؟!

أَطَعَامَ الْفَلَّاحِينَ بَدَلَ طَعَامِ الْمُلُوكِ ؟

يَا لَفَسَادِ الذَّوْقِ! يَا لَسُوءِ الاخْتِيَارِ !

وَلٰكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَتَنَازَلُوا عَنْ سُؤَالِهِمْ، وَلَمْ يَزَالُوا يَطْلُبُونَ الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ .

فَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ مَا سَأَلْتُمْ يُوجَدُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَمِصْرٍ .

« إِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ » .

١١ – عناد بني إسرائيل

وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ في طِبَاعِهِمْ أَطْفَالاً، وَأَطْفَالاً مُعَانِدِينَ

وَكُلَّمَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ يُخَالِفُونَهُ إلى ضِدِّهِ وَيَسْتَهْزِءُونَ بِهِ .

كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا يُقَالُ لَهُمْ .

كَطِفْلٍ عَنِيدٍ يُقَالُ لَهُ قُمْ فَيَجْلِسُ وَيُقَالُ لَهُ إِجْلِسْ فَيَقُومُ. وَيُقَالُ لَهُ اسْكُتْ فَيَتَكَلَّمُ وَيُقَالُ لَهُ تَكَلَّمْ فَيَسْكُتُ .

وَكَانَ فِيهِمْ عِنَادُ الْأَطْفَالِ في خُبْثِ الْأَشْرَارِ في هُزْءِ الْأَعْدَاءِ في سَفَاهَةِ الْمَجَانِينِ .

كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْكُنُوا قَرْيَةً وَيَأْكُلُوا

طَعَامَهُمْ الشَّهِيَّ مِنَ الْخُضَرِ وَالْبُقُولِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ « اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةِ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطٰيٰكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » .

غَضِبُوا مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ الإِلٰهِيّ، وَدَخَلُوا الْقَرْيَةَ كُرْهاً وَهُزُواً يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ .

« فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » .

فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَلاءً وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَبَاءً مَاتُوا مِنْهُ مَوْتَ الْفِيرَانِ .

وَإِذَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ أَكْثَرُوا السُّؤَالَ وَالتَّنْقِيرَ . شَأْنَ رَجُلٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ فَيُكْثِرُ

السُّؤالَ وَالتَّنْقِيرَ .

حَدَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَادِثُ قَتْلٍ ، فَأَهَمَّ ذٰلِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْقَاتِلِ ، وَكَانَ السُّؤالُ عَنِ الْقَاتِلِ حَدِيثَ النَّاسِ .

جَاءُوا إِلَى مُوسٰى – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ – وَقَالُوا أَعِنَّا يَا نَبِيَّ اللهِ فِي هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَادْعُ اللهَ يُبَيِّنْ لَنَا الْقَاتِلَ .

١٢ – البقرة

وَدَعَا مُوسٰى رَبَّهُ فَأَوْحٰى إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ .

هُنَالِكَ حَلَّتِ الْمُصِيبَةُ ، وَبَدَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ

يَسْأَلُونَ وَيَسْخَرُونَ .

«وَإِذْ قَـالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» .

« قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً » .

« قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ » .

وَهُنَا أَرْسَلُوا الأَسْئِلَةَ .

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » ؟

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَـرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَينَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ » .

وَلَمْ يَقِفُوا عَلَى هٰذَا السُّؤَالِ، بَلْ بَدَأُوا يَسْأَلُونَ عَنْ لَوْنِهَا .

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا » .

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ

لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ »

وَلَمْ يَجِدُوا سُؤَالاً فَأَطْلَقُوا السُّؤَالَ .

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ » .

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا » .

وَوُفِّقُوا فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ لأَنَّهُمْ قَالُوا « وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ » فَاهْتَدَوْا .

وَلٰكِنَّ أَسْئِلَتَهُمْ ضَيَّقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ، فَلَوْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ لَكَانَتْ كَافِيَةً، وَلٰكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ .

وَفَتَّشُوا عَنِ الْبَقَرَةِ الْعَوَانِ الصَّفْرَاءِ الْفَاقِعِ لَوْنُهَا الَّتِي لا تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ

الْمَسَلَّمَةِ الَّتِي لا شِيَةَ فِيهَا .

وَنَدَرَ وُجُودُ هٰذِهِ الْبَقَرَةِ الْغَرِيبَةِ فَإِمَّا بَقَرَةٌ فَارِضٌ وَإِمَّا بَقَرَةٌ بِكْرٌ .

وَإِمَّا عَوَانٌ وَلٰكِنْ غَيْرُ صَفْرَاءَ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ وَلٰكِنْ لَوْنُهَا غَيْرُ فَاقِعٍ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا وَلٰكِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا لا تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلٰكِنَّهَا تَسْقِي الْحَرْثَ .

وَفَتَّشُوا وَفَتَّشُوا وَعَلِمُوا عَاقِبَةَ هٰذَا التَّنْقِيرِ ، مَا هِيَ ؟ مَا لَوْنُهَا ؟ مَا هِيَ ! وَتَعِبُوا .

وَأَرَادَ اللهُ بِيَتِيمٍ خَيْراً فَوَجَدُوا هٰذِهِ الْبَقَرَةَ

الَّتي وَصَفَهَا اللهُ عِنْدَهُ فَـاشْتَرَوْهَا بِثَمَنٍ غَالٍ جِداً « فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » .

وَأَمَرَ اللهُ أَنْ يُضْرَبَ الْمَقْتُولُ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَقَرَةِ فَيَحْيَا وَيُخْبِرَ بِاسْمِ الْقَاتِلِ .

وَهٰكَذَا كَانَ ....

١٣ – الشريعة

وَخَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ عَيْشِ الْبَهَائِمِ إِلى عَيْشِ النَّاسِ .

وَصَارُوا يَعِيشُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ كَالْأَحْرَارِ الْأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ احْتَاجُوا إِلى شَرِيعَةٍ إِلٰهِيَّةٍ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَتُنِيرُ لَهُمُ السَّبِيلَ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ كَإِنْسَانٍ إِلاَّ بشَرِيعَةٍ إِلٰهِيَّةٍ، وَإِلاَّ بِنُورٍ مِنْ رَبِّهِ .

الْعَالَمُ كُلُّهُ ظَلامٌ في ظَلامٍ إِلاَّ مَنْ أَشْرَقَ لَـهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ .

وَذٰلِكَ النُّورُ هُوَ نُورُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ النَّاسُ .

وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهٰذَا النُّورِ كَانَ في ضَلالٍ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ

فَالْعَقَائِدُ – بِغَيْرِ هٰذَا النُّورِ – أَوْهَامٌ وَخُرَافَات يَضْحَكُ مِنْهَا الْأَطْفَالُ .

أَمَا سَمِعْتُمْ عَقَائِدَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَخُرَافَاتِهِمْ وَأَسَاطِيرَهُمْ ؟!

وَالْعِلْمُ جَهْلٌ وَظَنٌّ وَتَخْمِينٌ وَشَكٌّ « إِنْ

يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » .

وَالْأَخْلَاقُ تَفْرِيطٌ وَإِفْرَاطٌ وَتَقْصِيرٌ وإِسْرَافٌ أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ لا يَتَّبِعُونَ الْأَنْبِيَاءَ كَيْفَ يَهْضِمُونَ الْحُقُوقَ وَكَيْفَ يُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ وَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ الْهَوَى ؟!

وَالْحُكْمُ وَالسِّيَاسَةُ ظُلْمٌ وَاسْتِبْدَادٌ وَخَبْطٌ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ وَدِمَائِهِمْ .

أَمَا رَأَيْتُمْ أُولِي الْأَمْرِ – مِمَّنْ لَا يَخَافُونَ اللهَ وَلا يَتَّبِعُونَ الشَّرِيعَةَ – كَيْفَ يَخُونُونَ الْأَمَانَاتِ وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِأَمْوَالِ اللهِ. وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِدِمَاءِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ ؟!

وَكَيْفَ اسْتَعْبَدُوا النَّاسَ وَجَعَلُوهُمْ شِيَعاً

يَذبَحُونَ رِجَالَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ، أَتَعْلَمُ كَمْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الأُولَى وَكَمْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الثَّانِيَةِ[١] ؟!

فَالْعَالَمُ كُلُّهُ ظَلَامٌ فِي ظَلَامٍ إِلاَّ مَنْ أَشْرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ .

« ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

وَالنَّبِيُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ كَيْفَ يَعْبُدُونَ اللهَ،

---

(١) للمعلم : عدد المصابين في الحرب الأولى الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) على ما حققه الانكليزي السياسي الخبير أي - اليس تاونسند أكثر من سبعة وثلاثين مليوناً ٨٨٦ ٥١٣ ٣٧ رجلاً ، المقتولون منهم ٥١٥ ٥٤٣ ٨ نسمة . وقدر النائب البريطاني المستر ميكستن أن عدد المصابين في الحرب الثانية الكبرى لا يقل عن خمسين مليوناً .

وَكَذٰلِكَ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يُعَامِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً .

وَالنَّبِيُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ آدَابَ الْحَيَاةِ مَعَ آدَابِ الدِّينِ، وَيُعَلِّمُهُمْ آدَابَ الْأَكلِ وَأَدَبِ الشُّرْبِ وَأَدَبَ النَّوْمِ وَأَدَبَ الْمَجْلِسِ وَأَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ .

وَيُعَلِّمُهُمُ الآدَابَ كَمَا يُعَلِّمُ الْوَالِدُ الشَّفِيقُ أَبْنَاءَهُ الْأَعِزَّةَ .

وَالنَّاسُ كَالْأَطْفَالِ الصِّغَارِ يَحْتَاجُونَ فِي كِبَرِهِمْ إِلى تَرْبِيَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْثَرَ مما يَحْتَاجُونَ فِي صِغَرِهِمْ إِلى تَرْبِيَةِ الآبَاءِ .

وَالَّذِينَ لَمْ يَتَلَقَّوْا هٰذِهِ التَّرْبِيَةَ النَّبَوِيَّةَ وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الآدَابَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَأَشْجَارِ الْبَرِّيَّةِ، نَبَتَتْ وَنَشَأَتْ بِنَفْسِهَا فَيُرَى فِيهَا عِوَجاً وَشَوْكاً وَفَسَاداً .

١٤ – التوراة

وَأَرادَ اللهُ أَنْ لا يَضِيعَ بَنُو إسْرَائِيلَ كَمَا ضَاعَتْ أُمَمٌ بِغَيْرِ كِتَاب وهُدىً مِنَ اللهِ .

وَأَرادَ أَنْ لا يَخْبِطُوا خَبْطَ عَشْوَاءَ كَمَا خَبَطَتْ أُمَمٌ خَبْطَ عَشْوَاءَ .

أَمَرَ اللهُ مُوسٰى أَنْ يَتَطَهَّرَ وَأَن يَصُومَ ثَلاثِينَ يَوْماً ثُمَّ يَأْتي إلى طُورِ سِينَاءَ حَتَّى يُكَلِّمَهُ رَبُّهُ وَيَتَلَقَّى كِتَاباً يَكُونُ لَهُمُ الإمَامَ .

اخْتَارَ مُوسٰى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلاً يَكُونونَ عَلى ذٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ لِأَنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ قَوْمٌ جُحُدٌ .

« وَقَالَ لِأَخِيهِ هٰرُونَ اخْلُفْنِي في قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » لأَنَّ

الْجَمَاعَــةَ لا بُدَّ لهَا مِنْ إمَامٍ .

سَارَ مُوسىٰ لِميقَاتِ رَبِّهِ، وَلٰكِنَّهُ حَثَّهُ الشَّوْقُ إلى رَبِّهِ فَتَعَجَّلَ وَسَبَقَ إلى الطُّورِ .

قَالَ اللهُ: «مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسىٰ ؟» .

«قَالَ : هُمْ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضىٰ» .

وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُتِمَّ مِيقَاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

وَصَلَ مُوسىٰ إلى طُورِ سِينَاء فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَنَاجَاهُ وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، فَزَادَهُ ذٰلِكَ شَوْقاً فَقَالَ: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» .

وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّ مُوسىٰ لا يَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ لأَنَّ اللهَ «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» .

وَإِنَّ الجِبَالَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تحْمِلَ كَلامَهُ فَضْلاً عَنْ نُورِهِ .

« لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

« فَقَالَ لَنْ تَرَانِي وَلٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي » .

« فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسٰى صَعِقاً » .

« فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » .

« قَالَ يَا مُوسٰى إِنِي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ

الشَّاكِرِينَ » .

أَخَذَ مُوسَىٰ الْأَلْوَاحَ وَفِيهَا كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ . وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَأْخُذَهَا بِقُوَّةٍ وَيَأْمُرَ قَوْمَهُ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .

وَلَمَّا وَصَلَ مُوسَىٰ إِلى السَّبْعِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ قَالُوا في وَقَاحَةٍ وَجَسَارَةٍ .

« لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً » غَضِبَ اللهُ عَلَى هٰذِهِ الْوَقَاحَةِ وَالْجُرْأَةِ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لا يَتَحَمَّلُونَ هٰذِهِ الصَّاعِقَةَ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ فَكَيْفَ يَتَحَمَّلُونَ نُورَ اللهِ !

وَدَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ وَقَالَ : « رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟! » .

وَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَبَعَثَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

١٥ — العجل

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعِيشُونَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مِصْرَ مُنْذُ قُرُونٍ .

وَكَانَ الْأَقْبَاطُ يَعْبُدُونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي مِصْرَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَرَوْنَ ذٰلِكَ بِعُيُونِهِمْ .

وَزَالَتْ مِنْهُمْ كَرَاهَةُ الشِّرْكِ وَتَسَرَّبَ

إِلَيْهِمْ حُبُّهُ كَمَا يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلى بَيْتٍ وَاهِنٍ عَتِيقٍ .

وَكَانُوا كُلَّمَا وَجَدُوا فُرْصَةً انْحَدَرُوا إِلى الشِّرْكِ كَمَا يَنْحَدِرُ الْمَاءُ إِلى الْحَدُورِ .

وَزَاغَتْ قُلُوبُهُمْ وَفَسَدَ ذَوْقُهُمْ فَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .

جَازُوا الْبَحْرَ « فَأَتَوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يٰمُوسى اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

وَغَضِبَ مُوسٰى وَقَالَ « إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » .

يَا لَلْعَجَب ! يَا لَلظُّلْم ! إِنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَفَضَّلَكُمْ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ

الْعَالَمِينَ .

« أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلى الْعٰلَمِينَ » .

سَارَ مُوسٰى إِلى الطُّورِ وَغَابَ عَنْهُمْ أَيَّاماً فَكَانُوا صَيْدَ الشَّيْطَانِ وَفَرِيسَةَ الشِّرْكِ .

قَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ السَّامِرِيُّ « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هٰذَا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسٰى فَنَسِيَ » .

وَفُتِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِهٰذَا الْعِجْلِ وَخَرُّوا عَلَيْهِ صُمًّا وَعُمْيَاناً .

« أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرجعَ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ولا نَفْعاً » .

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ

سَبِيلاً » .

وَنَهَاهُمْ هَارُونُ عَنْ ذٰلِكَ وَاجْتَهَدَ وَقَالَ : « يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » .

وَلٰكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مَفْتُونِينَ بِسِحْرِ السَّامِرِيِّ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ فَقَالُوا : « لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسٰى » .

١٦ ـــ العقاب

وَلَمَّا أَخْبَرَ اللهُ مُوسٰى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ رَجَعَ إِلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً . وَغَضِبَ عَلَى قَوْمِهِ وَغَضِبَ للهِ على أَخِيهِ

هَارُونَ .

« قَالَ يَا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » .

وَاعْتَذَرَ هَارُونُ وَقَالَ « إِنِي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي »

« قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسىٰ إِلى السَّامِرِيِّ قَالَ : فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ؟

وَاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ بِجُرْمِهِ وَقَالَ : « كَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » .

« قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيٰوةِ أَنْ

تَقُولَ لا مِسَاسَ » .

وَعَاقَبَهُ مُوسَى بالانْفِرَادِ، يَمْشِي وَحْدَهُ وَيَعِيشُ وَحْدَهُ كَالْوَحْشِيِّ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ .

وَأَيُّ عِقَابٍ أَكْبَرُ مِنْ هٰذَا ؟!

إِنَّ الَّذِي نَجَّسَ أُلُوفاً مِنَ النَّاسِ بالشِّرْكِ يَجِبُ أَنْ يَتَقَذَّرَهُ النَّاسُ وَيَنْبُذُوهُ

إِنَّ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ اللهِ وَعِبَادِهِ يَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

إِنَّ الَّذِي دَعَا إِلى الشِّرْكِ فِي أَرْضِ اللهِ مُذْنِبٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ كُلُّهَا سِجْناً لَهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسَى إِلى الْعِجْلِ الْمَلْعُونِ فَأَمَرَ بِإِحْرَاقِهِ فَأُحْرِقَ ثُمَّ نَفَضَهُ فِي الْبَحْرِ .

وَرَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مَصِيرَ الْعِجْلِ الْمَعْبُودِ

وَرَأَوْا ضَعْفَهُ وَعَجْزَهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسىٰ إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ :

« يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » .

وَكَذٰلِكَ فَعَلُوا ، وَقَتَلَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ الَّذِينَ عَبَدُوهُ وَهٰكَذَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالى :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » .

وَكَذٰلِكَ عُبَّادُ الْعِجْلِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَذٰلِكَ الْمُشْرِكُونَ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ !

١٧ — جبن بني إسرائيل

نَشَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلى الْعُبُودِيَّةِ في مِصْرَ وَعَلى الذُّلِّ وَاهَوَانِ وَشَبَّ عَلَيْهِ الْأَطْفَالُ وَشَابَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ . وَبَرَدَ في عُرُوقِهِمُ الدَّمُ .

وأَصْبَحُوا لا يَحْلُمُونَ بِسِيَادَةٍ وَلا يَتَحَدَّثُونَ بِغَزْوٍ وَلا جِهَادٍ .

كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَقْضُونَ أَيَّامَهُمْ في الْغُرْبَةِ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ وَلا حُكْمٌ .

فَأَرَادَ مُوسى بِوَحْيِ اللهِ أَن يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ وَيَسْكُنُوا فِيها مُلُوكاً أَحْرَاراً .

وَلكِنَّ مُوسى كَانَ يَعْرِفُ طَبِيعَةَ الْجُبْنِ وَالضَّعْفِ في بني إِسْرَائِيلَ .

فَأَرَادَ أَنْ يُشَوِّقَهُمْ وأَن يُهَوِّنَ عَلَيهِمُ الْأَمْرَ

لأَنَّ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ قَدْ اسْتَوْلى عَلَيها قَوْمٌ جبَّارُونَ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ.

ولا يَدْخُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا هؤُلاءِ الْجَبَّارِينَ .

فَذَكَرَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ عَلى الْعَالَمِينَ ، حَتَّى يَنْشَطُوا لِلْجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ وَحَتَّى يَكْرَهُوا هٰذِهِ الْحَيَاةَ الذَّلِيلَةَ غَيْرَ اللاَّئِقَةِ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعٰلَمِينَ » .

ثُمَّ قَالَ لهُمْ إِنَّ أَمَامَكُمْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَلَيْسَ لَكُمْ إِلاَّ أَنْ تَقُومَوا وَتَنْتَزِعُوهَا مِنْ أَعْدَائِكُمْ

وَإِنَّ اللهَ إِذَا كَتَبَ لِأَحَدٍ شَيْئاً وَقَدَّرَهُ لَهُ

فَقَدْ هَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُ فَلا رَادَّ لِقَضَاءِ اللهِ .

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ »

وَخَافَ أَنْ تَغْلِبَهُمْ طَبِيعَةُ الْجُبْنِ فَقَالَ :

« وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ »

وَوَقَعَ مَا كَانَ يَحْذَرُهُ مُوسَى ، فَكَانَ جَوَابُهُمْ عَلَى كُلِّ مَا قَالَ مُوسَى .

« يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا » .

وَقَالُوا فِي وَقَارٍ وَسُكُون :

« فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » .

« قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ * وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ » .

وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ وَقَالُوا :

إِذَا كَانَ لا بُدَّ مِنَ الدُّخُولِ فَادْخُلْ أَنْتَ بِمُعْجِزَةٍ، فَإِذَا سَمِعْنَا أَنَّكَ قَدْ دَخَلْتَهَا، جِئْنَا فَدَخَلْنَا نَحْنُ أَيْضاً آمِنِينَ سَالِمِينَ .

« قَالُوا يَا مُوسٰى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » .

هُنَالِكَ غَضِبَ مُوسٰى وَيَئِسَ مِنْ هٰؤُلاءِ .

« قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

« قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ » .

، وَفِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ يَمُوتُ هٰذَا الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَ فِي مِصْرَ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ وَالذُّلِّ .

وَيَنْشَأُ جِيلٌ آخَرُ يَنْشَأُ فِي هٰذَا التِّيهِ عَلَى الشِّدَّةِ وَالْعُسْرِ وَتِلْكَ أُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ وهذا هُوَ مَصِيرُ الْيَهُودِ فِي كُلِّ زَمَانٍ أُمَّةٌ تَائِهَةٌ تَعِيشُ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ والذُّلِّ .

١٨ — في سبيل العلم

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَامَ مُوسَى خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ :

أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟

فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ !

فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلى اللهِ !
فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي، بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ .
قَالَ رَبِّ كَيْفَ بِهِ ؟
فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ (زَنْبِيلٍ) فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ .

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَحَمَلا حُوتاً فِي مِكْتَلٍ حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا .
فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (مَسْلَكاً) وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً .
فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا فَلَمَّا أَصْبَحَ

قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا نَصَباً (تَعَباً) .

وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلى الصَّخْرَةِ فَإِنِي نَسِيتُ الْحُوتَ .

قَالَ مُوسَىٰ : ذٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي !

فَارْتَدَّا عَلى آثَارِهِمَا قَصَصًا .

فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى (مُغَطًّى) بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسَىٰ .

فَقَالَ الْخَضِرُ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ ؟

فَقَالَ : أَنَا مُوسَىٰ !

فَقَالَ : مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟

قَالَ: نَعَمْ !

قَالَ مُوسَىٰ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟

قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً !

يَا مُوسَىٰ إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ !

قَالَ مُوسَىٰ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً .

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا .

فَعَرَفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ

(أُجْرَةٍ) .

فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ مِنَ الْبَحْرِ .

فَقَالَ الْخَضِرُ :

يَا مُوسَىٰ مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هٰذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ .

فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ .

فَقَالَ مُوسَىٰ :

قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟

قَالَ الْخَضِر :

أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ؟!

قَالَ مُوسٰى :

لا تُؤَاخِذْني بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْني مِنْ أَمْرِي عُسْراً .

فَكَانَتِ الْأُولى مِنْ مُوسى نِسْيَاناً .

فَانْطَلَقَا فَإِذَا بِغُلامٍ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ .

فَقَالَ مُوسى :

أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ !

قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ؟!

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جداراً

يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ .
قَامَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ .
فَقَالَ مُوسَىٰ :
لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً !
فَقَالَ : هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ !
قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسَىٰ لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا[1] ! »

١٩ — التأويل

ثُمَّ نَبَّأَ الْخَضِرُ مُوسَىٰ .
فَقَالَ : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ

(١) الجامع الصحيح للبخاري

وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ (صَالِحَةٍ) غَصْباً .

وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً .

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ .

وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً .

هُنَالِكَ عَرَفَ مُوسٰى أَنَّ أَحداً لا يَسْتَطِيعُ

أَن يُحِيطَ بِعِلْمِ اللهِ وَانَّ بَعْضَ عِلْمِهِ عِنْدَ بَعْضٍ وَبَعْضَهُ عِنْدَ بَعْضٍ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

٢٠ — بنو اسرائيل بعد موسى

وَتُوُفِّيَ مُوسٰى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ عِقَاباً مِنَ اللهِ وَجَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ .

وَضَرَبَ اللهُ عَلَيهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ .

إِنَّهُمْ قَدْ أَسْخَطُوا اللهَ الَّذِي جَعَلَ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ، وَجَعَلَهُمْ مُلُوكاً، وَآتَاهُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ فِي عَصْرِهِمْ .

الَّذِي أَنْجَاهُمْ مِنْ آل فِرْعَوْنَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

نِسَاءَهُمْ .

الَّذِي فَرَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَاهُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

الَّذِي ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى .

الَّذِي فَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ عُيُوناً، وَوَسَّعَ لَهُمْ فِي مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ .

وَكَانَ جَزَاءُ كُلِّ ذَلِكَ أَنْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَعَصَوْا وَاعْتَدَوا .

وَأَغْضَبُوا نَبِيَّهُمْ مُوسَى أَشْفَقَ خلْقِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَحْنُو عَلَيْهِمْ حُنُوَّ الْمُرْضِعِ عَلَى الْفَطِيمِ وَالْأُمِّ الْحَنُونِ عَلَى الْيَتِيمِ

ذٰلِكَ الَّذِي سَبُّوهُ دَعَا لَهُمْ وَكُلَّمَا ضَحِكُوا عَلَيْهِ بَكَى لَهُمْ وَكُلَّمَا جَفَوْهُ رَثَى لَهُمْ .

ذٰلِكَ الَّذِي خَلَّصَهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ سِجْنِ مِصْرَ إلى بَرِّ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّرَفِ، وَمِنْ حَيَاةِ الْعَبِيدِ الْأَشْقِيَاءِ، إلى حَيَاةِ الْأَحْرَارِ الشُّرَفَاءِ .

قَدْ أَغْضَبُوهُ وَآذَوْهُ وَعَانَدُوهُ وَسخِرُوا مِنْهُ وَجَعَلُوهُ أَهْوَنَ رَجُلٍ فِيهِمْ وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً .

أَلا يَسْتَحِقُّونَ هٰذَا الْعِقَابَ وَالْخِزْيَ والذُّلَّ وَالْمَسْكَنَةَ وَالتِّيهَ الدَّائِمِ وَأَلاَّ يُفْلِحُوا أَبداً ؟

بَلَى ! إِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ كُلَّ ذٰلِكَ وَأَكْثَرَ بِأَعْمَالِهِمْ: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

التَّنبِيهُ

نرجو حضرات القراء الانتباه للرموز التالية أثناء قراءتهم لهذا الكتاب.

الحركات في الحروف المشدَّدة تكون مع التشديد، فمثلا: الفتحة في التشديد تكون فوقه، كما تراها فوق حرف «الصاد» في كلمة «قِصَّة». والكسرة تكون تحت التشديد، كما تراها في كلمة «سيِّد». والضمَّة تكون فوق التشديد، كما تراها على حرف «اللّام» في كلمة «كُلٌّ» في جملة «هُوَ كُلُّ مَا حَكَاهُ اللّٰهُ فِي الْقُرْآنِ».

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قِصَّةُ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١- نَظْرَةٌ عَلَى الْقِصَصِ السَّابِقَةِ

قَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا يُوسُفَ، وَقَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا نُوحٍ وَسَيِّدِنَا هُودٍ وَسَيِّدِنَا صَالِحٍ، قَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا مُوسَى فِي شَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ وَالتَّطْوِيلِ، قَرَأْتُمْ كُلَّ ذٰلِكَ بِشَوْقٍ وَرَغْبَةٍ، وَإِجْلَالٍ وَتَقْدِيرٍ، وَحَلَّتْ فِي نُفُوسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ مَحَلَّ الْقِصَصِ الْحَبِيبَةِ الْأَثِيرَةِ، وَوَعَتْهَا ذَاكِرَتُكُمْ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُكُمْ، وَقَدْ رَآكُمُ النَّاسُ تَحْكُونَهَا لِإِخْوَتِكُمُ الصِّغَارِ، وَتُرَدِّدُونَهَا لِلْأَبَوَيْنِ وَالْإِخْوَةِ الْكِبَارِ، وَأَنْتُمْ تَتَذَوَّقُونَهَا، وَقَدْ تَتَحَمَّسُونَ فِي حِكَايَتِهَا.

٢- قِصَّةُ صِرَاعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

وَلَا غَرَابَةَ؛ فَإِنَّهَا قِصَصٌ شَائِقَةٌ مُثِيرَةٌ، وَإِنَّهَا قِصَّةُ صِرَاعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَبَيْنَ النُّورِ

وَالظَّلَامِ ، وَبَيْنَ الإِنْسَانِيَّةِ وَالْوَحْشِيَّةِ ، وَبَيْنَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ ، وَالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ .

ثُمَّ إِنَّهَا قِصَّةُ انْتِصَارٍ لِلْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَالْعِلْمِ عَلَى الْجَهْلِ ، وَالضَّعِيفِ عَلَى الْقَوِيِّ ، وَالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ ، قِصَّةٌ فِيهَا عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

٣- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

وَلَيْسَ مَا حَكَيْنَاهُ لَكُمْ مِنْ قِصَصِ النَّبِيِّينَ ، هُوَ كُلَّ مَا حَكَاهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قِصَصِهِمْ وَحِكَايَاتِهِمْ ، فَفِي الْقُرْآنِ قِصَصٌ غَيْرُ هٰذِهِ الْقِصَصِ .

فِيهِ قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ تِجَارَةٍ وَسِلَعٍ. فَقَدْ كَانُوا عَلَى الْجَادَّةِ التِّجَارِيَّةِ الْكَبِيرَةِ بَيْنَ الْيَمَنِ وَالشَّامِ

وَبَيْنَ الْعِرَاقِ وَمِصْرَ، عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ.

كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللّٰهِ غَيْرَهُ، كَمَا كَانَتْ أُمَمُ الأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَكَانُوا - زِيَادَةً إِلَىٰ ذٰلِكَ - يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَيُطَفِّفُونَ فِي الْكَيْلِ، وَيَتَعَرَّضُونَ لِلْقَوَافِلِ، فَيَتَوَعَّدُونَهَا وَيُخِيفُونَهَا، وَيَعِيثُونَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً، شَأْنَ الأَغْنِيَاءِ الأَقْوِيَاءِ، الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ حِسَاباً وَلَا يَخْشَوْنَ عَذَاباً.

فَبَعَثَ اللّٰهُ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ شُعَيْباً يَدْعُوهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: «يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۝ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

٤ - دَعوة شُعيب عليه السلام

وَيَنْبَسِطُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ وَيَحُلُّ عُقْدَةً فِي نَفْسِهِمْ، وَهِيَ عُقْدَةُ حُبِّ الْمَالِ وَالزِّيَادَةِ، فَيَقُولُ:

إِنَّ مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّبْحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالظُّلْمِ وَالْخِيَانَةِ ، وَ إِذَا نَظَرْتُمْ فِي حَيَاتِكُمْ وَفِي حَيَاةِ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَثْرَوْا وَ جَمَعُوا الْأَمْوَالَ ، وَجَدْتُمْ أَنَّ مَا اكْتَسَبُوهُ عَنْ طَرِيقِ التَّطْفِيفِ وَالْبَخْسِ وَالْخِيَانَةِ، كَانَ مَصِيرُهُ إِلَىٰ التَّلَفِ وَالضَّيَاعِ ، أَوْ الْفَسَادِ وَالْبَلَاءِ ، فَسُرِقَ أَوْ نُهِبَ ، أَوْ أُنْفِقَ فِي غَيْرِ مَا يُرْضِي اللّٰهَ ، أَوْ سُلِّطَ عَلَيْهِ مَنْ أَتْلَفَهُ وَعَبَثَ بِهِ ، وَالْقَلِيلُ الَّذِي يَنْفَعُ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ : «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» .

وَنَصِيحَتِي لَكُمْ خَالِصَةٌ مُخْلَصَةٌ ، وَاللّٰهُ هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْكُمْ وَحْدَهُ . يَقُولُ فِي رِفْقٍ وَحِكْمَةٍ وَعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ : «بَقِيَّتُ اللّٰهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» .

٥ - أَبٌ رَحِيمٌ وَمُعَلِّمٌ حَكِيمٌ

وَيَتَنَوَّعُ لَهُمْ فِي الْخِطَابِ ، وَيَتَفَنَّنُ فِي النَّصِيحَةِ ، شَأْنَ الْأَبِ الرَّحِيمِ وَالْمُعَلِّمِ الْحَكِيمِ ، فَيَقُولُ :

«يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝»..

٦- جَوَابُ قَوْمِهِ

وَقَدْ دَقَّقَ أَذْكِيَاؤُهُمْ فِي تَفْسِيرِ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ وَتَعْلِيلِهَا وَقَالُوا فِي تِيهٍ وَزَهْوٍ، كَأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا سِرًّا أَوْ فَكُّوا لُغْزَةً:

«يٰشُعَيْبُ أَصَلٰوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوٰلِنَا مَا نَشٰؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝».

٧- شُعَيْبٌ يَشْرَحُ دَعْوَتَهُ

وَتَلَطَّفَ لَهُمْ شُعَيْبٌ، فَلَمْ يَقْسُ وَلَمْ يَغْضَبْ،

وَأَفْهَمَهُمْ أَنَّهُ مَاحَمَلَهُ عَلَىٰ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ وَالنَّصِيحَةِ بَعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ وَعَدَمِ تَعَرُّضٍ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِن أَخْلَاقٍ فَاسِدَةٍ وَتَصَرُّفَاتٍ جَائِرَةٍ، إِلَّا مَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ أَخِيرًا: بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَمَا شَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ وَآتَاهُ نُورًا مِّنْ عِنْدِهِ.

وَأَنَّهُ لَايَحْمِلُهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ الْحَسَدُ، فَقَدْ أَغْنَاهُ اللهُ وَرَزَقَهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَأَنَّهُ بِذٰلِكَ سَعِيدٌ، هَنِيءُ النَّفْسِ، رَخِيُّ الْبَالِ، شَاكِرٌ لِّلَّهِ تَعَالَىٰ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَايَنْهَاهُمْ عَنْ أَمْرٍ وَيَرْتَكِبُهُ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَيَأْتِيهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ إِصْلَاحَهُمْ وَإِسْعَادَهُمْ وَإِنْقَاذَهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُحَلِّقُ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ، وَإِنَّ الْفَضْلَ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ، وَعَلَيْهِ اعْتِمَادُهُ.

«قَالَ: يٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا

تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللّٰهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

٨ - مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ

وَتَجَاهَلَ الْقَوْمُ مَا أَرَادَهُ شُعَيْبٌ، كَأَنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ فِي لُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ، مَعَ أَنَّهُ ابْنُ الْبَلَدِ وَأَخُو الْقَوْمِ، وَكَأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ مُبِينٍ فِي كَلَامِهِ غَيْرَ مُفْصِحٍ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَبْلَغِهِمْ كَلَامًا وَأَفْصَحِهِمْ بَيَانًا، وَهٰكَذَا يَقُولُ النَّاسُ إِذَا كَبُرَتْ عَلَيْهِمُ النَّصِيحَةُ وَشَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ.

٩ - شُعَيْبٌ يَتَعَجَّبُ مِنْ قَوْمِهِ

وَتَعَلَّلُوا بِضَعْفِهِ وَوَحْدَتِهِ وَأَنَّهُ لَوْلَا عَشِيرَتُهُ وَقَرَابَتُهُمْ لَهُ لَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ وَتَخَلَّصُوا مِنْهُ، وَقَدِ اسْتَنْكَرَ ذٰلِكَ شُعَيْبٌ وَتَعَجَّبَ مِنْ أَنْ يَكُونَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ وَالْقَوِيُّ الْقَاهِرُ، أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَشِيرَةٍ هِيَ عُرْضَةٌ لِلْأَمْرَاضِ وَالْهَلَاكِ وَالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ.

﴿قَالُوا: يٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرٰىكَ

فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ
قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ».

١٠ - السَّهمُ الأَخِيرُ

وَلَمَّا انقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ أَطْلَقُوا السَّهْمَ الأَخِيرَ الَّذِي أَطْلَقَهُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ،

١١ - حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ

فَكَانَ جَوَابُهُ جَوَابَ فَخُورٍ بِدِينِهِ ، غَيُورٍ عَلَى عَقِيدَتِهِ وَضَمِيرِهِ : « قَالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ

وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ○ .

١٢- بَلْ قَالُوا مِثْلَمَا قَالَ الْأَوَّلُونَ

فَلَمْ يَنفَعْهُمْ ذٰلِكَ ، بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ : « قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۙ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِينَ ۚ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۚ » .

١٣- عَاقِبَةُ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ نَبِيَّهَا

وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ وَاحِدَةً ، عَاقِبَةَ كُلِّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ نَبِيَّهَا وَكَفَرَتْ بِنِعْمَةِ اللّٰهِ : « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جٰثِمِينَ ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ ○ » .

١٤- بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ

وَكَانَ شَأْنُ شُعَيْبٍ شَأْنَ كُلِّ نَبِيٍّ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى

الْأَمَانَةَ ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ :

« فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ : يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ » .

قِصَّة سيِّدنا داوُد و سيِّدنا سُليمان عليهما السّلامُ

وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْقُرْآنُ عَلَىٰ ذِكْرِ أَيَّامِ اللهِ وَمَا لَقِيَهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ مِنْ تَكْذِيبٍ وَسُخْرِيَّةٍ وَإِهَانَةٍ وَمُطَارَدَةٍ مِّنَ الْأُمَمِ الَّتِي بُعِثُوا فِيهَا ، وَمَا لَقِيَتْ هٰذِهِ الْأُمَمُ مِنْ عُقُوبَةٍ وَعَذَابٍ، وَهَلَاكٍ وَدَمَارٍ ، لِتَكْذِيبِهَا لِلرُّسُلِ، وَاسْتِهْزَائِهَا بِهِمْ، وَكَيْدِهَا لَهُمْ، وَهَمِّهَا بِقَتْلِهِمْ ، كَمَا مَرَّ بِكُمْ فِي قِصَصِ النَّبِيِّينَ .

١- القرآن يتحدّثُ عن آلاء الله

بَلْ تَحَدَّثَ الْقُرْآنُ كَثِيرًا عَنْ آلَاءِ اللهِ ، وَحَكَىٰ فِي بَسْطٍ أَحْيَانًا وَفِي اخْتِصَارٍ أَحْيَانًا عَنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ، أَنْعَمَ بِهَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْهُمْ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ، وَمِنْهُمْ أَيُّوبُ وَيُونُسُ ، وَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ .

فَأَمَّا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ فَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَسَّعَ لَهُمَا فِي الْمُلْكِ ، وَمَدَّ لَهُمَا فِي الْعِلْمِ،

وَعَلَّمَهُمَا كَثِيرًا مِمَّا جَهِلَهُ النَّاسُ، سَخَّرَ لَهُمَا الْأَقْوِيَاءَ وَالْعُتَادَ، وَمَا لَا يَنْقَادُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ، فَقَالَ:

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ عِلْمًا ج وَقَالَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ط إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ٥».

٢- نِعمَةُ اللّٰهِ علىٰ داوُد

فَأَمَّا دَاوُدُ فَقَدْ سَخَّرَ اللّٰهُ لَهُ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تَتَجَاوَبُ مَعَهُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ، وَأَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ:

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ط يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ج وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ٥ لا أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ط إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٥».

وَيَقُولُ: « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٥ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ

بَأْسِكُمْ ج فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ٥»

٣ـ شُكْرُهُ عَلَىٰ هٰذِهِ النِّعْمَةِ

وَكَانَ دَاوُدُ مَعَ هٰذَا الْمُلْكِ الْوَاسِعِ وَالْيَدِ الْحَاذِقَةِ الْقَوِيَّةِ عَبْدًا خَاشِعًا أَوَّابًا ، دَائِمَ الذِّكْرِ ، طَوِيلَ الدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ ، حَاكِمًا مُقْسِطًا ، يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا يُحَابِي ، يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ٥» .

٤ـ نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ

فَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَقَدْ سَخَّرَ اللّٰهُ لَهُ الرِّيَاحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَتَحْمِلُهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، فَيَصِلُ إِلَيْهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَأَسْرَعِ زَمَانٍ ، وَسَخَّرَ لَهُ الْأَقْوِيَاءَ وَالْحَاذِقِينَ مِنَ الْجِنِّ ،

وَالْمَارِدِينَ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، يُنفِّذُونَ أَوَامِرَهُ ، وَيُكْمِلُونَ مَشَارِيعَهُ الْعُمْرَانِيَّةَ وَالْبِنَائِيَّةَ الْعِمْلَاقَةَ .

« وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ۝ وَمِنَ الشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝ »

« وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ اعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ ».

٥ - فِقهٌ دَقِيقٌ وعلمٌ عَمِيقٌ

وَقَدْ تَجَلَّى ذَكَاؤُهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَى الْحُكْمِ الصَّحِيحِ فِي قَضِيَّةٍ رُفِعَتْ إِلَى وَالِدِهِ الْعَظِيمِ ، فَكَانَ لِقَوْمٍ كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَتْ

عَنَاقِيدَهُ ، فَدَخَلَتْ فِيهِ غَنَمٌ لِقَوْمٍ فَأَفْسَدَتْهُ ، فَقَضَىٰ دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْكَرْمِ ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ : غَيْرُ هَـٰذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ . قَالَ : تَدْفَعُ الْكَرْمَ إِلَىٰ صَاحِبِ الْغَنَمِ فَيَقُومُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ ، وَتَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَىٰ صَاحِبِ الْكَرْمِ فَيُصِيبُ مِنْهَا ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كَانَ ، دَفَعْتَ الْكَرْمَ إِلَىٰ صَاحِبِهِ ، وَدَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلَىٰ صَاحِبِهَا .

وَخَصَّهُ اللَّهُ بِفِقْهٍ دَقِيقٍ وَعِلْمٍ عَمِيقٍ فَقَالَ : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » .

٦- سُلَيْمَانُ يَعْرِفُ
لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ

وَقَصَّ الْقُرْآنُ قِصَّةً حَكِيمَةً مُمْتِعَةً تَجَلَّىٰ فِيهَا تَيَقُّظُ سُلَيْمَانَ فِي تَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَرَهْبَةِ سُلْطَانِهِ ، كَيْفَ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَبَيْنَ الْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ وَالنُّبُوَّةِ

وَالرِّسَالَةِ فِي الدِّينِ ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَجَمَعَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ذَاتَ مَرَّةٍ ، وَرَكِبَ فِيهِمْ فِي أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ ، وَكَانُوا عَلَىٰ نِظَامٍ كَامِلٍ ، وَكَانُوا فِي قِيَادَةِ رُؤَسَائِهِمْ ، فَمَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ ، فَخَافَتْ نَمْلَةٌ عَلَىٰ قَبِيلَتِهَا أَنْ تَحْطِمَهَا الْخُيُولُ بِحَوَافِرِهَا ، وَلَا يَشْعُرَ بِذٰلِكَ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، فَأَمَرَتْهُمْ بِالدُّخُولِ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، فَفَهِمَ ذٰلِكَ سُلَيْمَانُ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ التِّيهُ وَلَا الزَّهْوُ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ مِّنْ أَنْبِيَاءِ اللّٰهِ ، بَلْ حَمَلَهُ ذٰلِكَ عَلَىٰ حَمْدِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ ، وَالدُّعَاءِ لِلتَّوْفِيقِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْاِنْخِرَاطِ فِي سِلْكِ عِبَادِ اللّٰهِ الصَّالِحِينَ .

٧ - قِصَّةُ هُدْهُدٍ

وَكَانَ الْهُدْهُدُ رَائِدَهُ وَعَيْنَهُ يَدُلُّهُ عَلَىٰ مَوَاضِعِ الْمِيَاهِ ، وَمَنَازِلِ الْجَيْشِ ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَأَنْكَرَ ذٰلِكَ وَتَوَعَّدَهُ ، فَغَابَ زَمَانًا يَسِيرًا ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ : اطَّلَعْتُ عَلَىٰ مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ، وَجِئْتُكَ بِخَبَرٍ صِدْقٍ

عَنْ سَبَأٍ وَمَلِكَتِهِمْ ، لَهُمْ مُلْكٌ عَظِيمٌ وَدَوْلَةٌ وَاسِعَةٌ ، وَقَدْ وَجَدْتُهُمْ - عَلَىٰ هٰذَا الْعَقْلِ وَالْكِيَاسَةِ ، وَالْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ - أَصْحَابَ سَفَاهَةٍ وَجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، وَلَا يَفْقَهُونَ ذٰلِكَ ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللّٰهِ وَحْدَهُ .

٨ - سُلَيمانُ يَدْعُو مَلِكَةَ سَبَأٍ إِلَىٰ دِينِهِ

وَشَقَّ عَلَىٰ نَبِيِّ اللّٰهِ أَنْ يَكُونَ بِجِوَارِ مَمْلَكَتِهِ مُلْكٌ وَأُمَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا وَلَمْ تَبْلُغْهَا دَعْوَتُهُ ، وَلَا تَزَالُ تَعْبُدُ الشَّمْسَ ، وَثَارَتْ فِيهِ الْحَمِيَّةُ الدِّينِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ ، وَرَأَىٰ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَىٰ مَلِكَتِهَا وَحَاكِمَتِهَا الْمُشْرِكَةِ ، وَيَدْعُوَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَالطَّاعَةِ وَالْاِسْتِسْلَامِ ، قَبْلَ أَنْ يَزْحَفَ عَلَىٰ بِلَادِهَا بِجُنُودِهِ الْقَاهِرَةِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا كِتَابًا بَلِيغًا وَدَعَاهَا فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْاِسْتِسْلَامِ ، وَالْكِتَابُ يَجْمَعُ بَيْنَ الرِّقَّةِ وَالصَّرَامَةِ وَتَوَاضُعِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرَةِ الْمُلُوكِ .

٩ـ المَلِكَةُ تَسْتَشِيرُ أَرْكَانَ دَوْلَتِهَا

فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ حَاسِمًا بَيْنَهُمَا، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَحْكُمُ هٰذِهِ الْبِلَادَ عَاقِلَةً غَيْرَ مُتَسَرِّعَةٍ فِي الْحُكْمِ، عِنْدَهَا تَجَارِبُ وَاسِعَةٌ مِّنْ سِيَرِ الْمُلُوكِ وَأَخْبَارِ الْفَاتِحِينَ، وَإِنَّمَا خَانَهَا عَقْلُهَا فِي مَعْرِفَةِ الْإِلٰهِ وَعِبَادَتِهِ؛ فَلَمْ تَأْخُذْهَا حَمِيَّةُ الْمُلُوكِ، وَلَمْ تَسْتَبِدَّ بِالرَّأْيِ، فَأَطْلَعَتْ أَهْلَ الرَّأْيِ مِنْ أَرْكَانِ دَوْلَتِهَا عَلَىٰ هٰذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ كَسَائِرِ الْكُتُبِ، إِنَّهُ كِتَابٌ مِّنْ أَعْظَمِ الْمُلُوكِ فِي زَمَانِهَا وَمِنْ نَبِيٍّ دَاعٍ إِلَى اللّٰهِ

وَلَمَّا بَدَأَ أَرْكَانُ دَوْلَتِهَا يُدِلُّونَ بِقُوَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ جُيُوشِهِمْ إِرْضَاءً وَتَمَلُّقًا ـ شَأْنَ جُلَسَاءِ الْمُلُوكِ وَ الْحُكَّامِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ـ لَمْ تَقْبَلْ مَقَالَتَهُمْ وَلَمْ تُوَافِقْهُمْ عَلَيْهَا، بَلْ حَذَّرَتْهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَذَكَّرَتْهُمْ بِسِيرَةِ الْمُلُوكِ الْفَاتِحِينَ فِي الْأُمَمِ الْمَفْتُوحَةِ وَمَصِيرِهَا بَعْدَ الْهَزِيمَةِ وَالْإِنْكِسَارِ، وَقَالَتْ سَيَكُونُ هٰذَا شَأْنُ بِلَادِنَا وَأُمَّتِنَا، وَقَالَتْ لَهُمْ: إِنَّنِي سَأُرْسِلُ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ بِهَدَايَا وَطُرَفٍ فَأَمْتَحِنُهُ بِهَا، فَإِنْ

قَبِلَ الْهَدِيَّةَ فَهُوَ مَلِكٌ فَقَاتِلُوهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ.

١٠- هَدِيَّةُ مُسَاوَمَةٍ

وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ لَائِقَةٍ بِالْمُلُوكِ ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ أَعْرَضَ عَنْهَا وَزَهِدَ فِيهَا ، وَقَالَ : أَتُسَاوِمُونَنِي بِمَالٍ لِأَتْرُكَكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ؟ وَالَّذِي أَعْطَانِي اللهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ ، خَيْرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَالْأَمْرُ جِدٌّ لَيْسَ بِهَزْلٍ ، وَالْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ دَعْوَةٍ وَطَاعَةٍ، لَيْسَتْ قَضِيَّةَ مُسَاوَمَةٍ ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَصْدِهِ لَهُمْ وَزَحْفِهِ عَلَى مُلْكِهِمْ

١١- المَلِكَةُ تَأْتِي خَاضِعَةً

فَلَمَّا رَجَعَتْ هٰذِهِ الْبِعْثَةُ إِلَى مَلِكَةِ سَبَأٍ ، وَحَكَتْ لَهَا الْقِصَّةَ ، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا ، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذٰلِكَ وَحَمِدَ اللهَ ، وَأَرَادَ أَنْ يُرِيَهَا

آيَةً مِّنْ آيَاتِ اللهِ ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَدَلَّ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وَنِعَمِهِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ ، فَأَرَادَ أَنْ يُحْضِرَ عَرْشَهَا الَّذِي وَكَّلَتْ بِهِ رِجَالاً أَقْوِيَاءَ أُمَنَاءَ ، فَطَلَبَ مِنْ مَلَأِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِعَرْشِهَا قَبْلَ وُصُولِ هٰذَا الْمَوْكِبِ الْعَظِيمِ .

وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا أَرَادَ سُلَيْمَانُ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَكَانَ مُعْجِزَةً ، وَأَمَرَ بِهِ سُلَيْمَانُ فَغُيِّرَ بَعْضُ صِفَاتِهِ ، لِيَخْتَبِرَ مَعْرِفَتَهَا وَثَبَاتَهَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، وَإِنِ الْتَبَسَ عَلَيْهَا الْأَمْرُ كَانَ دَلِيلاً عَلَىٰ قُصُورِ نَظَرِهَا فِي أُمُورٍ أَدَقَّ مِنْهُ وَأَبْعَدَ مَنَالاً .

١٢- قَصْرٌ عَظِيمٌ مِنْ زُجَاجٍ

وَأَمَرَ سُلَيْمَانُ الْبَنَّائِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِّنْ زُجَاجٍ ، وَأَجْرَوْا تَحْتَهُ الْمَاءَ ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ مَاءٌ ، وَلٰكِنَّ الزُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَاشِي وَبَيْنَ الْمَاءِ ، وَكَانَ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ الْمَلِكَةَ تَتَوَهَّمُهُ مَاءً فَتَكْشِفُ عَنْ سَاقَيْهَا ، وَهُنَالِكَ تَتَبَيَّنُ الْخَطَأَ ،

وَتُدْرِكُ قُصُورَ نَظَرِهَا وَانْخِدَاعَهَا بِالْمَظَاهِرِ ، وَكَانَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ، لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مَظْهَرٍ لِلنُّورِ وَالْحَيَاةِ ، الَّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَهُنَالِكَ يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ عَنْ عَيْنَيْهَا ، فَتَعْرِفُ أَنَّهَا كَمَا أَخْطَأَتْ فِي مُعَامَلَةِ الزُّجَاجِ مُعَامَلَةَ الْمَاءِ فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، كَذٰلِكَ أَخْطَأَتْ فِي مُعَامَلَةِ الشَّمْسِ مُعَامَلَةَ الْخَالِقِ فَسَجَدَتْ لَهَا وَعَبَدَتْهَا ، وَكَانَ ذٰلِكَ أَبْلَغَ مِنْ مِائَةِ خُطْبَةٍ وَأَلْفِ دَلِيلٍ .

١٣- وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَهٰكَذَا كَانَ ، فَقَدْ تَوَرَّطَتْ رَغْمَ دَهَائِهَا وَذَكَائِهَا فِي هٰذَا الْخَطَأِ الْفَاحِشِ ، وَتَوَهَّمَتِ الزُّجَاجَةَ مَاءً رَقْرَاقًا يَسِيلُ وَيَمُوجُ ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَخُوضَهُ.

هُنَالِكَ نَبَّهَهَا نَبِيُّ اللهِ سُلَيْمَانُ عَلَىٰ خَطَإِهَا ، وَقَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ عَنْ عَيْنِهَا ، وَعَرَفَتْ جَهْلَهَا فِي قِيَاسِ الْمَظْهَرِ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَعِبَادَةِ الشَّمْسِ وَالسُّجُودِ لَهَا ، وَابْتَدَرَتْ تَقُولُ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

نَفسِي ، وَأَسلَمتُ مَعَ سُلَيمَانَ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ .

١٤- القُرآنُ يَحكِي قِصَّةَ سُلَيمَانَ

وَاقرَؤُوا هٰذِهِ القِصَّةَ الشَّائِقَةَ المُمتِعَةَ فِي القُرآنِ ، يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

«وَتَفَقَّدَ الطَّيرَ فَقَالَ : مَالِيَ لَآ أَرَى الهُدهُدَ أَم كَانَ مِنَ الغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَو لَأَاذبَحَنَّهُ أَو لَيَأتِيَنِّي بِسُلطٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيرَ بَعِيدٍ فَقَالَ: أَحَطتُ بِمَا لَم تُحِط بِهِ وَجِئتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ امرَأَةً تَملِكُهُم وَأُوتِيَت مِن كُلِّ شَيءٍ وَلَهَا عَرشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَومَهَا يَسجُدُونَ لِلشَّمسِ مِن دُونِ اللّٰهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطٰنُ أَعمٰلَهُم فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ فَهُم لَا يَهتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِي يُخرِجُ الخَبءَ فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ وَيَعلَمُ مَا تُخفُونَ وَمَا تُعلِنُونَ ۝ اللّٰهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ ۝ قَالَ : سَنَنظُرُ أَصَدَقتَ أَم كُنتَ مِنَ الكٰذِبِينَ ۝ اذهَب

بِّكِتٰبِي هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
قَالَتْ : يٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتٰبٌ كَرِيمٌ ○ إِنَّهُ مِن سُلَيْمٰنَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ○ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ ○ قَالَتْ : يٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي ج
مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُونِ ○ قَالُوا : نَحْنُ أُولُو
قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ○ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا
تَأْمُرِينَ ○ قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ج وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ○ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ○ فَلَمَّا جَآءَ
سُلَيْمٰنَ قَالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتٰىنِۦَ اللّٰهُ خَيْرٌ
مِّمَّآ ءَاتٰىكُمْ ج بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ○ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً
وَهُمْ صٰغِرُونَ ○ قَالَ : يٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ○ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ : أَنَا
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ج وَإِنِّي عَلَيْهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ○ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتٰبِ : أَنَا

آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ : هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٥ قَالَ : نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٥ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ : أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٥ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ٥ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٥ »

وَهَٰذَا نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مَوَاقِفَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى التَّوْحِيدِ ، وَحِكْمَتَهُ وَفِقْهَهُ وَغَيْرَتَهُ عَلَى دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ .

١٥- وَمَا كَفَرَ سُلَيمانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

نَسَبَ إِلَيْهِ الْيَهُودُ مَا لَا يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ مُوَحِّدٍ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ، فَضْلاً عَنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ آتَاهُ اللّٰهُ الْحِكْمَةَ ، وَأَكْرَمَهُ بِالنُّبُوَّةِ ، وَشَرَّفَهُ بِالْخِلَافَةِ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ السِّحْرَ وَالْكُفْرَ ، وَالْمُدَاهَنَةَ لِلشِّرْكِ ، وَالِاضْطِرَابَ فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ بِسَبَبِ أَزْوَاجِهِ ، فَبَرَّأَهُ اللّٰهُ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ ، فَقَالَ :

« وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٰنُ وَلٰكِنَّ الشَّيٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ». وَقَالَ : « وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ». وَقَالَ : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ » .

قصة سيدنا أيوب وسيدنا يونس عليهما السلام

١- قِصَّةُ أَيُّوبَ نمطٌ آخَرُ مِنَ القَصَصِ

وَقِصَّةُ أَيُّوبَ فِي الْقُرْآنِ نَمَطٌ آخَرُ مِنَ الْقَصَصِ، وَمَظْهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ نِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ، وَالْأَنْبِيَاءِ الْمَحْبُوبِينَ؛ فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَوْلَادٌ مَرْضِيَّةٌ، فَابْتُلِيَ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ، وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ يَذْكُرُ بِهِمَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى عَافَهُ الْجَلِيسُ، وَأُفْرِدَ فِي نَاحِيَةٍ مِّنَ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِّنَ النَّاسِ يَحْنُو عَلَيْهِ، سِوَى زَوْجَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ، وَاحْتَاجَتْ أَيْضًا فَصَارَتْ تَخْدِمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ (١).

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

٢- صَبْرُ أَيُّوبَ

وَكَانَ رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ صَابِرًا شَاكِرًا يَلْهَجُ لِسَانُهُ بِالذِّكْرِ وَالشُّكْرِ، لَا يَشْكُو، وَلَا يَتَعَتَّبُ، وَلَا يَتَذَمَّرُ، وَلَا يَغْضَبُ، وَدَامَ عَلَىٰ ذٰلِكَ سِنِينَ طِوَالًا مُلْقًى عَلَىٰ كُنَاسَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَخْتَلِفُ الدَّوَابُّ فِي جَسَدِهِ.

٣- مِحْنَةٌ وَمِنْحَةٌ

وَلَمَّا تَمَّ مَا أَرَادَهُ اللّٰهُ مِنَ ابْتِلَاءٍ، وَمَا أَرَادَ بِهِ مِنْ تَكْمِيلٍ، وَرَفْعِ دَرَجَاتٍ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، أَلْهَمَهُ الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَ، الَّذِي تَجَلَّىٰ فِيهِ عَجْزُهُ وَبُؤْسُهُ، وَأَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَافَاهُ اللّٰهُ فِي بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِي كُلِّ ذٰلِكَ، فَكَانَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، يَقُولُ اللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ

وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ۝».

٤ - قِصَّةُ يُونُسَ وَحِكْمَتُهَا

وَتَأْتِي قِصَّةُ يُونُسَ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ أَيُّوبَ، مُؤَيِّدَةً لَهَا فِي إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ وَإِغَاثَتِهِ لَهُمْ، حِينَ يَنْقَطِعُ الرَّجَاءُ، وَيَغْشَى الْيَأْسُ الْقَاتِلُ وَالظَّلَامُ الْحَالِكُ، وَتَنْسَدُّ جَمِيعُ الْمَنَافِذِ، فَلَا نُورَ وَلَا هَوَاءَ، وَلَا أَمَلَ وَلَا رَجَاءَ، تَدُورُ رَحَى الْمَوْتِ قَوِيَّةً سَرِيعَةً تَطْحَنُ حَبَّةَ الْحَيَاةِ نَاعِمَةً دَقِيقَةً.

هُنَالِكَ تَبْرُزُ يَدُ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ، الْقَوِيَّةُ الْقَاهِرَةُ، الرَّحِيمَةُ الْحَكِيمَةُ، فَتُخْرِجُ هٰذَا الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ مِنْ أَشْدَاقِ الْأَسَدِ الضَّارِي وَالْمَوْتِ الْفَاتِكِ، فَيَخْرُجُ سَلِيمًا غَيْرَ مَخْدُوشٍ، كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، كَأَنَّمَا كَانَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ فِي بَيْتِهِ مَحْفُوظًا بَيْنَ أَهْلِهِ.

٥ - يُونُسُ بَيْنَ قَوْمِهِ

وَهٰذِهِ قِصَّةُ يُونُسَ : بَعَثَهُ اللّٰهُ إِلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةِ « نَيْنَوَا » فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ، وَتَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ ، وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذٰلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلَادِهَا ، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلَىٰ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَأَرُوا إِلَيْهِ ، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا ، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا ، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَسِخَالُهَا ؛ فَرَفَعَ اللّٰهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ○ » .

٦- يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ

وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، فَجَنَحَتْ بِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ يُونُسَ فَأَبَوْا أَنْ يُلْقُوهُ ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَأَبَوْا ، ثُمَّ أَعَادُوهَا ، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» أَيْ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ ، فَقَامَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ حَتَّىٰ جَاءَ ، فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ ذَٰلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا ، وَلَا تَهْشِمَ لَهُ عَظْمًا (١).

---

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

٧- وَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ

فَكَانَ فِي ظُلْمَةِ بَطْنِ الْحُوتِ ، فِي ظُلْمَةِ الْبَحْرِ ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فَمَا أَشَدَّ الظَّلَامَ ! وَمَا أَبْعَدَ السَّلَامَ ! وَمَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ ، ثُمَّ أَلْهَمَهُ اللهُ الْكَلِمَاتِ الَّتِى تُبَدِّدُ الظُّلُمَاتِ ، وَتَكْشِفُ الْكُرُبَاتِ ، وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ، وَاسْمَعِ الْقُرْآنَ يَحْكِى هٰذِهِ الْقِصَّةَ الْغَرِيبَةَ الْفَرِيدَةَ ، الَّتِى فِيهَا سَلْوَى لِكُلِّ بَائِسٍ مَلْهُوفٍ ، وَيَائِسٍ مُضْطَرِبٍ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَرَأَى عِيَانًا أَنْ لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ :

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمٰتِ أَن لَّا إِلٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظّٰلِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنٰهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝ » .

قصة سيدنا زكريا عليه السلام

١- دعاء زكريا لولد صالح

وَلَوْنٌ آخَرُ مِنْ آلاءِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَآيَاتِ قُدْرَتِهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، تَجَلَّىٰ فِي دُعَاءِ زَكَرِيَّا لِوَلَدٍ صَالِحٍ رَضِيٍّ ، بَرٍّ تَقِيٍّ ، يَرِثُهُ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَيَقُومُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ، وَذٰلِكَ حِينَ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ ، وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ ، وَلَجَّ بِهِ الشَّيْبُ ، وَانْقَطَعَ الرَّجَاءُ مِنْ أَنْ تَلِدَ زَوْجُهُ ، فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَهُ ، وَكَذَّبَ ظُنُونَ النَّاسِ ، وَأَبْطَلَ التَّجَارِبَ الْقَدِيمَةَ ، فَرَزَقَهُ وَلَدًا رَاشِدًا ، بَكَّرَ بِهِ النُّبُوغُ وَالْحِكْمَةُ ، وَالْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَالْكِتَابُ ، فِي الصِّغَرِ ، وَخُصَّ بِالْحَنَانِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَىٰ وَالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ ، وَالرِّقَّةِ وَلِينِ الْكَنَفِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ.

وَرَبَطَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِ زَكَرِيَّا ، وَأَرَاهُ آيَاتٍ تَدُلُّ

عَلَىٰ قُدْرَةِ اللّٰهِ الْوَاسِعَةِ ، وَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَأَرَاهُ تَصَرُّفَهُ فِي خَلْقِهِ وَفِي أَعْضَاءِ جِسْمِهِ يُحَرِّكُ مَا يَشَاءُ وَيُعَطِّلُ مَا يَشَاءُ، وَتَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِيَدِهِ ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

٢- نَذْرُ امْرَأَةِ عِمْرَانَ

وَقَدْ نَذَرَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ - مِنْ أُسْرَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَتِ امْرَأَةً صَالِحَةً تُحِبُّ اللّٰهَ ، وَ تُحِبُّ دِينَهُ - أَنَّهَا إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا تَهَبُ هٰذَا الْوَلَدَ لِلّٰهِ : لِخِدْمَةِ دِينِهِ وَسَأَلَتِ اللّٰهَ أَنْ يَّتَقَبَّلَ هٰذَا الْوَلَدَ وَيَنْفَعَ بِهِ دِينَهُ وَعِبَادَهُ ، وَأَنْ يَّكُونَ دَاعِيًا إِلَى اللّٰهِ وَإِمَامًا مِّنْ أَئِمَّةِ الْهُدَىٰ :

٣- قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ

وَأَرَادَتِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللّٰهُ أَمْرًا ، وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَةِ عِبَادِهِ ، فَإِذَا هِيَ تَلِدُ أُنْثَىٰ ، فَتَحْزَنُ

لِذٰلِكَ وَتَغْشَاهُ الكَآبَةُ ، وَلٰكِنَّ الوَلِيدَةَ لَمْ تَكُنْ كَكُلِّ أُنْثَىٰ ، بَلْ كَانَتْ أَقْوَىٰ عَلَىٰ العِبَادَةِ ، وَأَعْلَىٰ هِمَّةً فِي الطَّاعَاتِ وَالخَيْرَاتِ ، مِنْ كَثِيرٍ مِّنَ الفِتْيَانِ ، وَإِذَا قَدَّرَ اللّٰهُ ـ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا ـ أَنْ تَكُونَ أُنْثَىٰ، وَالنُّبُوَّةُ لَا يَضْطَلِعُ بِأَعْبَائِهَا إِلَّا الرِّجَالُ ، فَقَدْ قَدَّرَ اللّٰهُ أَنْ تَكُونَ أُمًّا لِنَبِيٍّ صَالِحٍ يَكُونُ لَهُ شَأْنٌ :

« إِذْ قَالَتِ آمْرَأَتُ عِمْرٰنَ : رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ج إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ○ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ط وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ط وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ ج وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيمِ ○ » .

٤ ـ عِنَايَةُ اللّٰهِ بِالفَتَاةِ الصَّالِحَةِ

وَكَانَتْ فِي كِفَالَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا لِمَكَانَتِهَا مِنْهُ ، وَفِي رِعَايَةِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، فَكَانَ اللّٰهُ يُكْرِمُهَا بِالأَثْمَارِ وَالفَوَاكِهِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا وَفِي غَيْرِ مَكَانِهَا ، تَأْكُلُ مِنْهَا

مَا تَشَاءُ وَتَهَبُ مِنْهَا مَا تَشَاءُ .

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَّأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ، وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ : يَمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هٰذَا ، قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ، إِنَّ اللّٰهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

٥ - إِلْهَامًا مِّنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ

وَأَلْهَمَ اللّٰهُ زَكَرِيَّا - وَهُوَ نَبِيٌّ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنَ الْعُقَلَاءِ الْأَذْكِيَاءِ - أَنَّ مَنْ يَّقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُّكْرِمَ فَتَاةً صَالِحَةً أَخْلَصَتْ أُمُّهَا فِي النَّذْرِ بِهَا وَالدُّعَاءِ لَهَا ، وَ أَخْلَصَتْ هِيَ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ، بِفَوَاكِهَ سَابِقَةٍ لِّزَمَانِهَا أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ عَنْ أَوَانِهَا ، يَقْدِرُ أَنْ يَّهَبَ شَيْخًا قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ وَعَلَاهُ الشَّيْبُ وَأَثَّرَ فِيهِ الْوَهَنُ ، وَلَدًا قَدِ انْقَطَعَ مِنْهُ الرَّجَاءُ لِعُلُوِّ السِّنِّ وَعُقْرِ الزَّوْجِ ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ لَّا يُولَدَ لِرَجُلٍ فِي هٰذِهِ الْحَالِ .

فَجَاشَتْ نَفْسُهُ ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ ، وَانْتَعَشَ

الْأَمَلُ ، وَقَوِيَتِ الثِّقَةُ بِالرَّبِّ ، فَفَاضَ لِسَانُهُ بِدُعَاءٍ أَمَّنَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، وَتَحَرَّكَتْ بِهِ رَحْمَةُ اللّٰهِ ، وَكَانَ كُلُّهُ إِلْهَامًا مِّنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ ، وَتَقْدِيرًا مِّنَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ :

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ج قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ج إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٥ » .

٦- بِشَارَةُ وَلَدٍ

وَأَجَابَ اللّٰهُ دُعَاءَهُ ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ الْبِشَارَةُ بِوَلَدٍ صَالِحٍ قَرُبَ زَمَانُ وِلَادَتِهِ .

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، فَطَلَبَ أَمَارَةً عَلَىٰ إِمْكَانِ هٰذَا الْحَدَثِ الْكَبِيرِ وَقُرْبِ ظُهُورِهِ ، فَقَالَ :

« رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ط قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ط وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ٥ » .

فَالْقَادِرُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْلُبَ خَوَاصَّ الْأَشْيَاءِ ، فَيَجْعَلُ اللِّسَانَ النَّاطِقَ أَبْكَمَ لَا يَسْتَطِيعُ

أَنْ يَتَحَرَّكَ بِكَلِمَةٍ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُودِعَ مَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ مَا شَاءَ مِنْ خَوَاصّ ، وَالْقَوِيُّ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْطِيَ

٧- آيَاتُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ

وَظَهَرَتْ آيَاتُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ فِي جِسْمِهِ ثُمَّ فِي بَيْتِهِ وَأُسْرَتِهِ ، وَوُلِدَ يَحْيَىٰ فَقَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ أَزْرُهُ ، وَعَاشَتْ بِهِ دَعْوَتُهُ . وَاسْمَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ تَارَةً فِي إِيجَازٍ وَطَوْرًا فِي تَفْصِيلٍ ، فَيَقُولُ :

« وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوٰرِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ز وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسٰرِعُونَ فِي الْخَيْرٰتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَّ رَهَبًا ۚ وَكَانُوا لَنَا خٰشِعِينَ ٥ » .

٨- يَحْيَىٰ يَضْطَلِعُ

بأعباء الدعوة

وَيُولَدُ يَحْيَىٰ فَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِأَبَوَيْهِ ، وَخَلِيفَةً

لِوَالِدِهِ الْعَظِيمِ ، فَيَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللّٰهِ وَإِلَى الدِّينِ الْخَالِصِ ، وَتَظْهَرُ فِيهِ آثَارُ النَّجَابَةِ مُنْذُ الصِّغَرِ ، فَيُقْبِلُ عَلَى الْعِلْمِ بِشَغَفٍ وَهُوَ غُلَامٌ ، وَيَتَحَلَّى بِالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى وَهُوَ شَابٌّ ، وَيَمْتَازُ عَنْ أَقْرَانِهِ فِي الْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالْبِرِّ بِالْأَبَوَيْنِ ، يُشَارُ فِي ذٰلِكَ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ ، يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُ :

« يٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكٰوةً ، وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ » .

قِصَّةُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

١- قِصَّةٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ

وَيَجِيءُ دَوْرُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ ، وَهُوَ آخِرُ الرُّسُلِ قَبْلَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهِيَ قِصَّةٌ تَجَلَّتْ فِيهَا إِرَادَةُ اللّٰهِ الْقَاهِرَةُ ، وَقُدْرَةُ اللّٰهِ الْمُطْلَقَةُ ، وَحِكْمَةُ اللّٰهِ الدَّقِيقَةُ ؛ فَأَمْرُهُ كُلُّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، وَوِلَادَتُهُ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ ، حَارَتْ فِيهَا الْأَلْبَابُ ، وَنُسِخَتْ فِيهَا الْقَوَانِينُ الطَّبِيعِيَّةُ ، وَشَقَّ الْإِيمَانُ بِهَا وَالتَّصْدِيقُ لَهَا عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِالْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ كَإِلٰهٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ ، وَآمَنَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَبِأَحْكَامِ الطِّبِّ وَالطَّبِيعَةِ كَنَامُوسٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، وَجَهِلَ قُدْرَةَ اللّٰهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَغَلَبَتْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِرَادَتَهُ الَّتِي لَا يَحُولُ دُونَهَا شَيْءٌ ، « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ » .

وَهَانَ هٰذَا الْإِيمَانُ عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللهِ كَإِلٰهٍ قَادِرٍ مُّرِيدٍ، خَالِقٍ صَانِعٍ، «هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝».

وَآمَنَ بِخَلْقِ آدَمَ مِنْ مَّاءٍ وَّطِينٍ، وَّمِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَّأَبٍ، وَوِلَادَةٌ مِّنْ أُمٍّ مِّنْ غَيْرِ أَبٍ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ لِلتَّصْدِيقِ مِنْ وِلَادَةٍ مِّنْ غَيْرِ أُمٍّ وَّأَبٍ، وَلِذٰلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ۝».

٢- أَمْرُهُ كُلُّهُ عَجَبٌ

وَأَمْرُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ كُلُّهُ عَجَبٌ، وَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي عَصْرٍ بَلَغَتْ فِيهِ «يُونَانُ» أَوْجَهَا فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ، وَكَانَتْ لِلطِّبِّ دَوْلَةٌ وَّصَوْلَةٌ.

٣- خُضُوعُ الْيَهُودِ
لِلْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ

وَخَضَعَ الْيَهُودُ - وَهُمْ أُمَّةٌ كَثُرَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ -

لِلعُلُومِ السَّائِدَةِ فِي عَصْرِهِمْ ، وَاشْتَهَرَ فِيهِمْ إِنْكَارُ الرُّوحِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا ، وَاعْتَادُوا أَنْ يُفَسِّرُوا كُلَّ مَا يَرَوْنَهُ تَفْسِيرًا مَادِّيًّا ، فَلَا وُجُودَ لِشَيْءٍ عِنْدَهُمْ وَلَا إِمْكَانَ لِحَادِثٍ إِلَّا بِالسَّبَبِ وَالْعِلَّةِ ؛ فَكَانَتِ الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا سَيِّدَنَا عِيسَىٰ عِلَاجًا لِلْعَقْلِ الْمَادِّيِّ الضَّيِّقِ ، وَحَاجَةَ الْعَصْرِ وَنِدَاءَ الزَّمَانِ .

وَأَمْعَنَ الْيَهُودُ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ الظَّاهِرِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْقُشُورِ دُونَ اللُّبَابِ ، وَالتَّشَبُّثِ بِالْمَظَاهِرِ دُونَ الْحَقِيقَةِ ، وَغَلَوْا فِي تَقْدِيسِ الْعُنْصُرِ وَالدَّمِ ، وَفِي حُبِّ الْمَالِ وَالْمَادَّةِ ، وَانْهَمَكُوا فِي الْحَيَاةِ إِنْهِمَاكًا زَائِدًا وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَجَفَّتْ طَبَائِعُهُمْ ، فَلَا يَرِقُّونَ لِلضَّعِيفِ وَلَا يَعْطِفُونَ عَلَى الْفَقِيرِ ، وَيُعَامِلُونَ مَنْ لَا يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ الدَّمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ مُعَامَلَةَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْكِلَابِ أَوِ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا رُوحَ فِيهَا ، وَيَخْضَعُونَ لِلْأَقْوِيَاءِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَى الصِّغَارِ الْفُقَرَاءِ ، وَيَقْسُونَ عِنْدَ الْقُدْرَةِ ، وَيَلِينُونَ عِنْدَ الْعَجْزِ ، قَدْ وَلَّدَتْ فِيهِمْ حَيَاةُ الذُّلِّ

وَالْعُبُودِيَّةِ الَّتِي عَاشُوهَا فِي الْحُكْمِ الرُّومَانِي الَّـذِي دَامَ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي سُورِيَا وَفَلَسْطِينَ ، النِّفَاقَ وَالْخُنُوعَ ، وَالتَّحَيُّلَ وَالـدَّهَاءَ ، وَاللُّجُوءَ إِلَى الْمُؤَامَرَةِ وَالسِّرِّيَّةِ .

٤- اسْتِخْفَافٌ وَتَمَرُّدٌ

وَوَلَّدَ فِيهِمُ الِاسْتِخْفَافُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالِاجْتِرَاءُ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى بِالْقَتْلِ ، وَالتَّعَامُلُ بِالرِّبَا ، وَالْعَبَثُ بِالتَّعَالِيمِ الدِّينِيَّةِ ، الْغِلْظَةَ وَالْجَفَافَ ، وَضَعْفَ الْعَاطِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَجَرَّدَتْ قُلُوبُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنْ حُبِّ اللّٰهِ الْخَالِصِ ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ - مَهْمَا كَانَ أَصْلُهُ وَفَصْلُهُ - وَاحْتِرَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَكَادُوا يَنْسَوْنَ مَعَانِيَ الْمُؤَاسَاةِ وَالْمُسَاوَاةِ ، وَالْبِرِّ وَالْكَرَمِ ، وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالنُّبُوَّاتِ وَالرِّسَالَاتِ ، وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ، وَزَخَرَتْ صُحُفُهُمْ بِأَخْبَارِهِمْ ، وَلٰكِنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا فِي الزَّمَنِ الْأَخِيرِ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا وَافَقَ هَوَاهُمْ ، وَأَيَّدَهُمْ فِي سِيرَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، أَمَّا

مَنِ انْتَقَدَهُمْ وَحَاسَبَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالحَقِّ الصَّرِيحِ وَإِصْلَاحِ الحَالِ ، عَادَوهُ وَحَارَبُوهُ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُمْ جَرَاءَةٌ عَلَىٰ البَهْتِ وَالافْتِرَاءِ ، وَكِتْمَانِ الْحَقِّ ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ .

٥ - نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَكَانُوا أُمَّةً تَمْتَازُ عَنِ الْأُمَمِ الْمُعَاصِرَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ ، وَذٰلِكَ سِرُّ تَفْضِيلِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« يٰبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ ۝ » .

٦ - نُكْرَانٌ لِلْجَمِيلِ

وَلٰكِنْ تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ بِحُكْمِ الِاخْتِلَاطِ وَمُجَاوَرَةِ الشُّعُوبِ الْوَثَنِيَّةِ الْمُشْرِكَةِ ، وَبِطُولِ الْعَهْدِ بِتَعَالِيمِ الْأَنْبِيَاءِ ، عَقَائِدُ زَائِفَةٌ ، وَعَادَاتٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَقَدْ عَبَدُوا

الْعِجْلَ فِي مِصْرَ، وَبَالَغُوا فِي تَقْدِيسِ عُزَيْرٍ وَتَعْظِيمِهِ، حَتَّىٰ تَخَطَّوْا بِهِ حُدُودَ الْبَشَرِيَّةِ، وَبَلَغَتْ بِهِمُ الْوَقَاحَةُ إِلَىٰ أَنْ نَسَبُوا بَعْضَ أَعْمَالِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَأَعْمَالِ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ، وَالْأَفْعَالِ الشَّنِيعَةِ، إِلَىٰ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَتَّقُوا اللهَ فِيهِمْ.

٧- زَهْوٌ وَدَلَالٌ

وَكَانُوا رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ شَدِيدِي الْإِدْلَالِ بِالنَّسَبِ، شَدِيدِي الْاِعْتِمَادِ عَلَىٰ الْأَمَانِي وَالْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ». وَيَقُولُونَ: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً».

٨- وِلَادَةُ الْمَسِيحِ تَتَحَدَّىٰ الْمَحْسُوسَ الْمَعْرُوفَ

وَكَانَتْ وِلَادَةُ الْمَسِيحِ وَحَيَاتُهُ، وَدَعْوَتُهُ وَمَعِيشَتُهُ، تَحَدِّيًا لِكُلِّ ذٰلِكَ، تَحَدِّيًا لِلْمَحْسُوسِ الْمُقَرَّرِ، تَحَدِّيًا لِلْأَعْرَافِ الشَّائِعَةِ، وَالْعَادَاتِ الْمُتَّبَعَةِ،

وَالْقَوَانِينِ الْمَرْسُومَةِ ، وَالْمُثُلِ الْعُلْيَا الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا الْيَهُودُ ، وَالْعَادَاتِ الَّتِي يَتَنَافَسُونَ فِيهَا ، وَيَتَقَاتَلُونَ عَلَيْهَا ؛ فَوُلِدَ مِنْ طَرِيقَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ ، وَكَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، وَنَشَأَ فِي أَحْضَانِ أُمٍّ فَقِيرَةٍ مُتَبَتِّلَةٍ ، وَعَاشَ فِي جَوٍّ مَلِيءٍ بِالطَّعْنِ وَالْقَدْحِ ، بَعِيدٍ عَنْ مَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ وَالْغِنَى ، يُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ ، وَيُؤَاكِلُهُمْ ، وَيَحْنُو عَلَيْهِمْ ، وَيُوَاسِي الضُّعَفَاءَ وَالْغُرَبَاءَ ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ فَقِيرٍ وَغَنِيٍّ ، وَحَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ ، وَشَرِيفٍ وَوَضِيعٍ .

٩- مُعْجِزَاتُ الْمَسِيحِ

وَأَكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ ، وَآتَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَأَيَّدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، يَشْفِي اللهُ بِهِ الْمَرْضَى الَّذِينَ عَجَزَ عَنْ مُدَاوَاتِهِمُ الْأَطِبَّاءُ ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَخْلُقُ لِلنَّاسِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ ، فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيُنَبِّئُ بِمَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ

وَيَدَّخِرُونَهُ فِي بُيُوتِهِمْ .

فَيُبِيدُ بِكُلِّ ذٰلِكَ الثِّقَةَ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ خَبَرِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ ، وَأَخْبَارِ الْقُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ ، وَيُجَدِّدُ الإِيمَانَ بِهَا ، وَيُكَذِّبُ الْعِبَادَةَ لِلْحِسِّ وَالتَّجْرِبَةِ ، فَقَامَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ سَعَةَ الْقُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ ، وَقُوَّةَ الإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فَقَرَّرُوا أَنْ لَا جَدِيدَ وَأَنْ لَا مَزِيدَ فِيمَا عَلِمُوهُ وَشَاهَدُوهُ .

١٠- دَعْوَتُهُ إِلَى الدِّين وَتَكْذِيبُهُ الْيَهُودَ

وَكَذَّبَ الْيَهُودَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا تَخَيَّلُوهُ وَغَلَوْا فِيهِ ، وَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّهُ اللّٰهُ ، وَأَحَلُّوا مَا حَرَّمَهُ اللّٰهُ ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ رُوحِ الدِّينِ وَلُبَابِهِ ، وَأَصْلِهِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَالْحُبِّ لِلّٰهِ حُبًّا يَغْلِبُ عَلَىٰ كُلِّ حُبٍّ ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الإِنْسَانِيَّةِ وَاحْتِرَامِهَا ، وَالْمُوَاسَاةِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ ، وَرَفْضِ كُلِّ مَا دَخَلَ عَلَىٰ دِينِ الأَنْبِيَاءِ مِنْ عَادَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ ، وَعَقَائِدَ بَاطِلَةٍ .

١١- اليَهُودُ يَنْصِبُونَ لَهُ الْحَرْبَ

وَشَقَّ كُلُّ ذٰلِكَ عَلَى الْيَهُودِ، وَنَصَبُوا لَهُ الْحَرْبَ. وَرَمَوْهُ عَنْ قَوْسٍ وَّاحِدَةٍ، وَّرَشَقُوهُ بِالتُّهَمِ وَالْقَذَائِفِ، وَتَنَاوَلُوهُ بِالسَّبِّ الْقَبِيحِ وَالْقَوْلِ الْبَذِيِّ، وَتَنَاوَلُوا أُمَّهُ مَرْيَمَ الْبَتُولَ بِالْقَذْفِ وَالطَّعْنِ، وَعَاكَسُوهُ وَطَارَدُوهُ، وَأَمَاجُوا لَهُ الْأَوْبَاشَ، وَسَدُّوا فِي وَجْهِهِ الطُّرُقَ.

١٢- قِصَّةُ عِيسَىٰ فِي الْقُرْآنِ

ثُمَّ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَالتَّخَلُّصَ مِنْهُ، فَحَمَاهُ اللّٰهُ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ وَكَرَّمَهُ، اِقْرَؤُوا قِصَّتَهُ فِي الْقُرْآنِ:

«إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَّمِنَ الصّٰلِحِينَ ۝ قَالَتْ: رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ

لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ : كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا
يَشَآءُ ، إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُن فَيَكُونُ ۝ وَيُعَلِّمُهُ
الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ
إِسْرَآئِيلَ ۝ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ
لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ
اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ
وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ
مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ،
وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ
اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ فَلَمَّا
أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى اللَّهِ ۖ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا
مَعَ الشَّٰهِدِينَ ۝ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ ،
«إِذْ قَالَ اللَّهُ : يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ
الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ ز وَمَا لَهُمْ
مِّن نّٰصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ اٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظّٰلِمِينَ ۝ ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ
مِنَ الْاٰيٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ
كَمَثَلِ اٰدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُن فَيَكُونُ،
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝»

١٣- سِيرَتُهُ ودَعْوَتُهُ
فِي الْقُرْآنِ

وَاقْرَأُوا وَصْفَهُ تَعَالَىٰ لِسِيرَتِهِ وَدَعْوَتِهِ، فِي قَوْلِهِ:
«قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ۖ اٰتٰنِيَ الْكِتٰبَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبٰرَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ص وَأَوْصٰنِي بِالصَّلٰوةِ
وَالزَّكٰوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوٰلِدَتِي ز وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝
وَالسَّلٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝».

١٤- صِرَاعٌ قَدِيمٌ

وَوَقَعَ لِسَيِّدِنَا عِيسَىٰ مَا وَقَعَ لِلأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، فَابْتَعَدَ عَنْهُ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ، وَهَجَرَهُ الأَغْنِيَاءُ وَالأَقْوِيَاءُ، وَرَأَوْا فِي الإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ غَضَاضَةً وَعَيْبًا، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ التَّنَازُلُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، مِنْ رِئَاسَةٍ وَزَعَامَةٍ، وَامْتِيَازٍ وَسِيَادَةٍ، وَصَدَقَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝ وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝».

١٥- إِيمَانُ عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ

وَلَمَّا يَئِسَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ، وَشَاهَدَ فِيهِمُ الْعِنَادَ وَالْكُفْرَ، وَرَأَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ جَحَدُوا بِمَا جَاءَ بِهِ، مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمُعْجِزَاتٍ بَاهِرَاتٍ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، وَاسْتَصْغَرُوهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ حَوْلٍ وَطَوْلٍ، أَقْبَلَ

عَلَىٰ عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ ، وَقَدْ لَانَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَصَفَتْ نُفُوسُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ بِكَدِّ يَمِينِهِمْ وَعَرَقِ جَبِينِهِمْ ، لَا يَتَفَاخَرُونَ بِنَسَبٍ ، وَلَا يَتَطَاوَلُونَ بِجَاهٍ وَمَنْصِبٍ ، فَآمَنَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ، فِيهَا الْقَصَّارُونَ ، وَفِيهَا صَيَّادُو الْأَسْمَاكِ ، وَفِيهَا أَهْلُ الْحِرَفِ وَالْمِهَنِ .

١٦- نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ

فَآمَنُوا بِالْمَسِيحِ ، وَالْتَفُّوا حَوْلَهُ ، وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ ، وَقَالُوا : «نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ» يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

«فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى اللّٰهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ ج آمَنَّا بِاللّٰهِ ج وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّٰهِدِينَ ۝» .

١٧- سِيَاحَتُهُ وَدَعْوَتُهُ

وَكَانَ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ يَقْضِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ فِي

السِّيَاحَةِ ، وَالْاِنتِقَالِ مِنْ مَّكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، يَدْعُو بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ اللّٰهِ ، وَيَهْدِي خِرَافَهُمُ الضَّالَّةَ إِلَىٰ رَبِّهَا وَ سَيِّدِهَا ، وَيَتَّفِقُ لَهُ فِي هٰذِهِ الْجَوْلَاتِ وَالرِّحْلَاتِ الْيُسْرُ وَالْعُسْرُ ، وَالضِّيقُ وَالرَّخَاءُ ، وَيَتَحَمَّلُ ذٰلِكَ صَابِرًا ، وَيَقْبَلُ هٰذَا شَاكِرًا ، وَيَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوعِ ، وَيَجْتَزِئُ بِمَا يَسُدُّ الرَّمَقَ .

١٨- الحَوَارِيُّونَ

يَطْلُبُونَ مَائِدَةَ السَّمَاءِ

أَمَّا الْحَوَارِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا بِـمَـنْزِلَتِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ وَالتَّقَشُّفِ وَالزَّهَادَةِ ، وَأَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِّنْ ذٰلِكَ ، فَطَلَبُوا مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ أَنْ يَّسْأَلَ اللّٰـهَ أَنْ يُنْزِلَ لَهُمْ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَشْبَعُونَ بَعْدَ جُوعٍ ، وَيَنْعَمُونَ بَعْدَ عَنَاءٍ .

١٩- سُوءُ أَدَبٍ

وَلَمْ يَكُونُوا مُتَأَدِّبِينَ فِي سُؤَالِهِمْ ، فَقَالُوا : «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ»

وَلَمْ يُعْجِبْ عِيسَىٰ سُؤَالُهُمْ ، وَكَرِهَ الْأُسْلُوبَ الَّذِي خَاطَبُوا بِهِ . وَالْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا يُطَالِبُونَ أُمَمَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ، وَيُكَلِّفُونَهَا إِيَّاهُ ، وَلَيْسَتِ الْمُعْجِزَاتُ مَخَارِيقَ يُسَلَّىٰ بِهَا الْأَطْفَالُ ، وَيُلْهَىٰ بِهَا الْأَغْمَارُ ، وَإِنَّمَا هِيَ آيَاتٌ مِّنَ اللّٰهِ يُظْهِرُهَا عَلَىٰ أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ حِينَ يَشَاءُ ، وَتَقُومُ بِهَا حُجَّةُ اللّٰهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ ، فَلَا يُمْهَلُونَ بَعْدَ ظُهُورِهَا وَإِنْكَارِهَا.

٢٠- تَحْذِيرُ قَوْمِهِ
مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

لِذٰلِكَ خَافَ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ امْتِحَانِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ ؛ فَهُوَ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ مِنْ ذٰلِكَ .

٢١- إِلْحَاحٌ وَإِصْرَارٌ

وَلٰكِنَّ الْحَوَارِيِّينَ تَشَبَّثُوا بِسُؤَالِهِمْ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ جَادُّونَ فِي هٰذَا السُّؤَالِ ، لَا يَقْصِدُونَ امْتِحَانًا ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ اطْمِئْنَانًا ، وَلِيَكُونَ ذٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِّلْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ ،

وَقِصَّةً تُحْكَىٰ وَتُرْوَىٰ عَلَىٰ مَرِّ الْأَيَّامِ، فَتَكُونُ دَلِيلاً عَلَىٰ صِدْقِ هٰذَا الدِّينِ، وَمَنْزِلَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِينَ، وَالْحَوَارِيِّينَ الصَّادِقِينَ .

٢٢- الْقُرْآنُ يَحْكِي الْقِصَّةَ

وَ دَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ :

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ۖ قَالَ: اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ○ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِينَ ○ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّٰهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَاٰخِرِنَا وَاٰيَةً مِّنْكَ ج وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّٰزِقِينَ ○ قَالَ اللّٰهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ج فَمَنْ يَّكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعٰلَمِينَ ○﴾

٢٣ - اليَهُودُ يُحَاوِلُونَ التَّخَلُّصَ مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ

وَعِيلَ صَبْرُ اليَهُودِ ، وَفَاضَتْ كَأْسُ عِدَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَأَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ ، فَرَفَعُوا قَضِيَّتَهُ إِلَىٰ الحَاكِمِ الرُّومِيِّ وَقَالُوا : إِنَّهُ رَجُلٌ ثَائِرٌ فَوْضَوِيٌّ مَرَقَ مِنْ دِينِنَا ، وَاسْتَهْوَىٰ شَبَابَنَا ، فَفُتِنُوا بِهِ ، وَفَرَّقَ أَمْرَنَا ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا ، وَشَغَلَ بَالَنَا .

٢٤ - أُسْلُوبُ النَّاقِمِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ

وَهُوَ خَطَرٌ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ ، لَا يَخْضَعُ لِنِظَامٍ ، وَلَا يَتَقَيَّدُ بِقَانُونٍ ، وَلَا يُعَظِّمُ عَظِيمًا ، وَلَا يُقَدِّسُ قَدِيمًا ، وَهُوَ رَجُلٌ ثَوْرِيٌّ ، إِذَا لَمْ يُكْفَ شَرُّهُ فَإِنَّهُ يَتَفَاقَمُ ، وَلَا تُسْتَصْغَرُ الشَّرَارَةُ مَهْمَا كَانَتْ تَافِهَةً .

٢٥ - مَكْرٌ وَدَهَاءٌ

وَكَانَ كَلَامًا مَمْلُوءًا بِالْمَكْرِ وَالدَّهَاءِ ، مَصْبُوغًا

بِالصِّبْغَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَكَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الْجَانِبَ الدِّينِيَّ لَا يُثِيرُ الْحُكَّامَ وَلَا يُهِيجُهُمْ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ سِيَاسَتِهِمْ أَنْ لَّا يَتَدَخَّلُوا فِي أُمُورِ الْيَهُودِ الدِّينِيَّةِ ، وَلِذٰلِكَ خَلَطُوا الْكَلَامَ بِالسِّيَاسَةِ .

٢٦- مُشْكِلَةٌ

وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَّتَحَقَّقَ الْحُكَّامُ الْأَجَانِبُ الْمُشْرِكُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ ، وَيَعْرِفُوا أَغْرَاضَ الْيَهُودِ ، وَسَبَبَ عِدَائِهِمْ لِلْمَسِيحِ ، وَكَانُوا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ ذٰلِكَ بِالْأُمُورِ الْإِدَارِيَّةِ ، وَلٰكِنِ اشْتَدَّ إِلْحَاحُ الْيَهُودِ ، وَطَالَ تَرَدُّدُهُمْ فَأَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ حَدِيثَ الْبَلَدِ .

٢٧- سَيِّدُنَا الْمَسِيحُ فِي الْمَحْكَمَةِ

وَكَانَ ذٰلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ وَكَانَ الْيَهُودُ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا يَوْمَ السَّبْتِ ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ وَّكَفٍّ عَنِ الْعَمَلِ ، فَكَانُوا حَرِيصِينَ كُلَّ الْحِرْصِ

عَلَىٰ أَنْ يَصْدُرَ الْحُكْمُ قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ أَمْرِ الْمَسِيحِ ، فَيَنَامُوا هَادِئِي الْبَالِ ، وَ يُصْبِحُوا نَاعِمِي الْبَالِ ، لَا يُزْعِجُهُمْ شَيْءٌ .

وَقَدْ ضَاقَ الْحَاكِمُ بِالْقَضِيَّةِ ذَرْعًا ، وَلَيْسَتْ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ وَلَا لِأُمَّتِهِ فِيهَا مَصْلَحَةٌ ، وَقَدِ احْتَشَدَ الْيَهُودُ لِسَمَاعِ الْحُكْمِ ، وَهُمْ بَيْنَ صَائِحٍ وَهَاتِفٍ ، وَمُتَنَدِّرٍ وَمُتَهَكِّمٍ ، وَالْحَاكِمُ مُتَضَايِقٌ ، وَالْوَقْتُ قَصِيرٌ ، وَالشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ لِلْغُرُوبِ ، فَأَصْدَرَ الْحُكْمَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ صَلْبًا .

٢٨- الْقَانُونُ الْجِنَائِيُّ
فِي ذٰلِكَ الْعَصْرِ

وَكَانَ الْقَانُونُ الْجِنَائِيُّ فِي ذٰلِكَ الْعَصْرِ يُوجِبُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِالشَّنْقِ ، صَلِيبَهُ الَّذِي يُصْلَبُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ الْمَشْنَقُ بَعِيدًا كَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الْبِلَادِ الْمُتَمَدِّنَةِ ، وَكَانَ الْجَمْعُ حَاشِدًا يَتَسَاقَطُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَكَانَ رِجَالُ الشُّرْطَةِ - وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ

الْأَجَانِبِ - مَأْمُورِينَ مُوَظَّفِينَ لَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَكَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ أَشْبَاهًا عِنْدَهُمْ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ، فَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَهُمْ ، شَأْنَ الْأَجَانِبِ فِي نَظَرِ الْأَجَانِبِ ، وَ كَانَ الْوَقْتُ مَسَاءً قَدْ مَدَّ الظَّلَامُ رُوَاقَهُ ، وَكَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ وَالْمُتَحَمِّسِينَ السُّفَهَاءِ مِنَ الشَّبَابِ يَنْهَالُونَ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ، وَيَتَدَافَعُونَ عَلَيْهِ ، يَسُبُّونَهُ ، وَيُعَيِّرُونَهُ ، وَيُرِيدُونَ إِيذَاءَهُ وَإِهَانَتَهُ .

٢٩- عِيسَىٰ يَتَحَمَّلُ الْأَذَىٰ

وَكَانَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ لَاغِبًا ، قَدْ أَضْنَاهُ الْجُهْدُ، وَطُولُ الْوُقُوفِ فِي الْمَحْكَمَةِ ، وَتَحَمُّلُ الْأَذَىٰ، وَكَانَ الصَّلِيبُ ثَقِيلًا، وَقَدْ كُلِّفَ حَمْلَهُ ، فَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسْرِعَ فِي الْمَشْيِ.

٣٠- تَدْبِيرٌ إِلٰهِيٌّ

وَهُنَا أَمَرَ الشُّرْطِيُّ الْمُوَكَّلُ بِهِ ،شَابًّا إِسْرَائِيلِيًّا

بِحَمْلِ الْعُودِ ، وَكَانَ أَشَدَّ زُمَلَائِهِ حَمَاسَةً ، وَأَكْبَرَهُمْ سَفَاهَةً ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَىٰ إِيذَاءِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ، وَ مُبَادَرَةً لَهُ ، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ سَرِيعًا ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ هٰذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُرْهِقَةِ .

٣١- وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَهٰكَذَا وَصَلَ الْمَوْكِبُ إِلَىٰ بَابِ الْمَشْنَقِ ، فَتَقَدَّمَ شُرْطَةُ الْمَشْنَقِ ، وَتَسَلَّمُوا الْأَمْرَ مِنَ الشُّرْطَةِ الْمَدَنِيِّينَ ، وَرَأَوُا الشَّابَّ يَحْمِلُ الصَّلِيبَ ، وَاخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ ، وَكَثُرَ الضَّجِيجُ ، فَأَخَذَ بِيَدِ الشَّابِّ الْحَامِلِ لِلصَّلِيبِ ، وَهُوَ لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهُ هُوَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِالصَّلْبِ ، وَهُوَ يَصِيحُ وَيَضِجُّ ، وَيُعْلِنُ بَرَاءَتَهُ وَأَنَّهُ لَا شَأْنَ لَهُ بِالْحُكْمِ وَالصَّلْبِ ، وَإِنَّمَا كُلِّفَ حَمْلَ الْعُودِ سُخْرَةً وَظُلْمًا ، وَشُرْطَةُ الْمَشْنَقِ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ ذٰلِكَ ، وَلَا يَفْهَمُونَ لُغَتَهُ ، لِأَنَّهُمْ مِنَ الرُّومِ وَالْيُونَانِ الْأُمَّةِ الْحَاكِمَةِ .

٣٢- تَنْفِيذُ حُكْمٍ

وَكُلُّ مُجْرِمٍ يَتَنَصَّلُ مِنْ جَرِيمَتِهِ، وَكُلُّ مُجْرِمٍ لَهُ صِيَاحٌ وَعَوِيلٌ، وَأَخَذُوهُ وَنَفَّذُوا فِيهِ الْحُكْمَ، وَالْيَهُودُ وَاقِفُونَ عَلَى بُعْدٍ، وَالدُّنْيَا لَيْلٌ وَظَلَامٌ، وَهُمْ يَظُنُّونَ كُلَّ الظَّنِّ أَنَّ الْمَصْلُوبَ هُوَ الْمَسِيحُ(١)!

٣٣- رَفْعُ عِيسَىٰ إِلَى السَّمَاءِ

أَمَّا سَيِّدُنَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ فَقَدْ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مُكَرَّمًا مُطَهَّرًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

٣٤- الْقُرْآنُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْقِصَّةِ

وَذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْيَهُودِ:

---

(١) استندنا فى تفاصيل هذه القصة، والملابسات والأجواء التى أحاطت بها، إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية التى ظهرت ودُوّنت في العصر الأخير

«وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝» .

وَهُوَ فِي السَّمَاءِ كَمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهُ عَجَبًا ، وَحَيَاتُهُ عَجَبًا ، وَأَمْرُهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ عَجَبٌ ، خَارِقٌ لِّلْعَادَةِ ، مُثْبِتٌ لِّلْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ .

٣٥- نُزُولُ عِيسَىٰ عِنْدَ الْقِيَامَةِ

وَسَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حِينَ يُرِيدُهُ اللَّهُ ، وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَىٰ مَنْ فَرَّطُوا فِيهِ وَأَفْرَطُوا ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ ، وَيَنْصُرُ الْحَقَّ ، وَيَكْبِتُ أَهْلَ الْبَاطِلِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ

وَالأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ ، وَاعْتَقَدَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَصَدَقَ اللّٰهُ الْعَظِيمُ :

«وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» .

٣٦- بِشَارَتُهُ بِبِعْثَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَلَمْ يُكْمِلْ سَيِّدُنَا الْمَسِيحُ مُهِمَّتَهُ فِي الدَّعْوَةِ لِشِدَّةِ مُحَارَبَةِ الْيَهُودِ وَكَيْدِهِمْ لَهُ ، وَضَعْفِهِ وَقِلَّةِ أَنْصَارِهِ، فَوَدَّعَ النَّاسَ ،وَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ ، وَبَشَّرَ النَّاسَ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ ،يُكْمِلُ مَا بَدَأَهُ، وَيُعَمِّمُ مَا خَصَّصَهُ، وَبِهِ تَتِمُّ نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَتَقُومُ حُجَّتُهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يٰبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» .

٣٧- مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ إِلَىٰ عَقِيدَةٍ غَامِضَةٍ

وَمِنْ غَرَائِبِ تَارِيخِ الْأَدْيَانِ ، وَمِمَّا تَدْمَعُ لَهُ

الْعُيُونُ، وَتَذُوبُ لَهُ الْقُلُوبُ، أَنَّهُ تَحَوَّلَتْ دَعْوَةُ الْمَسِيحِ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالدِّينِ السَّهْلِ السَّائِغِ الْبَعِيدِ عَنْ كُلِّ غُمُوضٍ وَتَعْقِيدٍ، وَتَحْرِيفٍ وَتَأْوِيلٍ بَعِيدٍ، الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللّٰهِ وَحْدَهُ، وَالسُّؤَالِ مِنْهُ، وَالْاِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَحُبِّهِ الْخَالِصِ، إِلَى عَقِيدَةٍ غَامِضَةٍ، وَفَلْسَفَةٍ مُعَقَّدَةٍ، فَغَلَا فِيهِ أَتْبَاعُهُ وَأَطْرَوْهُ إِطْرَاءً خَرَجَ بِهِ مِنْ حُدُودِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى حُدُودِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ فَقَالُوا: «الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ». وَقَالُوا: «اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا». وَقَالُوا: «إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ». وَجَعَلُوا مِنَ الْإِلٰهِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، أُسْرَةً مُؤَلَّفَةً مِنْ ثَلَاثَةِ أَعْضَاءٍ، كُلُّهُمْ إِلٰهٌ؛ فَقَالُوا: الرَّبُّ وَالْإِبْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ، وَاعْتَقَدُوا فِي مَرْيَمَ أُمِّ الْمَسِيحِ، وَعَامَلُوهَا بِمَا يَبْلُغُ بِهَا إِلَى دَرَجَةِ التَّقْدِيسِ وَالْعِبَادَةِ؛ فَقَالُوا: «أُمُّ اللّٰهِ». وَشَاعَتْ لَهَا تَمَاثِيلُ وَصُوَرٌ فِي الْكَنَائِسِ، يَخْضَعُ لَهَا النَّصَارَى بِاللُّجُوءِ وَالدُّعَاءِ، وَالنَّذْرِ وَالْاِنْحِنَاءِ، وَقَدْ قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى مُنْكِرًا مَا اعْتَقَدُوهُ، مُسْتَبْشِعًا مَا فَعَلُوهُ:

«مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝» .

٣٨- عِيسَىٰ يَدْعُو
إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ

وَقَدْ دَعَا كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ؛ فَجَاءَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْإِنْجِيلِ : «مَكْتُوبٌ لِلرَّبِّ إِلٰهِكَ تَسْجُدُ ، وَلَهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (متى ٤: ١٠) وَقَوْلُهُ: «مَكْتُوبٌ لِلرَّبِّ إِلٰهِكَ تَسْجُدُ ، وَلَهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (لوقا ٤: ٨) وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ :

«مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ

وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥﴾.

٣٩- القُرْآنَ يُصَرِّحُ بِدَعْوَةِ عِيسَىٰ

وَقَدْ نَقَلَ الْقُرْآنُ - وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُصَدِّقُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ - مِنْ إِعْلَانِ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، فِي أُسْلُوبٍ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ: يٰبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوٰهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٥﴾».

٤٠- مَنْزِلَةُ التَّوْحِيدِ فِي دَعْوَتِهِ

وَقَالَ فِي أُسْلُوبٍ جَمِيلٍ بَلِيغٍ يَتَذَوَّقُهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَ مَنْزِلَةَ التَّوْحِيدِ وَسِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ،

وَمَا طُبِعُوا عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرَّهْبَةِ مِنْهُ:

«لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

٤١- مَشْهَدٌ رَائِعٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرْآنُ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِعْجَازِهِ، مَشْهَدًا مِّنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ الرَّائِعَةِ، يَتَبَرَّأُ فِيهِ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ عَمَّا تَقَوَّلَهُ النَّاسُ فِيهِ، وَعَامَلُوهُ بِهِ، وَيُوضِحُ دَعْوَتَهُ فِي قُوَّةٍ وَصِدْقٍ، وَيُدِينُ فِي هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الْغُلَاةَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْمَسْئُولُونَ

وَخذهُم عَنْ هٰذِهِ الْجَرِيمَةِ ، اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ ، وَاسْتَشْعِرُوا جَلَالَ الْمَوْقِفِ وَرَوْعَةَ الْمَشْهَدِ :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ، قَالَ : سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ج وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ج فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ج وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ اللَّهُ : هٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾.

٤٢ - مِنْ عَقِيدَةٍ غَامِضَةٍ إِلَىٰ وَثَنِيَّةٍ سَافِرَةٍ

وَانْتَقَلَ دُعَاةُ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَىٰ أُورُبَّا بِدَافِعٍ مِّنْ عِنْدِهِمْ(١) وَقَدْ شَاعَتْ فِيهَا الْوَثَنِيَّةُ السَّافِرَةُ مِنْ زَمَانٍ، وَغَاصَتْ فِيهَا إِلَىٰ الْأَذْقَانِ، فَكَانَ الْيُونَانُ وَثَنِيِّينَ، وَقَدْ تَصَوَّرُوا صِفَاتِ اللّٰهِ فِي شَكْلِ آلِهَةٍ شَتَّىٰ، نَحَتُوا لَهَا تَمَاثِيلَ، وَبَنَوْا لَهَا مَعَابِدَ وَهَيَاكِلَ؛ فَلِلرِّزْقِ إِلٰهٌ، وَلِلرَّحْمَةِ إِلٰهٌ، وَالْقَهْرِ إِلٰهٌ، وَكَانَتِ الرُّومِيَّةُ عَرِيقَةً فِي الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْخُرَافَاتِ، وَقَدِ امْتَزَجَتِ الْوَثَنِيَّةُ بِلَحْمِهَا وَدَمِهَا، وَجَرَتْ مِنْهَا مَجْرَىٰ الرُّوحِ وَالدَّمِ، وَكَانَ الرُّومَانُ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّىٰ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِمُ النَّصْرَانِيَّةُ، وَتَنَصَّرَ قِسْطِنْطِينُ الْكَبِيرُ سَنَةَ ٣٠٦م، وَاحْتَضَنَ الدِّينَ الْجَدِيدَ وَتَبَنَّاهُ وَجَعَلَهُ دِينَ الدَّوْلَةِ الرَّسْمِيَّ، بَدَأَتِ النَّصْرَانِيَّةُ تَأْخُذُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ الرُّومِيَّةِ وَالْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، وَتَدْنُو إِلَيْهَا رُوَيْدًا رُوَيْدًا،

(١) لأن المسيح لم يأمرهم بذلك، فقد صرّح بأنه أرسل لخراف إسرائيل الضالة.

وَصَارَتْ تَفْقِدُ أَصَالَتَهَا النَّبَوِيَّةَ ، وَبَسَاطَتَهَا الشَّرْقِيَّةَ ، وَحَمَاسَتَهَا التَّوْحِيدِيَّةَ ، وَدَخَلَ فِيهَا بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ فَطَعَّمُوهَا بِعَقَائِدِهِمُ الْقَدِيمَةِ وَذَوْقِهِمُ الْوَثَنِيِّ ، وَنَشَأَ مِنْ ذٰلِكَ دِينٌ جَدِيدٌ ، تَتَجَلَّىٰ فِيهَا النَّصْرَانِيَّةُ وَالْوَثَنِيَّةُ سَوَاءً بِسَوَاءٍ .

وَكَذٰلِكَ سَارَتِ النَّصْرَانِيَّةُ الزَّاحِفَةُ الْفَاتِحَةُ عَلَىٰ دَرْبٍ غَيْرِ الدَّرْبِ الَّذِي سَلَكَ الْمَسِيحُ بِهَا عَلَيْهِ ، وَدَعَا إِلَيْهِ ، وَكَانَتْ كَسَالِكِ طَرِيقٍ يَضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ - عَنْ قَصْدٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ - فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ ، فَيُوَاصِلُ سَيْرَهُ عَلَىٰ طَرِيقٍ لَا يَلْتَقِي بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِ إِلَىٰ الْأَخِيرِ .

وَلِهٰذِهِ الْحِكْمَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا مَنْ قَرَأَ تَارِيخَ هٰذِهِ الدِّيَانَةِ ، وَصَفَهُمُ اللّٰهُ بِالضَّلَالِ حِينَ وَصَفَ الْيَهُودَ بِالْمَغْضُوبِيَّةِ ، فَقَالَ عَلَىٰ لِسَانِ الْمُسْلِمِينَ:

«اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝»

وَكَانَتْ فِي ذٰلِكَ مَأْسَاةٌ لِأُورُبَّا ، وَمَأْسَاةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي قَادَتْهَا أُورُبَّا زَمَنًا طَوِيلًا ، وَلَا تَزَالُ مُسَيْطِرَةً عَلَيْهَا وَمُتَحَكِّمَةً فِيهَا . «وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» .

العصر الجاهلي

بعد نبي الله عيسى بن مريم

طالت الفترة[1] ، وساد الظلام في العالم ، وغاب النور والعلم ، وخفتت الأصوات التي رفعها الأنبياء والمرسلون في عصورهم ، بالتوحيد النقي والدين الخالص ، في صيحات الجهل والضلالة التي صاح بها المحترفون والدجّالون ، وانطفأت المصابيح التي أوقدها أنبياء الله ورسله وخلفاؤهم ، من العواصف التي هبّت حيناً بعد حين .

(١) الفترة : الزمن الذي لم يبعث فيه نبي .

وأصبحت الديانات العظمى - وفي آخرها المسيحية السمحة - فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرِّفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بُعث أصحابها الأولون وأنبياؤها المرسلون أنكروها وتجاهلوها.

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس[1] وتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وهي بصرف النظر عن ذلك، ديانة سلالية لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، ولا للانسانية رحمة.

أما المسيحية فقد امتُحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، منذ عصرها الأول،

(١) النظم والطرق الدينية.

وأصبح كل ذلك ركاماً دُفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة ، واختفى نور التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب .

أما المجوس فقد عكفوا على عبادة النار ، يعبدونها ويبنون لها هياكل [1] ومعابد ، أما خارج المعابد فكانوا أحرارا ، يسيرون على هواهم وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق ، في الأعمال والأخلاق .

أما البوذية – الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى – فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل

(١) جمع هيكل وهو البناء المرتفع ، والموضع الذي يكون في صدر المعبد يقرّب فيه القربان .

وتنصب تماثيل « بوذا » حيث حلّت ونزلت .

أما البرهمية – دين الهند الأصيل – فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة حتى بلغت إلى الملايين ، وبالتفاوت الظالم بين الطبقات ، والامتياز بين الانسان والانسان .

أما العرب فقد ابتُلوا في العصر الأخير بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير الاّ في الهند البرهمية الوثنية ، وترقّوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، وانغمست[1] الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام ، بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنم خصوصيّ ، وكان في جوف الكعبة – البيت الذي بناه ابراهيم عليه

(١) غاصت ، ودخلت .

السلام لعبادة الله وحده – وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنما.

الجزيرة العربية

ساءت أخلاق العرب فأُولعوا بالخمر والقمار ، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات ، وشاعت فيهم الغارة ، وقطع الطريق على القوافل ، وسقطت منزلة المرأة ، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الانفاق ، وخوف الفقر والإملاق.

وأغرموا بالحرب ، وهانت عليهم إراقة الدماء ، فتثيرها حادثة تافهة ، وتدوم الحرب أربعين سنة ، ويقتل فيها ألوف من الناس.

ظهر الفساد في البر والبحر

وبالجملة فقد كانت الانسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار ، وكان الانسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ، وربما كان اقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه ، ويعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون [1] » .

لماذا بُعث النبي في جزيرة العرب ؟

وقد اختار الله العرب ، ليتلقّوا دعوة

(١) سورة الروم – ٤١ .

الاسلام ، ثم يبلغوها الى أبعد أنحاء العالم لأن ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم والفرس وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون[1] بعلومهم وآدابهم الراقية ، ومدنياتهم الزاهية[2] ، أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة ، ومن السهل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها .

وكانوا على الفطرة ، اذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، واذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه ، واستماتوا في

(١) يتكبّرون .
(٢) النضرة المشرقة .

سبيله ، وكانوا أصحاب صدق وأمانة ، وجلادة وتقشف في الحياة ، وشجاعة وفروسية .

وفي جزيرة العرب وفي مكة كانت الكعبة التي بناها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ليُعبد فيها الله وحده ، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد الى آخر الأبد .

« ان أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين[1] » .

(١) سورة آل عمران – ٩٦ .

قبل البعثة

مكة وقريش

قصد سيدنا ابراهيم مكة ، وهي في واد محصور بين جبال جرداء ليس فيه ما يعيش عليه الناس ، من ماء وزرع وميرة[1] ، ومعه زوجه هاجر وولده اسماعيل ، فراراً من الوثنية المنتشرة في العالم ، ورغبة في تأسيس مركز يعبد فيه الله وحده ويدعو الناس اليه ، ويكون مناراً للهدى ومثابة للناس .

تقبل الله هذا العمل ، وبارك في هذا

(١) الطعام الذي يدخره الانسان .

المكان ، وأجرى الله الماء لهذه الأسرة المباركة الصغيرة المؤلفة من أم وابن – وقد تركهما ابراهيم في هذا المكان القاحل[1] المنعزل عن العالم – وكان بئر « زمزم » وبارك الله في هذا الماء فلا يزال الناس يشربون منه ويحملونه الى أنحاء العالم .

ونشأ اسماعيل ، وأراد ابراهيم ذبح ابنه اسماعيل ، وهو غلام يسعى ، إيثاراً لحبّ الله تعالى على حبّه ، وتحقيقاً لما رآه في المنام ، واستسلم اسماعيل لهذا الأمر ، ورضي به ، وفداه الله بذِبح عظيم ليكون عون أبيه في الدعوة الى الله ، وليكون جدّ آخر نبي وأفضل رسل .

وعاد ابراهيم الى مكة ، واشترك الأب

(١) اليابس .

والابن في بناء بيت الله ، وكان دعاؤهما أن يتقبل الله هذا البيت ، ويبارك فيه ، وأن يعيشا على الاسلام ، ويموتا عليه ، ولا ينقطع بموتهما ، وأن يبعث الله نبياً من ذريتهما يجدّد دعوة جدّه إبراهيم ويُتمّ ما بدأه .

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتُب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم[1] » .

(١) سورة البقرة - ١٢٦ - ١٢٩

وبارك الله في ذريتهما ، وتوسّعت الأسرة ، وكثر أولاد عدنان ، وهو من أحفاد اسماعيل عليه السلام ، ونبغ في ذريته فهر بن مالك ، ومن أولاده قصيّ بن كلاب ، وقد ولى البيت وأمر مكة ، وكان سيداً مطاعا ، كانت اليه حجابة البيت ، وعنده مفاتيحه ، وسقاية زمزم ، والرفادة[1] ، والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة والرأي ، واللواء[2] في الحرب ، فحاز شرف مكة كله .

وتنبّل[3] في أولاده عبد مناف ، وكان

(١) الرفادة : طعام ، كانت قريش تجمع كل عام لأهل الموسم ويقولون هم أضياف الله تعالى

(٢) العلم دون الراية .

(٣) كان ذا نبل وذكاء وشرف .

هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف ، وكان كبير قومه ، وكانت عنده الرفادة والسقاية ، وهو والد عبد المطلب : جدّ الرسول ﷺ ، وقد ولي السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبّه قومه .

وسمّى أولاد فهر بن مالك « قريشاً » ، وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ « قريش » وأقرّ أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش ، والسيادة ، وفصاحة اللغة ، ونصاعة[1] البيان ، وكرم الأخلاق ، والشجاعة ، وصار ذلك مثلا ، لا يقبل نقاشاً ولا جدلا .

---

(١) صفاء ووضوح .

ظهور الوثنية في مكة وقريش

وبقيت قريش متمسكة بدين ابراهيم الخليل ، وبدين جدّها اسماعيل ، متمسكة بعقيدة التوحيد ، وبعبادة الله وحده ، حتى نشأ فيهم عمرو بن لحيّ ، فكان اول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وأحدث في الحيوانات من التعظيم والتسييب[1] والتحريم ما لم يأذن به الله ، ولم تعرفه شريعة ابراهيم ، وكان قد خرج من مكة الى الشام ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، ففُتن بها ، وجلب بعضها الى مكة ، فنصبها ، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها .

وتدرّج بعضهم من تعظيم حجارة الحرم

(١) التسييب هو نذر للآلهة فتُترك ولا تُركب

التي كانوا يحملونها معهم اذا ظعنوا[1] من مكة ، تعظيماً للحرم ، ومحافظة على ذكراه ، الى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم .

حادثة الفيل

وقع حادث عظيم ، كان دليلا على ظهور حادث أكبر ، وعلى أن الله يريد بالعرب خيراً ، وأن للكعبة شأناً ليس لغيرها من بيوت الدنيا .

وكان من خبره أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي (ملك الحبشة) على اليمن بنى بـ « صنعاء » كنيسة عظيمة ، سمّاها « القُلَّيس » ، وأراد أن يصرف اليها حج العرب وغار على

(١) رحلوا .

الكعبة أن تكون مثابة للناس ، يشدّون اليها الرحال ، ويأتون من كل فجّ عميق ، وأراد أن يكون هذا المكان لكنيسته .

وعزّ ذلك على العرب الذين رُضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها ، لا يعدلون بها بيتا ، ولا يرون عنها بديلا ، وشغلهم ذلك ، وتحدّثوا به ، فخرج كنانى ، ودخل الكنيسة وأحدث فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ الى البيت حتى يهدمه .

ثم سار وخرج معه بالفيل ، وتسامعت به العرب ، فنزل عليهم كالصاعقة ، وأعظموه وفزعوا له ، وأرادوا كفّه عن ذلك ومحاربته ، فرأوا أن لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده ، فوكلوا الأمر الى الله تعالى ، وكانوا على ثقة

بأن للبيت ربّاً سيحميه ، يدلّ على ذلك ما دار بين سيد قريش – عبد المطلب ، جدّ الرسول ﷺ – وأبرهة ، من حوار ، وقد أصاب له أبرهة مأتى بعير ، فاستؤذن له عليه ، وقد أعظمه أبرهة ، ونزل له عن سريره ، فأجلسه معه ، وسأله عن حاجته ، فقال : حاجتي أن يردّ عليّ الملك مأتى بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك ، زهد فيه الملك واستهان به ، وقال : أتكلمني في مأتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟ .

قال له عبد المطلب : اني أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه .

قال : ما كان ليمتنع مني .

قال : أنت وذاك .

وانحازت[1] قريش الى شعف[2] الجبال والشعاب ، تخوّفاً عليهم من معرة[3] الجيش ، ينظرون ماذا سيصنع الله بمن اعتدى على حرمته ، وقام عبد المطلب ومعه نفر من قريش ، فأخذوا بحلقة باب الكعبة ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده .

وأصبح أبرهة متهيئاً لدخول مكة ، وهو مجمع لهدم البيت ، وهيأ فيله ، وكان

(١) لجأت وأوت .

(٢) جمع شعفة : رأس الجبل .

(٣) معرة الجيش أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زرعهم شيئا بغير علم ، أو يحدثوا تلفا .

اسم الفيل « محمودا » وبرك الفيل في طريق مكة ، وضربوا الفيل ليقوم ، فأبى ، ووجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول .

هناك أرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر ، مع كل طائر منها أحجار يحملها ، لا تصيب منهم أحداً الاّ هلك ، وخرج أهل الحبشة هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا ، وخرجوا يتساقطون بكل طريق ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، تسقط أزامله أنملة أنملة ، حتى قدموا به « صنعاء » ، فمات شر ميتة .

وذلك ما حكاه القرآن يقول : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً

أبابيل[١] ، ترميهم بحجارة من سجّيل[٢]، فجعلهم كعصف[٣] مأكول[٤] » .

فلما رد الله الحبشة من مكة ، وأصابهم ما أصاب ، أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدوّ .

واستعظم العرب هذا الحادث ، وكان جديراً بذلك ، فأرّخوا به ، وقالوا : وقع هذا في عام الفيل ، وولد فلان في عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من

(١) الأبابيل : الجماعات .
(٢) السجّيل : الشديد الصلب .
(٣) ورق الزرع .
(٤) سورة الفيل : ١ — ٥ .

السنين ، وعام الفيل يصادف سنة ٥٧٠ م .

عبد الله وآمنة

وكان لعبد المطلب – سيد قريش – عشرة أبناء ، وعبد الله واسطة العقد ، وزوّجه أبوه « آمنة » بنت وهب سيد بني زهرة ، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً .

ولم يلبث عبد الله أن مات – وأم رسول الله ﷺ – حامل به – وقد رأت من الآثار والآيات ما يدلّ أن لابنها شأناً .

ولادته الكريمة ونسبه الزكي

وولد رسول الله ﷺ ، يوم الاثنين : اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ،

عام الفيل (٥٧٠ المسيحي) ، فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن معدّ بن عدنان ، وينتهي نسب عدنان الى سيدنا اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام .

فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت الى جده : عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأتاه ، فنظر اليه ، وحمله ، ودخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ، ويحمده ، وسمّاه محمّداً ، وكان هذا الاسم غريباً ، فتعجّب منه العرب .

رضاعته ﷺ

والتمس عبد المطلب لحفيده اليتيم ، الذي كان أحب أولاده اليه مرضعاً من البادية على عادة العرب ، وأدركت حليمةَ السَعديّةَ هذه السعادةُ ، وكانت خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء وكان العام عام جدب ، وهم في ضيق وشدة ، وعرض رسول الله ﷺ على جميع المراضع فزهدن فيه ، وذلك لأنهن كن يرجون المعروف من أبي الصبيّ ، فقلن : يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟ .

وهكذا فعلت حليمة ، فانصرفت عنه أول مرة ، ثم انعطف قلبها عليه ، وألهمها الله حبه ، وأَخْذَه ، ولم تكن وجدت غيره ،

فرجعت اليه فأخذته ، وذهبت به الى رحلها ولمست البركة بيدها ، فكان لكل شيء في رحلها شأن غير الشأن ، ورأت البركة في اللبان[١] والألبان[٢] ، والشارف[٣] والأتان[٤] ، وكل يقول : لقد أخذت يا حليمة نسمة مباركة ، وحسدتها صواحبها .

ولم تزل تتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان في بني سعد ، وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، وقدمت به ﷺ ، على أمه ، وطلبت أن تتركه عندها

(١) اللبان بفتح اللام : الصدر أو ما بين الثديين .
(٢) جمع لبن .
(٣) الناقة المسنة الهرمة ، ج شرف بضم الأول وفتح الثاني مع التشديد .
(٤) الحمارة ، ج أتن بضمتين .

بعض الوقت ، فردّته اليها .

وجاءه ملكان ، وهو في بني سعد ، فشقا بطنه ، واستخرجا من قلبه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبه ، حتى أنقياه ، وردّاه كما كان .

ورعى رسول الله ﷺ الغنم مع اخوته من الرضاعة ، ونشأ على البساطة والفطرة ، وحياة البادية السليمة ، واللغة الفصيحة ، التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر ، وكان أليفاً ودودا ، أحبه اخوته وأحبهم .

ثم عاد الى أمه وجدّه ، وقد أنبَتَهُ الله نباتاً حسنا .

وفاة آمنة وعبد المطلب

فلما بلغ ست سنين ، توفيت آمنة بـ

« الأبواء » بين مكة والمدينة ، فكان مع جده ، وكان به حفيًّا ، يجلسه على فراشه في ظل الكعبة ويلاطفه .

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين مات عبد المطلب .

مع عمّه أبي طالب

فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب ، وهو أخو عبد الله من أب وأم ، وكان عبد المطلب يوصيه به ، فكان اليه ومعه ، وكان أرفق به وأكثر حدباً [1] عليه من أبنائه .

(١) عطفاً عليه .

التربية الآلهية

وشب رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى ، بعيداً من أقذار الجاهلية وعاداتها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والبذاءة ، حتى ما أسموه في قومه الاّ « الأمين » وكان واصلا للرحم ، حاملا لما يثقل كواهل الناس ، مكرماً للضيف ، عوناً على البر والتقوى ، وكان يأكل من نتيجة عمله ، ويقنع بالقوت .

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش وبين قيس ، وشهد رسول الله ﷺ بعض

أيامه ، وكان ينبّل[1] على أعمامه وبذلك عرف الحرب ، وعرف الفروسية والفتوة .

زواجه ﷺ من خديجة

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة ، تزّوج خديجة بنت خويلد[2] وهي من سيدات قريش وفضليات النساء ، رجاحة عقل ، وكرم أخلاق ، وسعة مال ، وكانت أرملة ، توفي زوجها أبو هالة ، وكانت اذ ذاك في الأربعين من سنها ، ورسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره .

وكانت خديجة امرأة تاجرة تستأجر

(١) ينبّل : يعني كان يردّ عليهم نبل عدوّهم اذا ما رماهم بها .
(٢) خويلدٌ : بضم الأول وفتح الثاني ، وسكون الثالث وكسر الرابع .

الرجال في مالها ، وتضاربهم[1] بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارا ، وقد كانت اختبرت صدق حديث رسول الله ﷺ وكرم أخلاقه ، ونصيحته ، حين خرج في مال لها الى الشام تاجرا ، وبلغها من كبر شأنه في هذه الرحلة ، فعرضت عليه نفسها ، وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش ، وخطبها اليه عمه حمزة ، وخطب أبو طالب الخطبة ، فكان الزواج .

وكانت أول امرأة تزوّجها رسول الله ﷺ ، وولدت له اولاده كلهم الا ابراهيم .

(١) المضاربة هي أن تعطى مالا لمن يتجر فيه بسهم معلوم من الربح .

قصة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وقد أرادوا ذلك ليسقّفوها ، وكانت حجارة بعضها على بعض ، من غير طين يركب بعضها ببعض ، وكانت فوق القامة ، وكان لا بد من هدم وبناء جديد .

فلما بلغ البنيان موضع الركن ، اختصموا في الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى ، وكل قبيلة تريد أن يكون لها هذا الشرف ، حتى آل الأمر الى الحرب ، وكانت في أهون من هذا بكثير في الجاهلية .

وأعدّوا للقتال ، وقرّبت بنو عبد الدار[1] جفنة[2] مملوءة دما ، وتعاقدوا هم وبنو عديّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة .

وكانت آية الموت والشر ، ومكثت قريش على ذلك أياما ، ثم اتفقوا على أن أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينهم ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد.

ودعا رسول الله ﷺ بثوب ، وأخذ الحجر ، ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه

(١) قبيلة من قبائل قريش .
(٢) القصعة الكبيرة .

جميعا ، ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وهكذا درأ[1] رسول الله ﷺ الحرب عن قريش ، بحكمة ليست فوقها حكمة .

حلف الفضول

وشهد رسول الله ﷺ حلف الفضول ، وكان أكرم حلف سمع به ، وأشرفه في العرب ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى[2] عليه الزبيدي أشراف قريش ،

(١) دفع .

(٢) استعان بهم واستنصرهم .

فأبوا أن يعنوا على العاص بن وائل لمكانته ، وانتهروه ، واستغاث الزبيدي أهل مكة ، واستعان بكل ذي مروءة .

وهاجت الغيرة في رجال من ذوي المروءة والفتوة ، فاجتمعوا في دار عبد الله ابن جُدعان ، فصنع لهم طعاما . وتعاقدوا ، وتعاهدوا بالله ، ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي اليه حقه ، فسمّت العرب ذلك الحلف « حلف الفضول » وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا الى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه .

وكان رسول الله ﷺ مغتبطاً بهذا الحلف ، متمسكاً به ، حتى بعد البعثة يقول : « لقد

شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الاسلام لأجبت، تحالفوا أن يردّوا الفضول على أهلها، وأن لا يعزّ [1] ظالم مظلوما.

وكان من حكمة الله تعالى وتربيته أن نشأ رسول الله ﷺ أميا، لا يقرأ ولا يكتب، فكان أبعد عن تهمة الأعداء وظنة المغتربين، والى ذلك أشار القرآن بقوله:

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطّه بيمينك اذاً لَارْتابَ المبطلون [2] ».

وقد لقبه القرآن بالأميّ فقال: « الذين يتَّبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل [3] ».

(١) يغلب.

(٢) كبوت – ١٨.

(٣) سوره الأعراف – ١٥٧.

بعد البعثة

تباشير الصبح وطلائع السعادة

وأتم رسول الله ﷺ أربعين سنة من عمره ، وظهرت تباشير[1] الصبح وطلائع السعادة ، وآن أوان البعثة ، وتلك سنة الله اذا اشتد الظلام وطالت الشقوة ..

وبلغ قلق رسول الله ﷺ مما كان يراه ذروتَه ، كأن حادياً يحدوه ، فحُبّب اليه الخلاء ، فلم يكن شيء أحبّ اليه من أن يخلو وحده ، وكان يخرج من مكة ، ويبعد حتى

(١) أوائل كل شيء .

تحسر[1] عنه البيوت ، ويفضي الى شعاب مكة وبطونها وأوديتها ، فلا يمرّ بحجر ولا شجر الاّ قال : السلام عليك يا رسول الله ، ويلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى الاّ الشجر والحجارة.

وكان أول ما بدىء به ، الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح[2]

في غار حراء

وكان يخلو غالباً بغار حراء ، فيمكث فيها ليالي متواليات ، وكان يتزوّد لذلك ، وكان يتعبد ويدعو على الطريقة الابراهمية

(١) تتوارى .

(٢) ضوء الصبح .

الحنيفية والفطرة السليمة المنيبة الى الله .

مبعثه ﷺ

وكان كذلك في احدى المرات اذ جاءه اليوم الموعود لبعثته ، وكان ذلك في رمضان - ١٧ من رمضان في السنة الحادية والأربعين من ميلاده ، ٦/أغسطس ٦١٠ م-وهو بـ « حراء » فجاءه الملك ، فقال : « اقرأ » ، فقال : ما أنا بقارىء ، قال رسول الله ﷺ : فأخذني ، فغطّني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى الثانية بلغ مني الجهد ، ثمّ أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ،

ثم أرسلني فقال :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم[1] » .

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة ، وأول وحي من القرآن .

في بيت خديجة

وفزع منه رسول الله ﷺ ، فانه لم يعهده ولم يسمع به ، وقد طالت الفترة ، وعهدُ العرب بالنبوة والأنبياء بعيد ، وخاف على نفسه ، ورجع الى بيته ترتعد فرائصه[2] ،

(١) سورة العلق : ١ – ٥ .

(٢) فرائص : جمع فريصة ، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف . ترتعش وترتعد عند الفزع .

وقال : زمّلوني[1] ، زمّلوني ، لقد خشيت على نفسي .

وسألت خديجة عن السبب ، فقصّ عليها القصة ، وكانت عاقلة فاضلة ، سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة ، وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصّر ، وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والانجيل ، وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة .

وكانت من أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ ، لمكانها منه ، وعشرتها له ، واطلاعها على السرّ والعلانية ، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ وشمائله ما

(١) أي لفّوني في الثياب .

يؤكد أنه الرجل المُوَفَّق المؤيّد من الله ، المصطفى من خلقه ، المرضي في سيرته وسلوكه وأن من كانت هذه أخلاقه وسيرته ، لا يخاف عليه من لمة[1] من الشيطان ، أو أن يكون به مسّ من الجنّ ، وأن ذلك يتنافى مع ما عرفته من حكمة الله ورأفته وسننه في خلقه ، فقالت في ثقة وايمان وفي قوة وتأكيد :

« كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكلّ[2] ، وتكسب المعدوم[3] ، وتقري[4] الضيف وتعين على نوائب الحق » .

(١) هي الهمة والخطرة تقع في القلب .
(٢) الكلّ . الثقل .
(٣) أي تكسب الناس ما يعدمونه مما يحتاجون اليه .
(٤) أي تهيىء له طعامه ونزله .

ورأت أن تستعين في ذلك بابن عمها العالم « ورقة » بن نوفل ، فانطلقت برسول الله ﷺ اليه .

وأخبر رسول الله ﷺ ورقة خبر ما رأى ، فقال ورقة : والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر [1] الذي جاء موسى ، وان قومك سيكذبونك ، ويؤذونك ، ويخرجونك ، ويقاتلونك .

وتعجب رسول الله ﷺ حين قال ورقة : انهم سيخرجونك ، لأنه كان يعرف منزلته

(١) الناموس في الأصل صاحب سرّ الرجل في خيره وشره ، فعبّر به عن الملك الموكل بالوحي ، الذي جاء بالوحي اليه ﷺ .

عند قريش ، فلا ينادونه ولا يخاطبونه الا بـ « الصادق » و بـ « الأمين » فقال متعجباً : أو مخرجيّهم ؟ .

قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به ، الا عاداه الناس وحاربوه ، وان أدركت ذلك اليوم ، وطالت بي الحياة ، نصرتك نصراً قويا .

وفتر الوحي زمانا ، ثم تتابع ، وبدأ القرآن ينزل .

اسلام خديجة وأخلاقها

وآمنت به خديجة ، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وكانت بجواره تؤازره[1] ، وتثبّته ، وتخفف عنه ، وتهوّن

(١) تعاونه .

عليه أمر الناس .

اسلام علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة

ثم أسلم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان في حجر رسول الله - ﷺ - قبل الاسلام ، أخذه من أبي طالب في أيام الضائقة[1] ، وضمّه اليه .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - وكان قد تبنّاه رسول الله - ﷺ -

فكان اسلام هؤلاء شهادة أقربِ الناس اليه ، وأعرفهم به ، وبصدقه ، واخلاصه ، وحسن سيرته ، وأهلُ البيت أدرى بما فيه .

(١) الشدة والقحط .

اسلام أبي بكر بن أبي قحافة وفضله في الدعوة الى الاسلام

وأسلم أبو بكر بن أبي قحافة . وكانت له منزلة في قريش . لعقله ومروءته واعتداله ، وأظهر اسلامه . وقد كان رجلاً محبّباً سهلاً ، عالماً بأنساب قريش وبأخبارها ، وكان تاجرا ، ذا خلق ومعروف ، فجعل يدعو الى الله وإلى الاسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه (١) ويجلس اليه .

اسلام أشراف من قريش

وأسلم بدعوته أشراف من قريش ، لهم مكانة وسؤدد . منهم عثمان بن عفان ،

(١) يأتي اليه .

وزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاء بهم الى رسول الله - ﷺ - فأسلموا .

وتلاهم رجال من قريش ، لهم شرف ومكانة ، منهم أبو عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد ابن زيد ، وخباب بن الأرت ، وعبد الله ابن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وصهيب ، وغيرهم ، رضي الله عنهم .

ودخل الناس في الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتُحدث به .

الدعوة جهاراً على جبل « الصفا »

وكان رسول الله - ﷺ - يخفي أمره ، ومضى على ذلك ثلاث سنين ثم أمره الله تعالى باظهار دينه ، وقال : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين[(١)] » ، وقال : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين[(٢)] » ، و « قل : اني أنا النذير المبين[(٣)] » .

فخرج - ﷺ - وصعد على جبل « الصفا » ، ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه » ، وكانت صيحة معروفة مألوفة ،

(١) سورة الحجر - ٩٤ .
(٢) سورة الشعراء - ٢١٤ ، ٢١٥ .
(٣) سورة الحجر - ٨٩ .

كلما أحسّ انسان بخطر عدوّ ، يغير على بلد ، أو على قبيلة ، على غفلة منها نادى : « يا صباحاه » ، فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء ، واجتمعوا اليه ، بين رجل يجيء اليه ، وبين رجل يبعث اليه رسوله .

فقال رسول الله – ﷺ – : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » .

كان العرب واقعيين عمليين ، انهم رأوا رجلا جرّبوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر الى ما وراءه ، وهم لا يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم ذكاؤهم وانصافهم الى تصديق هذا

المخبر الأمين الصادق ، فقالوا : نعم ، هنالك قال رسول الله - ﷺ - : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

فسكت القوم ، ولكن أبا لهب قال : تبّاً[1] لك سائر اليوم ، أما دعوتنا الاّ لهذا ؟ .

اظهار قومه العداوة له وحدب أبي طالب عليه

ولما أظهر رسول الله - ﷺ - الدعوة للاسلام ، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل ذلك ، أعظموه وأجمعوا خلافه وعداوته .

وحدب على رسول الله - ﷺ - عمّه

(١) هلاكاً لك وخسرانا .

أبو طالب ، ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله - ﷺ - في دعوته وصدعه بالحق ، لا يرده عنه شيء ، ومضى أبو طالب يحدب عليه ، ويذودَ[1] عنه .

فلما طال ذلك ، مشى رجال من قريش الى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب ! ان ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفّه عنا واما أن تخلّي بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه ، من دين وعقيدة .

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقا ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه .

(١) يدفع عنه الأذى .

وأكثرت قريش ذكر رسول الله - ﷺ - وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، ومشوا الى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا : يا أبا طالب ! ان لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك ، فلم تفعل ، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا ، على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فاما تكفّه عنا ، أو اما أن ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً باسلام رسول الله ﷺ لهم ، فبعث الى رسول الله - ﷺ - .

فقال له : يا ابن أخي ! ان قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي : كذا وكذا ، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري

وظن رسول الله - ﷺ - أن أبا طالب قد اضطرب في أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه .

فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته .

واستعبر [1] رسول الله - ﷺ - فبكى ،

(١) أي دمعت عين رسول الله ﷺ .

ثم قام .

فلما ولّى ، ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله - ﷺ - فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

تعذيب قريش للمسلمين

ومضى رسول الله - ﷺ - يدعو الى الله ، ويئست قريش منه ، ومن أبي طالب ، ونزل غضبهم على من كان أسلم من أبناء قبائلهم ، وليس لهم من يمنعهم .

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم ، بالضرب ، والجوع ، والعطش ، وبرمضاء

مكة اذا اشتدّ الحر .

وكان بلال الحبشي – وقد أسلم – يخرجه مولاه « أمية » بن خلف ، اذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله ، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول – وهو في ذلك البلاء – أحد ، أحد .

فمرّ به أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – فأعطى أمية غلاماً أسود ، أجلد منه وأقوى ، وأخذ منه بلالا ، وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار ابن ياسر وبأبيه وأمه – وكانوا أهل بيت اسلام – اذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم

برمضاء[1] مكة ، فيمر بهم رسول الله - ﷺ - ويقول : صبراً يا آل ياسر ! موعدكم الجنة ، فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبى الا الاسلام .

وكان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالا وتيها ، وكانت أمه غنية كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب .

وبلغ مصعب بن عمير أن رسول الله - ﷺ - يدعو الى الاسلام ، في دار «ارقم» ابن أبي الأرقم ، فدخل عليه ، فأسلم وصدّق به ، فخرج ، فكتم اسلامه خوفاً من أمه وقومه ، فكان يختلف الى رسول الله - ﷺ - سرّا ، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي ،

(١) الرمل الشديد الحر .

فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوسا ، حتى خرج الى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين ، حين رجعوا ، فرجع متغيراً الحال قد حرج – يعنى غلظ – فكفّت أمه عنه من العذل .

وكان بعض المسلمين قد دخل في جوار بعض المشركين ، من أشراف قريش ورؤسائهم وكانوا يمنعونهم ، ويحمونهم ، وكان عثمان ابن مظعون قد دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، ثم أبت غيرته ذلك ، فردّ عليه جواره ، وكان وفيّاً كريم الجوار ، وقال : قد أحببت أن لا أستجير بغير الله ، ودار بينه وبين أحد المشركين حديث أغضب المشرك ، فقام اليه

ولطم عينه ، فخضّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ذلك ، فقال : أما والله يا ابن أخي ! انْ كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة ، قال عثمان : بل والله ان عيني الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها في الله ، واني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ! .

محاربة قريش لرسول الله ﷺ وتفننهم في الايذاء

فلما لم تلق قريش نجاحاً في صرف هؤلاء الفتيان الذين أسلموا ، عن دينهم ، ولم يلن رسول الله - ﷺ - ولم يحابهم ، اشتد عليهم ذلك ، فأغروا برسول الله - ﷺ -

سفهاءهم ، فكذبوه ، وآذوه ، ورموه بالسحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وتفنّنوا في ايذاء رسول الله - ﷺ - وذهبوا فيه كل مذهب .

وكان أشرافهم مجتمعين يوماً في الحجر ، اذ طلع عليهم رسول الله - ﷺ - ومر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، وعادوا بذلك ثلاث مرات ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأسكت القوم ، فلا حراك بهم ، وصاروا يلاطفونه بالقول .

فلما كان من الغد ، وهم في مقامهم ، طلع عليهم رسول الله - ﷺ - فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر - رضي

الله عنه - دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ ! فانصرفوا عنه ، ورجع أبو بكر يومئذ ، وقد صدعوا فرق رأسه ، وقد جرّوه بلحيته .

وخرج رسول الله - ﷺ - يوماً فلم يلقه أحد من الناس ، إلاّ كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله - ﷺ - الى منزله ، فتدثر[1] من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

« يا أيها المدّثّر قم فأنذر » .

ما فعل كفار قريش بأبي بكر ؟ !

وقام أبو بكر يوماً في الناس ، يدعو الى

(١) تدثر ، وادّثر (بالثوب) اشتمل وتلفف به .

الله وإلى رسوله ، وثار المشركون على أبي بكر ، فوطىء ، وضرب ضرباً شديدا ، وجعل عقبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين[1] يحرّفهما لوجهه حتى ما يعرف وجهه من أنفه .

وحملت بنو تيم أبا بكر ، وهم لا يشكون في موته ، وتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله - ﷺ - فمسوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، ودنت منه أم جميل ، وهي ممن أسلم ، فسألها عن رسول الله - ﷺ - فقالت : سالم صالح قال : فان لله عليّ ألاّ أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله - ﷺ - فأمهلتا حتى اذا

(١) خصف النعل : أي أطبق عليها مثلها وخرزها بالمخصف .

هدأت الرِجل وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله - ﷺ - ، ورقّ له رسول الله - ﷺ - رقة شديدة ، فدعا رسول الله - ﷺ - لأمه ، ودعاها الى الله ، فأسلمت .

احتيار قريش في وصف رسول الله ﷺ

وحارت قريش في أمْر رسول الله - ﷺ - بماذا يصفونه ، وكيف يحولون بينه ، وبين من يقصده ، أو يستمع اليه ، من الوافدين من بعيد ، واجتمعوا الى الوليد ابن المغيرة - وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم - فقال لهم : يا معشر قريش ! انه قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب

ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، ودار بينهم حديث طويل وأخذ وردّ .

ولم يرض الوليد بما عرضوه ، ونقضه ، فرجعوا اليه ، وقالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ ، قال : ان أقرب القول فيه : لأن تقولوا : ساحر جاء بسحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس ، حين قدموا الموسم ، لا يمر أحد إلاّ حذّروه إياه ، وذكروا له أمره .

قسوة قريش في ايذاء رسول الله - ﷺ - ومبالغتهم في ذلك

وتفنّن قريش ، وقسوا في إيذاء رسول الله - ﷺ - فلم يرعوا فيه قرابة ولا رحما ، وتخطّوا حدود الانسانية .

فبينا النبي - ﷺ - ساجد - ذات يوم - في المسجد ، وحوله ناس من قريش ، اذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا [1] جزور ، فقذفه على ظهر النبي - ﷺ - فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته « فاطمة » - عليها السلام - فأخذته من ظهره ، ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبي - ﷺ - .

وبينا هو - ﷺ - يصلي في حجر الكعبة ،

(١) السلى : جلدة يكون ضمنها الولد في بطن أمه .

اذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديدا ، فأخذ أبو بكر بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ ! .

اسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

ومر أبو جهل برسول الله - ﷺ - ذات يوم ، عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، فلم يكلمه رسول الله - ﷺ - فانصرف عنه .

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً (١) قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان أعزّ فتى في قريش ، وأشد شكيمةً (٢) ،

(١) متقلدا .
(٢) أي أنفةً وإباءً .

فأخبرته مولاة عبد الله بن جدعان بما جرى لرسول الله - ﷺ - فاحتمل حمزة الغضب ، ودخل المسجد ورأى أبا جهل جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجّه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ؟ أقول ما يقول ، فسكت أبو جهل ، وأسلم حمزة ، وعز ذلك على قريش ، لمكانته وشجاعته .

ما دار بين عتبة
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله - ﷺ - يزيدون ويكثرون ، استأذن عتبة ابن ربيعة قريشا ، أن يأتي رسول الله - ﷺ -

فيكلمه ويعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها ، فيعطونها ، ويكف عنهم ، وأذنت له قريش ، واستخلفته .

وجاء عتبة رسول الله - ﷺ - فجلس اليه ، وقال : يا ابن أخي ! انك منا حيث قد علمت ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبْت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله - ﷺ - : قل يا أبا الوليد ! اسمع .

قال يا ابن أخي : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا ، سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد به مُلكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا [1] ، تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك ، طلبنا لك أطبّاء ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فلما فرغ عتبة ، قال له رسول الله - ﷺ - أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منّي .

قال : افعل .

فقرأ رسول الله - ﷺ - آيات من سورة « فصّلت » الى السجدة ، فلما سمع عنه

(١) رئيا . ما يتراءى للانسان من الجن .

عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليها ، يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله - ﷺ - الى السجدة منها ، سجد ، ثم قال :

« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس اليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ ! ، قال : ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتذلوه ، قالوا : سحرك والله يا أبا

الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

هجرة المسلمين الى الحبشة :

ولما رأى رسول الله — ﷺ — ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا ، لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه .

فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين الى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الاسلام وكانوا عشرة رجال ، أمّروا عليهم عثمان بن مظعون — رضي الله عنه — .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، منهم من خرج بأهله ، ومنهم من خرج بنفسه ، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا .

تعقّب قريش للمسلمين :

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، بعثوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته [1] ، مما يُسْتَطرف [2] من متاع مكة ، وقدما على

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو القائد الحاذق بالحرب .
(٢) يستطرف : يُعَدّ طريفا .

النجاشي ، وقد استمالا البطارقة ، وأرضياهم بهداياهم وتكلما في مجلس الملك ، فقالا : انه لجأ الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنا إليك أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّوهم اليهم ، فهم أبصر بهم ، وأقرب اليهم ، وقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما .

فغضب النجاشي ، وأبى أن يقبل كلامهم ، ويسلم من لجأ إليه وإلى بلاده ، وحلف بالله ، وأرسل إلى المسلمين فدعاهم ، ودعا

أساقفتهم [1] ، وقال للمسلمين : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم؟ ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟ .

تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية ، وتعريفه بالاسلام :

وقام جعفر بن أبي طالب — وهو ابن عمّ رسول الله — ﷺ — فقال له :

« أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيىء الجوار ، ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسَبه وصدقه

(١) الأساقفة : علماء النصارى ، والواحد : الأسقف .

وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، – فعدّد عليه أمور الاسلام – فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا . فعدا علينا قومنا ، فعذّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادة

الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل « من الخبائث » .

« فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك ! »

وسمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار ، ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟ .

قال جعفر : نعم .

قال النجاشي : فاقرأه عليّ .

فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي ، حتى اخضلّت [1] لحيته ،

(١) اخضلت : ابتلت .

وبكى أساقفته حتى أخضلوا [1] مصاحفهم .

خيبة وفد قريش :

ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولَيْ قريش ، فقال : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم .

وغدا عمرو بن العاص على النجاشي من الغد ، وقال له : أيها الملك ! إنهم ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما ، فأقبل الملك على المسلمين ، فقال : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

قال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه ما جاء به نبينا - ﷺ - : هو عبد الله ،

(١) بلّوا .

ورسوله ، وروحه ، وكلمته ، ألقاها الى مريم العذراء [١] البتول [٢] ، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت مقدارَ هذا العودِ .

ورد المسلمين رداً كريما ، وأمّنهم ، وخرجا من عنده مقبوحَيْن .

إسلام عمر بن الخطاب :

وأيّد الله الاسلام والمسلمين ، بإسلام عمر بن الخطاب العدويّ القرشيّ ، وكان رجلاً مهيباً ، ذا قوه وشكيمة ، وكان رسول

(١) هي الجارية التي لم يمسّها رجل .
(٢) هي المنقطعة عن الرجال لا حاجة لها فيهم .

الله – ﷺ – حريصاً على إسلامه ، يدعو الله لذلك .

وكان من خبر إسلامه أن أخته « فاطمة » بنت الخطاب أسلمت ، وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وكانا يخفيان إسلامهما ، من عمر ، لهيبته وشدته على الإسلام والمسلمين ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة ، يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشّحاً سيفه ، يريد رسول الله – ﷺ – ورهطاً من أصحابه ، قد ذُكِرَ له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ، فلقيه نُعَيم بن عبد الله – وهو من قومه بني عدي ، وكان قد أسلم – فقال له أين تريد يا عمر ؟ ، قال : أريد محمداً هذا الصابىء ، الذي فرّق

أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : لقد غرّتك نفسك يا عمر ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ ، قال عمر : وأي أهل بيتي ؟ .

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأَرَت ، معه صحيفة ، فيها « طه » يقرئهما إيّاها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيّب خباب في مخدع (١) لهم ، وأخذت فاطمة الصحيفة ، وجعلتها

(١) المخدع : البيت الصغير الذي يكون في البيت الكبير .

تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءةَ خبابٍ ، فلما دخل ، قال : ما هذه الهينمة [1] ؟ ، قالا له ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش عمر بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة ، لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أُخته وختنه : نعم قد أسْلَمْنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

ولما رأى عمر ما بأختِه من الدم ، ندم على ما صنع ، وتوقّف ، وقال لأخته : أعطيني

(١) الهينمة : صوت كلام لا يُفهم .

هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر قارئاً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ، فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ! إنك نجس على شركك . وإنه لا يمسها إلاّ الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطَتْه الصحيفةَ ، وفيها « طه » فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلامَ وأكرمه ! .

فلما سمع ذلك خباب ، خرج إليه ، وقال له : يا عمر ! والله ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيِّه ، فإني سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الإسلام

بأبي الحكم بن هشام (يعني أبا جهل) أو بعمر ابن الخطاب ، فاللّهَ ، اللّهَ يا عمر .

عند ذلك قال له عمر : فدُلَّني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم ، وقال خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه ، فتوشّحه ، ثم عمد إلى رسول الله - ﷺ - وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - فنظر من خِلَل الباب ، فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله - ﷺ - وهو فَزِعٌ ، فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب ، متوشحاً السيف فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان

جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ائذن له ، فأذن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته (١) ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأؤمن بالله ، وبرسوله ، وبما جاء من عند الله .

قال : فكبّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن عمر قد أسلم .

وعزّ المسلمون في أنفسهم ، حينما أسلم

(١) الحجزة : موضع شدّ الازار .

عمر ، وقد أسلم حمزة من قبل .

وأعلن عمر إسلامه ، وشاع ذلك في قريش ، وقاتلوه وقاتلهم ، حتى يئسوا منه .

مقاطعة قريش لبني هاشم والإضراب عنهم :

وجعل الاسلام يفشوا في القبائل ، فاجتمعت قريش ، وائتمروا بينهم ، أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المُطَّلِبِ ، على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك ، كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا ، وتواثقوا على ذلك ، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً على أنفسهم .

في شعب أبي طالب :

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه ، وذلك في سنة سبعٍ من النبوة .

وخرج من بني هاشم أبو لَهَب بن عبد المطلب ، وكان مع قريش .

وأقام بنو هاشم على ذلك حتى جُهِدُوا من ضيق الحصار ، وأكلوا ورق السمر ، وأطفالهم يَتَضَاغَوْن [١] من الجوع ، حتى يُسمع بكاؤهم من بعيد ، وقريش تحول بينهم وبين التجار فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً ، حتى لا يشتروها .

ومكثوا على ذلك ثلاث سنوات ، لا

(١) يتضاغون : يتصوتون من الجوع .

يصل إليهم شيء ، إلاّ سرّاً ، ممن أراد صلتهم من قريش ، ورسول الله - ﷺ - على ذلك ، يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وجهاراً ، وبنو هاشم صابرون محتسبون .

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة :

وقام نفر من قريش ، من أهل المروءة والضمائر ، في مقدمتهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، فكرهوا هذا التعاقد الظالم ، وعافته نفوسهم ، وكان هشام رجلاً واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فمشى إلى رجال من قريش ، أنس فيهم الرقة والرجولة ، فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة ، والخروج من هذا التعاقد الظالم ، ولما كانوا خمسة ،

اجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة ، فلما كانت قريش في أنديتها من غد ، قام زُهَيْر بن أبي أُمَيَّة ، وكانت أمه عَاتِكَةُ بنت عبد المطلب ، وأقبل على الناس .

قال : يا أهل مكة ! أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يُبَاع ولا يُبْتَاع منهم ؟ ، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة .

وتدخّل أبو جهل في الحديث فلم يُفِدْ ، وقام المُطْعِم بن عَدِيّ إلى الصحيفة ليَشُقّها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك أللهم » ، وكان النبي - ﷺ - قد أخبر بذلك أبا طالب ، ومُزّقت الصحيفة وبطل ما فيها .

وفاة أبي طالب وخَدِيجَة :

ومات أبو طالب وخديجة في عام واحد -العام العاشر من النبوة- وهما من عرفتم من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتأييد ، ولم يسلم أبو طالب ، وتَتَابَعَتْ على رسول الله - ﷺ - المصائبُ .

وقع القرآن في القلوب السليمة :

وقدم الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيّ مكة ، وكان رجلاً شريفاً ، شاعراً لبيباً ، فحالت قريش بينه وبين رسول الله ، وخوّفوه من الدنوّ إليه ، وسماع كلامه ، وقالوا : إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تُكَلِّمَنَّه ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئاً .

يقول الطفيل : والله ما زالوا بي حتى أجمعتُ ألاّ أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني قطناً ، وغدوت إلى المسجد ، فاذا رسول الله – ﷺ – قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلاّ أن يُسمعني بعضَ قوله ، قال فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي ، واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً ، قبلته ، وإن كان قبيحاً ، تركته .

ودخل الطفيل على رسول الله – ﷺ – في بيته ، وحكى له القصةَ فعرض عليه رسول الله – ﷺ – الاسلامَ ، وتلا عليه

القرآن ، فأسلم ، ورجع إلى قومه داعياً إلى الاسلام ، وأبى أن يساكن أهله حتى يسلموا فدخلوا في الاسلام جميعاً ، ودعا دَوْساً إلى الإسلام ، وفشا الاسلام فيهم .

الخروج إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى :

ولما مات أبو طالب ، نال رسول الله - ﷺ - من قريش من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه قريش في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

ولما اشتد أذى قريش ، وانصرافهم عن الاسلام ، وزهدُهم فيه ، خرج رسول الله - ﷺ - إلى الطائف ، يلتمس النصرة من

ثقيف ، وأن يدخلوا في الاسلام .

فلما قدم رسول الله - ﷺ - الطائف ، عمد إلى نفر ، منهم سادة ثقيف وأشرافهم ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله ، فكان ردّهم شَرَّ ردٍّ ، واستهزأوا به - ﷺ - وأَغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ، ويصيحون به ، ويرجمونه بالحجارة ، فعمد إلى ظل نخلة ، وهو مكروب ، فجلس فيه ، وكان ما لقي في الطائف أشدّ ما لقيه من المشركين ، وقعد له أهل الطائف صَفَّيْنِ على طريقه ، فلما مرّ ، جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلاّ رموهما بالحجارة ، حتى أَدْمَوه ، وهما تسيلان الدماء ، وفاض قلبه ولسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعفَ قوته ، وقلّةَ حيلته ،

وهوانَه على الناس ، واستعاذ بالله تعالى وبنصره وتأييده فقال :

« اللهم ! اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهَّمني ؟ أم الى عدوّ ملّكته أمري ؟ ، إن لم يكن بك غضب عليّ ، فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنْزِل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

فأرسل الله إليه ملك الجبال ، يستأذنه

في أن يُطْبَق الجبلين اللذين بينهما الطائف ، فقال له رسول الله - ﷺ - بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

ولما رآه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وما لقي ، تحرّكت لهما المروءة ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عَدَّاس ، فقالا له : خذ قطفاً من العنب ، فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس وأسلم ، بما سمعه من حديث رسول الله - ﷺ - ورأى من أخلاقه .

وانصرف رسول الله - ﷺ - من الطائف إلى مكة ، وقومه على أشد ما كانوا عليه من خلاف وعداء ، وسخرية واستهزاء .

الاسراء والمعراج وفرض الصلوات :

ثم أُسْرِيَ برسول الله - ﷺ - إلى المسجد الحرام ، فإلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى ما شاء الله من القرب والدنو ، والسير في السماوات ، ومشاهدة الآيات ، والاجتماع بالأنبياء :

« ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى [1] »

فكانت ضيافةً كريمةً من الله ، وتسليةً وجبراً للخاطر ، وتعويضاً عما لقيه في الطائف من الذلة والهوان .

فلما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم

(١) سورة النجم : ١٧ - ١٨ .

الخبر ، فأنكروه ذلك ، واستعظموه ، وكذّبوه ، واستهزأوا ، وأما أبو بكر ، فقال : والله لئن كان قاله ، لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله ، إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاةً في كل يوم ، وما زال رسول الله يسأله التخفيف ، حتى جعلها الله خمس صلوات في كل يوم وليلة ، من أدّاهنّ إيماناً واحتساباً كان له أجر خمسين صلاة .

عرض رسول الله - ﷺ - نفسه على القبائل :

وبدأ رسول الله - ﷺ - يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الاسلام ، وإلى أن يمنعوه من الأعداء ، ويقول : يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا به ، وتصدقوا به ، وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به .

فاذا فرغ رسول الله - ﷺ - من قوله قام أبو لهب ، فقال : يا بني فلان ! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللاَّت والعُزَّى ، من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن ، الى ما جاء

به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

بدء إسلام الأنصار :

وخرج رسول الله - ﷺ - في الموسم ، فبينما هو عند العقبة ، إذ لقي رهطاً من الخزرج من الأنصار ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلامَ ، وتلا عليهم القرآنَ .

وكانوا جيرانَ اليهودِ في المدينة ، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبي قد أظل [1] زمانه ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا والله ، إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه ، فأجابوه ، وصدقوه ،

(١) أظلّ . دنا وقرب .

وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رَجُلَ أعزُّ منك .

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وآمنوا ، وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ، ذكروا لإخوانهم رسول الله - ﷺ - ، ودعوهم إلى الاسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر من رسول الله - ﷺ - .

بيعة العقبة الأولى :

حتى إذا كان العام المقبل ، وافى الموسم

من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلَقُوا برسول الله – ﷺ – وبايعوه بالعقبة الأولى ، على التوحيد ، والتعفف من السّرقة والزنا وقتل الأولاد والطاعة في المعروف .

فلما هَمَّ القوم بالانصراف ، بعث رسول الله – ﷺ – معهم مُصْعَبُ بن عمير ، وأمره أن يُقَرِئَهم القرآن ، ويُعَلِّمهم الاسلامَ ، ويُفَقّههم في الدين ، فكان يسمّى « المقرىء » بالمدينة ، ونزل على أسعد بن زُرَارَةَ ، وكان يصلي بهم .

انتشار الاسلام في المدينة :

وجعل الاسلام يفشو في منازل الأنصار – الأوس والخزرج – وأسلم سعد بن معاذ

وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وهما سيِّدا قومِهما ، من بني عبد الأَشْهَل من الأَوْس ، بحكمة من أسلم قبلهما ، وتلطفهم ، وبحسن دعوة مصعب بن عُمَيْر ، وأسلم بنو عبد الأشهل عن آخرهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون .

بيعة العقبة الثانية :

ورجع مصعب بن عُمَيْر إلى مكة في العام القابل ، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم ، من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله - ﷺ - العقبةَ ، فلما فرغوا من الحج ، ومضى ثلث الليل ، اجتمعوا في الشعب عند العقبة ،

وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان من النساء ، وجاء رسول الله - ﷺ - ومعه عمه العبّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه .

وتكلم رسول الله - ﷺ - وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألاّ يدعهم ويرجع إلى قومه ، فوعد بذلك رسول الله - ﷺ - فقال : أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ، واختار رسول الله - ﷺ - منهم اثني عشر نقيباً (١) ، تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس.

(١) سيد القوم وعريفهم .

الاذن بالهجرة إلى المدينة :

ولما بايع رسول الله - ﷺ - هذا الحي من الأنصار على الاسلام والنصرة له ، ولمن أتبعه ، فأَوَى إليهم عددٌ من المسلمين ، أمر رسول الله - ﷺ - أصحابه ، ومن معه بمكة ، من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا أرسالاً [1] .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر الاذن من الله في الخروج من مكة والهجرة الى المدينة .

(١) أرسالا : يعنى جماعة في إثر جماعة .

ولم تكن هجرة المسلمين من مكة هينة سهلة ، تسمع بها قريش وتطيب بها نفسًا ، بل كانوا يضعون العراقيل في سبيل الانتقال من مكة الى المدينة ، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المِحَن ، وكان المهاجرون لا يعدلون عن هذه الفكرة ، ولا يؤثرون البقاء في مكة فمنهم من كان يضطر إلى أن يترك امرأته وابنه في مكة ، ويسافر وحده ، كما فعل أبو سَلْمَة ، ومنهم من كان يضطر إلى أن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته ، وجمعه من ماله ، كما فعل صُهَيْبٌ .

وهاجر عمر بن الخطاب ، وطَلْحَةُ ، وحَمْزَة ، ويزيد بن حَارِثَة ، وعبد الرحمن ابن عَوْف ، وزُبَيْر بن العَوّام ، وأبو حُذَيْفَة ،

وعثمان بن عفان ، وآخرون - رضي الله عنهم - وتتابعت الهجرة ، ولم يتخلف مع رسول الله - ﷺ - بمة - غير من حُبِس وفُتِن - إلاّ عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة - رضي الله عنهما - .

تآمر قريش على رسول الله - ﷺ - الأخير ، وخيبتهم فيما أرادوا :

ولما رأت قريش أن رسول الله - ﷺ - قد صار له أصحاب وأنصار في المدينة ، ولا سلطان لهم عليها ، تخوّفوا من خروج رسول الله - ﷺ - إلى المدينة وعرفوا أنّه إذا كان ذلك فلا حيلة لهم فيه ، ولا سبيل لهم عليه فاجتمعوا في «دار الندوة» ، وهي دار

قُصَيّ بن كلاب ، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلاّ فيها ، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله - ﷺ - واجتمع فيها أشراف قريش .

واجتمع رأيهم أخيراً على أن يُؤخذ من كل قبيلة فتى شابّ صاحب جلادة ونسب فَيُهاجموا رسول الله - ﷺ - ويضربوا ضربةَ رجلٍ واحدٍ ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مَنَاف على حرب قومهم جميعاً ، وتفرّق القوم على ذلك ، وهم مُجْمِعُون له .

وأخبر الله رسولَه - ﷺ - بهذه المؤامرة ، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه

متسجّياً [1] ببردته ، وقال : لن يخلص إليك شيء تكرهه .

واجتمع القوم على بابه وهم متهيئون للوثوب ، وخرج رسول الله – ﷺ – وأخذ حفنة [2] من تراب في يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو آيات من سورة « يٓس » من أولها إلى قوله تعالى : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » [3]

وأتاهم آتٍ فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ ، قالوا : محمداً ، قال : خيَّبكم الله ، قد والله

---

(١) متسجيًا : متغطّيا .

(٢) (بفتح الفاء وضمها وفتح النون) ملء الكفين .

(٣) سورة يٓس – ٩ .

خرج ، وانطلق لحاجته .

وتطَلَّعُوا ، فرأوا نائماً على الفراش ، فلم يشكّوا في أنه رسول الله - ﷺ - فلما أصبحوا ، قام عليّ - رضي الله عنه - عن الفراش ، فخجلوا ، وانقلبوا خائبين .

هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة :

وجاء رسول الله - ﷺ - إلى أبي بكر ، فقال له : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبةَ يا رسول الله ! قال : الصحبة ، وبكى أبو بكر من الفرح ، وقدّم أبو بكر رَاحِلَتَين ، كان قد أعدّهما لهذا السفر ، وستأجر عبد الله بن أُرَيْقِط ، ليدلَّهما على الطريق ، وأمر رسول

الله – ﷺ – علياً رضي الله عنه بأن يتخلف بمكة ، حتى يؤدّي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده ، فليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلاّ وضعه عند رسول الله – ﷺ – لصدقه وأمانته .

في غار ثور :

وخرج رسول الله – ﷺ – وأبو بكر من مكة مستخفيَيْن ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما بمكة ، وأمر عامر بن فُهَيْرَة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ، ويُرِيحها عليهما ليلاً ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام .

وعمدا إلى غار من ثور [١] ، ودخل أبو بكر قبل رسول الله - ﷺ - فلمس الغار خوفاً من أن يكون فيه ما يؤذي رسول الله - ﷺ - ، ثم دعاه .

وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوت ، فنسجت ما بين الغار والشجر التي كانت على وجه الغار ، وسترت رسول الله - ﷺ - وأبا بكر ، وأمر الله حمامتين وحشيتين ، فأقبلتا تدفان [٢] ، حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة ، «ولله جنود السموات والأرض» .

واقتفى المشركون أثر رسول الله - ﷺ - فلما بلغوا الجبل ، اختلط عليهم ، فصعدوا

(١) ثور . جبل بأسفل مكة .
(٢) تحركان جناحيهما .

الجبل ، فمرّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه .

لا تحزن إن الله معنا :

وبينما هما في الغار ، اذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه ، رآنا ، قال : ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ وفي ذلك يقول القرآن : « ثانيَ اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا » [1] .

(1) سورة التوبة — ٤٠ .

ركوب سُرَاقَة في إثر الرسول ﷺ وما وقع له :

وجعلت قريش في رسول الله- ﷺ - حين فقدوه ، مائة ناقة ، لمن يردّه عليهم ، ومكثا في الغار ثلاث ليال ، ثم انطلقا ، ومعهما عامر بن فهيرة ، ودليل من المشركين ، استأجره رسول الله- ﷺ -فأخذ بهم على طريق السواحل .

وحمل سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشَم الطّمَعُ على أن يتبع رسول الله- ﷺ -ويردّه على قريش ، فيأخذ مائة ناقة منهم ، فركب على أثره يعدو ، وعثر به الفرس ، فسقط عنه ، فأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، وعثـ به

الفرس مرة ثانية ، فسقط عنه ، وأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، فلما بدا له القوم ، ورآهم ، وعثر به الفرس مرة ثالثة ، وذهبت يداه في الأرض وسقط عنه ، وتبعهما دخان كالإعصار [1] .

وعرف سراقة حين رأى ذلك أنه رسول الله - ﷺ - في حماية الله تعالى ، وأنه ظاهر لا محالة ، فنادى القوم ، وقال : أنا سراقة ابن جعشم ، انظروني أكلمكم ، فوالله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، فقال رسول الله - ﷺ - لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منّا ؟ ، قال سراقة : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك ،

(١) الاعصار : ريح ترتفع بالتراب أو بمياه البحار مستديرة كأنها عمود .

فكتب له عامر بن فهيرة كتاباً في عظم أو رقعة .

سوارَ كسرى في يد سراقة :

قال رسول الله - ﷺ - لسراقة : «كيف بك إذا لبست سِوَارَيْ كسرى ؟» .

وكان كذلك ، فلما أُتيَ عمر - رضي الله عنه - بسوارَي كسرى ومنطقته وتاجه ، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها .

وعرض عليه سراقة الزاد والمتاع ، فلم يقبله رسول الله - ﷺ - ولم يزد أن قال : أَخْفِ عنّا .

رجل مبارك :

ومر في مسيرهما بأم مَعْبَد الخزاعية ،

وكانت عندها شاة ، خَلَّفها الجهد عند الغنم ، فمسح رسول الله - ﷺ - بيده ضرعها وسمّى الله ودعا ، فدرّت ، فسقاها ، وسقى أصحابه ، حتى رَوُوا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانيا ، حتى ملأ الإناء ، فلما رجع أبو معبد ، سأل عن القصة ، فقالت : لا والله ، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت وكيت ، وصفته وصفاً جميلاً ، قال : والله إني لأراه صاحب قريش ، الذي تطلبه .

ولم يزل يسلك بهما الدليل ، حتى قدم بهما قباء ، وهي في ضواحي المدينة وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول ، يوم الاثنين ، فكان مبدأ التاريخ الإسلامي .

في المدينة

كيف استقبلت المدينة رسول الله ﷺ :

وسمع الأنصار بخروج رسول الله - ﷺ - من مكة ، وهم ينتظرونه أكثر من انتظار الصائمين لهلال العيد ، وكانوا يخرجون كل يوم ، إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة ، ينتظرون رسول الله - ﷺ - فما يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، فيدخلون بيوتهم ، وكان الزمن زمن صيف وحرّ .

وقدم رسول الله - ﷺ - حين دخل الناس البيوت ، وكان اليهود يرون ما يصنع

الأنصار ، وكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى صوته ، وأخبر الأنصار بقدوم رسول الله ، فخرجوا إلى رسول الله - ﷺ - وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - في مثل سنّه ، وأكثرهم لم يكن رأى رسولِ الله - ﷺ - قبل ذلك ، وازدحم الناس ، ما يميزون بينه وبين أبي بكر ، وفطن لذلك أبو بكر ، فقام يُظِلّه بردائه ، فانكشف للناس الأمرُ .

وكبّر المسلمون فرحاً بقدومه ، وما فرحوا لشيء في حياتهم كفرحهم بقدوم رسول الله - ﷺ - ، حتى كانت النساء والصبيان والاماء يقولون : هذا رسول الله - ﷺ - قد جاء ، هذا رسول الله - ﷺ - قد جاء ،

وكانت بنات الأنصار يُنشدن في سرور ونشوة :

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك الأنصاري – وهو غلام يومئذ – : شهدت رسول الله – ﷺ – يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوماً قطّ ، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

مسجد في قباء ، وأول جمعة في المدينة :

وأقام رسول الله – ﷺ – بقباء أربعة أيام ، وأسّس مسجداً هناك .

في بيت أبي أيوب الأنصاري :

وخرج رسول الله - ﷺ - إلى المدينة والناس يتلقونه في الطريق أرسالاً ، ويطلبون منه الاقامة عندهم ، ويمسكون بزمام الناقة ، فيقول : خلُّوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، ووقع ذلك مراراً حتى إذا أتى دار بني مالك بن النجار ، بركت على مكان فيه باب المسجد النبويّ اليوم ، وهو يومئذ مِرْبَد [1] لغلامين يتيمين من بني النجار ، وهم أخواله ﷺ .

ونزل رسول الله - ﷺ - عن الناقة ، فاحتمل أبو أيوب (خالد بن زيد النجاري الخزرجي) رحله ، فوضعه في بيته ، ونزل

(١) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

عليه رسول الله - ﷺ - فبالغ أبو أيوب في ضيافته وإكرامه ونزل في السفل من البيت وكره أبو أيوب وأعظم أن يكون في العلو ، فقال : يا أبا أيوب إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت .

بناء المسجد النبويّ والمساكن :

ودعا رسول الله - ﷺ - الغلامين ، فساومهما بالمربد ، ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله - ﷺ - أن يقبله منهما هبةً ، حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

وعَمِلَ رسول الله - ﷺ - في بناء المسجد ،

فكان ينقل اللَّبِن [1] ، واقتدى به المسلمون ، وكان رسول الله - ﷺ - يقول :

«اللهم إن الأجر أجر الاخرة فارحم الأنصار والمهاجرة»

وكان المسلمون مسرورين سعداء ينشدون الشعر ، ويحمدون الله .

وأقام رسول الله - ﷺ - في بيت أبي أيوب سبعة أشهر ، حتى بنى له مسجده ومساكنه ، فانتقل إلى مساكنه .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله - ﷺ - فلم يبق بمكة منهم أحد ، إلاّ مفتون ، أو محبوس ، ولم يبق دار من دور الأنصار ، إلاّ أسلم أهلها .

---

(١) اللبن جمع اللَّبِنَة ، أي المضروب من الطين مربّعاً للبناء .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

وآخى رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين ، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع ، وكانوا يحكّمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم [1] ، ويؤثرونهم على أنفسهم .

وقد يقول الأنصاري للمهاجر : انظر شطر مالي فخذه ، ويقول المهاجر : بارك الله لك في أهلك ومالك ، ودُلّني على السوق ، فكان من الأنصار الايثار ، ومن المهاجرين التعفف وعزة النفس .

---

(١) الكراع : يطلق على الخيل والبغال والحمير .

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وموادعة يهود :

وكتب رسول الله - ﷺ - كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود ، وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم .

شرع الأذان :

ولما اطمأن رسول الله - ﷺ - بالمدينة ، واستحكم أمر الاسلام ، وكان الناس يجتمعون إليه للصلاة ، في مواقيتها بغير دعوة ، وكره رسول الله - ﷺ - طُرُقَ الاعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس ونار ،

أكرم الله المسلمين بالأذان ، فأراه بعضهم في المنام ، فأقرَّه رسول الله - ﷺ - وشرعه للمسلمين واختِيرَ بلال بن رباح الحبشي للأذان ، وكان مُؤَذِّن رسول الله - ﷺ - فكان إمام المؤذنين إلى يوم القيامة .

ظهور المنافقين في المدينة :

وجعل الاسلام ينتشر في المدينة ، وأسلم بعض أحبار اليهود وعلماؤهم ، كعبد الله ابن سلام ، ودبّ الحسد الى اليهود ، وإلى من كان يحلم بالرئاسة ، وأن يُتَوَّج ، فيأمر وينهي ولا يُنَازَع في رئاسته ، كعبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ، كان قد تم له كل ذلك إذ جاء الاسلام وصار الناس يدخلون فيه أفواجاً ،

فحسده ، وعاداه كل من كان في قلبه مرض وفي السيادة طمع أو غرض ، وكان منهم أعداء مجاهرون ، ومنافقون مسرّون .

تحويل القبلة :

وكان رسول الله - ﷺ - والمسلمون يصلون إلى قبلة بيت المقدس ومضى على ذلك ستة عشر شهراً ، بعد ما قدم المدينة ، وكان رسول الله - ﷺ - يحب أن يُصْرَف إلى الكعبة ، وكان المسلمون العرب - وقد رضعوا بلبان حبّ الكعبة وتعظيمها وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم - لا يعدلون بالكعبة بيتاً ، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قِبلةً ، وكانوا يحبون أن يُصْرَفوا إلى الكعبة ، وكان في

جعل القِبلة إلى بيت المقدس ، محنة للمسلمين ولكنهم قالوا : « سمعنا وأطعنا » وقالوا : « آمنّا به ، كلّ من عند ربّنا » ، فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله - ﷺ - والخضوع لأوامر الله ، وافقت هواهم أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أو لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة ، ويقول القرآن :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القِبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن يَنقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين

هدى الله [1] » .

وانصرف المسلمون الى الكعبة مطيعين لله ولرسوله ، وصارت قبلة للمسلمين إلى يوم القيامة ، أينما كانوا وَلَّوْا وجوههم شطرها .

تحرش قريش بالمسلمين بالمدينة :

فلما استقر الاسلام بالمدينة ، وعرفت قريش أنه في نمو وازدهار ، وأن كل يوم يمضي يزيد في قوته وانتشاره ، هنالك شمّروا [2] للمسلمين عن ساق العداوة والمحاربة

(١) سورة البقرة – ١٤٣ .

(٢) شمّر الثوب عن الساق ، رفعه عنها ، والمراد : اشتدّوا في العداوة .

والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ويقول لهم : « كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة » .

الإذن بالقتال :

فلما قَوِيَت الشوكة ، واشتد الجناح ، أَذِنَ لهم في القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال : « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، وان الله على نصرهم لقدير [1] » .

سرايا وغزوة أَبْوَاء :

وبدأ رسول الله - ﷺ - يبعث سرايا وبعوثاً إلى بعض القبائل والنواحي ، ولم تكن في غالب الأحيان حرب ، وقد تكون

(١) سورة الحج - ٣٩ .

مناوشات [1] ، وكانت تفيد إلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وتظهر بها شوكة المسلمين ونشاطهم .

وغزا رسول الله - ﷺ - بنفسه غزوة « الأبواء » ، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ، وتلتها غزوات وسرايا .

فرض صوم رمضان :

وفي السنة الثانية للهجرة فرض الصوم ، وأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون [2] » .

---

(١) احتكاكات واصطدامات .

(٢) سورة البقرة - ١٨٣ .

وقال : « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه [1] » .

(1) سورة البقرة – ١٨٥ .

معركة بدر الحاسمة

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى ، وقد سمّى الله هذه المعركة بيوم الفرقان ، فقال :

« إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان [1] » .

وكان من خبر هذه الغزوة أن رسول الله - ﷺ - سمع بأبي سفيان بن حرب مُقْبِلاً من الشام في عير [2] عظيمة لقريش ، فيهاَ أموالهم وتجاراتهم ، وكانت الحرب قائمة

(١) سورة الأنفال - ٤١ .

(٢) قافلة .

بين المسلمين وبين قريش المشركين ، وكانت تبذل أموالها وكل ما تملكه ، في محاربة الإسلام ، وإضعاف شأن المسلمين ، وكانت كَتَائِبُهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها .

فلما سمع رسول الله - ﷺ - بأبي سفيان مُقْبِلاً من الشّام ، على رأس هذه العير ، وكان من أشد الناس عداوةً للإسلام ، ندب رسول الله - ﷺ - الناس للخروج إليها ، ولم يحتفل لها احتفالا بليغاً ، لأَن الأمر أمر عير لا نفير .

وبلغ أبا سفيان مخرجُ رسولِ الله - ﷺ - وقَصْدُه إياه ، فأرسل إلى مكة مستصرخاً [1] لقريش ليمنعوه من المسلمين ،

(١) يعنى مستنصراً ومستغيثا .

وبلغ الصريخ أهلَ مكة ، فجدّ جدّهم ونهضوا مسرعين ، ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب ، فانه عوّض عنه رجلاً .

تجاوب الأنصار وتفانيهم في الطاعة :

ولما بلغ رسول الله - ﷺ - خروج قريش ، استشار أصحابه ، وكان يعني الأنصار ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم ، فلما عزم على الخروج من المدينة أراد أن يعلم ما عندهم ، فتكلّم المهاجرون ، فأحسنوا ثم استشارهم ثانياً ، فتكلمو أيضاً فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثا ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ! كأنك تعرض بنا ، لعلك تخشى

أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ، أن لا تنصرك إلاّ في ديارهم ، إني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصِلْ حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبَّ إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر ، فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان (١) ، لنسيرنّ معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر ، خضناه معك .

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : « اذهب أنت وربك

(١) وفي بعض الرواية برك الغماد وهو موضع بناحية اليمن .

فقاتلا إننا ههنا قاعدون [1] » ، ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

فلما سمع رسول الله - ﷺ - أشرق وجهه ، وسُرَّ بما سمع من أصحابه ، وقال : سِيروا ، وأَبْشِرُوا .

تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة :

ولما تَوَجَّه المسلمون الى بدر ، خرج غلام اسمه عُمَير بن أبي وَقَّاص ، وهو في السادسة عشرة من سنّه ، وكان يخاف أن لا يقبله النبي - ﷺ - لأنه صغير ، فكان يجتهد أن لا يراه أحد ، وكان يتوارى ،

(١) سورة المائدة - ٢٤ .

وسأله أخوه الأكبر : سعد بن أبي وقاص عن ذلك ، فقال : أخاف أن يردني رسول الله - ﷺ - وأنا أُحِبّ الخروج ، لعل الله يرزقني الشهادة ، وكان كذلك ، فأراد رسول الله - ﷺ - أن يرده ، لأنه لم يبلغ مبلغ الرجال ، فبكى عمير ، ورقّ له قلب رسول الله - ﷺ - فأجازه ، وقُتِلَ شهيداً في الغزوة .

التفاوت بين المسلمين والكفار في العَدَد والعُدَد :

وخرج رسول - ﷺ - مُسرعاً في ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلاّ فَرَسان ، وسبعون بعيراً ، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد لا فرق في

ذلك بين جندي وقائد ، وتابع ومتبوع ، فكان منهمْ رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة.

ودفع اللواء الى مصعب بن عمير ، وراية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما سمع أبو سفيان خروجَ المسلمين ، خفض ولحق بساحل البحر ، ولما رأى أنه قد نجا وسَلِمَت العير ، كتب إلى قريش أن ارجعوا ، فإنكم إنّما خرجتم لتحرزوا [1] عيركم ، وهمّوا بالرجوع ، فأبى أبو جهل إلا القتال ، وكانت قريش بين ألف وزيادة ، منهم صناديد قريش ، وسادتها ، وفرسانها ،

(١) أي تصونوا وتحفظوا .

وأبطالها ، فقال رسول الله – ﷺ – هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبدِها .

وسبق رسول الله – ﷺ – وأصحابه إلى الماء شطرَ اللّيل ، وصنعوا الحِيَاض ، وسمح رسول الله – ﷺ – لمن وردها من الكفار بالشرب .

وأنزل الله – عزّ وجلّ – في تلك الليلة مطراً ، كان على المشركين وابلاً شديداً ، منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين رحمةً وَطَّأَ الأرض ، وصَلَّب الرمل ، وثبّت الأقدام ، وربط على قلوبهم ، وهو قوله تعالى :

« وينزل عليكم من السمآء ماء ليُطهّركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على

قلوبكم ويثبّت به الأقدام [1] » .

استعداد للمعركة :

وبُنِيَ لرسول الله – ﷺ – عريشٌ ، يكون فيها على تَلٍّ مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان إن شاء الله – فما تعدّى أحد منهم مَوْضِعَ إشارته .

ولما طلع المشركون ، وتراءى الجمعان ، قال رسول الله – ﷺ – : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تحاربك ، وتكذّب رسولك » وكانت ليلة

(١) سورة الأنفال – ١١ .

الجمعة ، السابع عشر من رمضان ، فلما أصبحوا ، أقبلت قريش في كتائبها ، واصطفّ الفريقان .

دعاء وتضرّع :

وعدّل [1] رسول الله - ﷺ - الصفوفَ ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر ، ورسول الله - ﷺ - يُكثر الابتهال ، والتضرّعَ والدعاءَ ، واستغاث بالله الذي لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه «وما النصر إلا من عند الله» ، فقال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة [2] لا تعبد بعدها في الأرض » ، وجعل يهتف

(١) سوّى .
(٢) العصابة : الجماعة .

بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ، ويرفع يديه إلى السماء ، حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر – رضي الله عنه – يُسَلّيه ، ويشفق عليه من كثرة الابتهال .

هذان خصمان اختصموا في ربهم :

ثم خرج رسول الله – ﷺ – إلى الناس فحرّضهم على القتال ، وخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسّطوا بين الصفّين ، طلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار ، فقالوا : من أنتم ؟ ! .

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : أكفاء كرام ، ولكن أخرجوا

إلينا من بني عمنا .

قال النبي - ﷺ - قم يا عبيدة بن الحارث (ابن المطلب بن عبد مناف) وقم يا حمزة ، وقم يا عليّ .

قالوا : نعم ، أكفاء كرام .

وبارز عبيدة - وكان أسنّ القوم - عُتْبَةَ ، وبارز حمزة شَيْبَة ، وبارز عليّ الوَلِيد بن عتبة ، فأما حمزة وعليّ فلم يمهلا خصيميهما أن قتلاهما ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا [1] عليه ، واحتملا عبيدة ، وهو جريح ، ومات شهيداً .

(١) أجهزا عليه : أي شدّا عليه وأتمّا قتله .

التحام الفريقين ونشوب الحرب :

وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، ودنا المشركون ، فقال رسول الله - ﷺ - : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض » .

أول قتيل :

وقام عمير بن الحمام الأنصاري ، فقال : يا رسول الله ! (ﷺ) جنة عرضها السماوات والأرض ؟ ، قال : نعم ، قال بخ بخ يا رسول الله ! قال : ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ ، قال : لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها ، فأخرج تمراتٍ من قرنه (١) ،

(١) جعبته .

فجعل يأكل منهنّ ، ثم قال : لئن حييت حتى آكل من تمراتي هذه ، إنّها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتل حتى قُتِلَ ، فكان أوّلَ قتيل .

والناس على مصافّهم ، صابرون ذاكرون الله كثيرا ، وقاتل رسول الله - ﷺ - قتالاً شديداً ، وكان أقرب الناس من العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ، ونزل الملائكة بالرحمة والنصر وقاتلوا المشركين .

مسابقة الإخوة الأَشِقّاء في قتل أعداء الله ورسوله :

وتسابق الشباب في الشهادة ونيل السعادة ،

وكانت مسابقة بين أخلاء وأصدقاء وإخوة أشقاء .

يقول عبد الرحمن بن عوف « إني لفي الصف يوم بدر ، اذا التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه يا عم أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ ، قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، وقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله ، قال : فما سرّني أني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما اليه ، فشدّا [1] عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه .

ولما قتل أبو جهل قال رسول الله

(١) حملا عليه .

– ﷺ – : هذا أبو جهل فرعون هذه الأمة » .

الفتح المبين :

ولما أسفرت الحرب عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، قال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وَعْدَه ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وصدق الله العظيم :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة ، فاتَّقُوا الله لعلكم تشكرون [1] » .

وأَمَرَ بالقتلى أن يُطْرَحوا في القليب [2] ،

(1) سورة آل عمران – ١٢٣ .

(2) القليب : البئر .

فطُرِحُوا فيه ، ووقف عليهم فقال : « يا أهل القليب ! هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا »

وقُتِلَ من سراة الكفار يوم بدر ، سبعون ، وأُسِرَ سبعون ، ومن المسلمين من قريش ستة ، ومن الأنصار ثمانية .

وفرّق رسول الله – ﷺ – الأسارى بين أصحابه ، وقال : استوصوا بهم خيراً .

وقع معركة بدر :

وتوجه رسول الله – ﷺ – إلى المدينة مُؤَيَّداً مُظَفَّراً ، وقد خافه كل عدوٍ له بالمدينة وحولها ، وأسلم بشر كثير من أهل المدينة .

ووقعت النياحة في بيوت المشركين بمكة ، وكثر البكاء على القتلى ، ودخل الرعب في قلوب الأعداء .

تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى :

وعفا رسول الله - ﷺ - عن الأسرى وقبل منهم الفداء ، وكان من لا شيء له منّ عليهَ رسول الله - ﷺ - فأطلقه ، وبعثت قريش في فداء الأسارى ، فأطلق سراحهم .

وكان من الأسرى من لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله - ﷺ - فداءهم أن يعلِّموا أولادَ الأنصارِ الكتابةَ ، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة ، وكان زيد بن

ثابت ممن تعلّم بهذا الطريق .

وكان بنو قينقاع أول يهود ، نقضوا ما بينهم وبين رسول الله - ﷺ - وحاربوه ، وآذوا المسلمين ، فحاصرهم رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ، وشفع فيهم حليفهم عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين ، فأطلقهم له رسول الله - ﷺ - ، وكانوا سبع مائة مقاتل وكانوا صاغةً وتُجّاراً .

غزوة أحد

الحمية الجاهلية وأخذ الثأر :

لما أصيب صناديد قريش يوم بدر ، ورجع فُلُّهم إلى مكة ، عظم المصاب عليهم ومشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، فكلموا أبا سفيانْ ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فاستعانوا بهذا المال على حرب المسلمين ، ففعلوا ، واجتمعت قريش لحرب رسول الله - ﷺ - وحرّض الشعراء الناس بشعرهم ، وأثاروا فيهم الغيرةَ والحميةَ .

وخرجت قريش في منتصف شوال

سنة ثلاث للهجرة بأبنائها ومن تابعها من القبائل ، وخرج سادة قريش بأزواجهم ، وأقبلوا حتى نزلوا مُقَابِلَ المدينة .

وكان من رَأْي رسول الله - ﷺ - أن يقيم المسلمون بالمدينة ويَدَعوهم ، فان دخلوا عليهم ، قاتلوهم فيها ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج ، وكان رَأْي عبد الله ابن أُبي ما رأى رسول الله - ﷺ - فقال رجال من المسلمين ممن كان فاته بدر : يا رسول الله - ﷺ - اخرج بنا الى أعدائنا لا يرونا أنا جَبُنَّا عنهم وضَعفْنا .

فلم يزالوا برسول الله - ﷺ - حتى دخل رسول الله - ﷺ - بيته ، فلبس

لَأْمَته [1] ، وندم الذين اقترحوا الخروج ، فقالوا : استكره هناك يا رسول الله ! ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد – صلى الله عليك – فقال رسول الله – ﷺ – : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

وخرج رسول الله – ﷺ – في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد ، انخزل [2] عنه عبد الله بن أُبيّ بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني .

في ميدان أحد :

ومضى رسول الله – ﷺ – حتى نزل

(١) درعه .

(٢) انفرد وانقطع .

الشعب من أُحد ، وهو جبل على نحو ٣ كيلو من المدينة ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يُقَاتِلَنَّ أحد منكم حتى نأمره بالقتال ، وتعبّىء[1] رسول الله - ﷺ - للقتال ، وهو في سبع مائة رجل ، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهم خمسون رجلاً ، فقال : ادفع الخيلَ عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، وأَمَرَهم بأن يلزموا مركزهم ، وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر ، ولبس درعاً فوق درع ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير - رضي الله عنه - .

(١) تهيَّأ .

مسابقة بين أتراب :

ورد رسول الله - ﷺ - جماعةً من الغلمان يوم أُحد لصغرهم ، ورد رسول الله - ﷺ - سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وشفع أبو رافع لابنه ، وقال : يا رسول الله ! ان ابني رافعاً رام ، فأجازه النبي ﷺ .

وعُرِضَ على رسول الله - ﷺ - سمرة ابن جندب ، وهو في سن رافع ورده رسول الله - ﷺ - لصغره ، فقال سمرة : لقد أجزتَ رافعاً ورددتَني ، ولو صَارَعْتُه لصَرَعْتُه ، ووقعت المصارعة بينهما ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجيز ، وخرج وقاتل يوم أحد .

المعركة :

والتقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض وقامت هند بنت عتبة في النسوة ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، يُحَرِّضْنَهم ، واقتتل الناس ، حتى حميت [1] الحرب ، وقاتل أبو دجانة الذي أخذ السيف من رسول الله - ﷺ - ووعده بأنه يأخذه بحقه ، حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقى أحداً إلاّ قتله .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً ، وقتل عدداً من الأبطال ، لا يقف أمامه شيء ، وكان وحشي غلام جبير بن مطعم له

(١) اشتدت .

بالمرصاد ، وكان يقذف بحربة له قلما يخطىء لها شيئا ، ووعده جبير بالعتق إن قتل حمزة ، وقد قتل عمه طُعَيْمَة يوم بدر ، وكانت هند زوج أبي سفيان تحرّضه كذلك على قتل حمزة وشفاء نفسها ، وحمل وحشي على حمزة بحربته ، فدفعها عليه ، حتى خرجت من بين رجليه ، فوقع شهيداً .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله - ﷺ - حتى قُتِلَ ، وأُبْلِيَ المسلمون بلاءً حسناً .

غلبة المسلمين :

وأنزل الله - تعالى - نصره عليهم ، وصدقهم وعده ، حتى كشفوا المشركين عن العسكر ،

وكانت الهزيمة لا شك فيها ، وولّت النساء مُشَمّرات هواربَ .

كيف دارت الدائرة على المسلمين :

وبينما هم كذلك اذ انهزم المشركون ، وولَّوْا مدبرين ، حتى انْتَهَوْا إلى نسائهم فلما رأى الرماة ذلك ، مالوا إلى العسكر ، وهم موقنون بالفتح ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ، الغنيمة ، فذَكَّرهم أميرهم عهدَ رسولِ الله - ﷺ - فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فأخلوا الثغر [١] ، وخَلَّوْا ظهورَ المسلمين إلى الخيل ، وأصيب أصحاب لواء المشركين ، حتى ما يدنو منه

(١) موضع المخافة من جانب العدوّ .

أحد من القوم ، فأتاهم المشركون من خلفهم ، وصرخ صارخ : « ألا ! إنّ محمداً قد قُتِلَ » ، فتراجع المسلمون ، وكَرَّ المشركون كرَّةً ، وانتهزوا الفرصة ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، وخلص العدوّ إلى رسول الله - ﷺ - وأصابته الحجارة حتى وقع لشقه ، وأصيبت رباعيته ، وشجّ في وجهه ، وجرحت شفته - ﷺ - وجعل الدم يسيل على وجهه ، فيمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا [1] وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ ! .

ولا يعلم المسلمون بمكانه ، فأخذ علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - بيد رسول الله - ﷺ - ورفعه طلحة بن عبيد الله ، حتى

(١) يعنى أدموا .

استوى قائماً ، ومصّ مالك بن سِنَان الدَّم عن وجهه – ﷺ – وابتلعه .

ولم تكن فرّةً ، انما كانت جولةً يُضْطَرُّ إليها الجيش ، ثم يستأنف كرَّةً .

وما أصاب المسلمين من نكسة ومحنة ، وما أصيبوا به من خسارة في النفوس ، وشهادةِ من كان قوة للاسلام والمسلمين ، وناصراً لرسول الله – ﷺ – وللدين ، إنما كان نتيجةَ زلّةٍ للرماة ، وعدمِ تمسّكهم بتعاليم الرسول – ﷺ – وأمره إلى اللحظة الأخيرة ، وإخلائهم للجبهة التي عيّنهم رسول الله – ﷺ – عليها وهو قوله تعالى :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه ، حتّى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر

وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .[1]

روائع من الحب والفداء :

نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله – ﷺ – فسقطت ثنيته ، ونزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين ، وترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ ، يقع النبل في ظهره ، وهو مُنْحَنٍ عليه ، حتى كثر فيه النبل ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله – ﷺ –

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢ .

ويناوله رسول الله - ﷺ - النبلَ ويقول : ارم فَدَاك أبي وأمي .

وأصيبت عين قَتَادَة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنته فردّها رسول الله - ﷺ - بيده ، فكانت أحسن وأحَدَّهما ، وقصده المشركون ، يريدون ما يأباه الله ، فحال دونه نفرٌ نحو عشرة ، حتى قُتِلوا عن آخرهم ، وجالدهم طلحة بن عبيد الله ، ترّس عليه بيده يقي بها رسول الله - ﷺ - فأصيبت أنامله ، وشلّت يده ، وأراد رسول الله - ﷺ - أن يعلوَ صخرةً هنالك ، فلم يستطع لما به من الجراح والضعف ، فجلس طلحة تحته ، حتى صعدها ، وحانت الصلاة فصلى بهم جالساً .

ولما انهزم الناس ، لم ينهزم أنس بن النضر – عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ – ، وتقدم ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ! فقال أنس : واهاً لريح الجنة ، يا سعد إني أجدها دون أحد .

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قُتِل رسول الله – ﷺ – ، فقال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتِل .

يقول أنس – رضي الله عنه – لقد وجدنا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه .

وقاتل زياد بن السكن في خمسة من الأنصار دون رسول الله - ﷺ - يقتلون دونه رجلاً ثم رجلاً ، فقاتل زياد حتى أثبتته الجراحة ، فقال رسول الله - ﷺ - أدنُوه مني ، فأدنَوْه منه ، فوَسَّدَه قدمه ، فمات وخدّه على قدم رسول الله - ﷺ .

وكان عمرو بن الجَمُوح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب ، يغزون مع رسول الله - ﷺ - ، فلما توجه إلى أحد ، أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسولَ الله - ﷺ - فقال : إن بَنِيَّ هؤلاء يمنعونني أجاهد معك ، ووالله

إني لأرجو أن أُسْتَشْهَد ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول - ﷺ - : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تَدَعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله - ﷺ - فقُتِلَ يوم أُحد شهيداً .

يقول زيد بن ثابت - رضي الله عنه - بعثني رسول الله - ﷺ - يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته ، فاقرأه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله - ﷺ - : كيف تجدك ؟ ، قال : فجعلتُ أطوف بين القتلى ، فأتيتُه ، وهو بآخر رمق [1] ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة

(١) بقية الروح وآخر النفس .

برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ! إن رسول الله - ﷺ - يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف نجدك؟ ، فقال : وعلى رسول الله السلام ، وقل له يا رسول الله : أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله ، إن خلص إلى رسول الله - ﷺ - وفيكم عين تطرف [1] ، وفاضت نفسه من وقته .

وقال عبدالله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقي العدوّ غداً فيقتلوني ، ثم يَبْقُروا [2] بطني ، ويجْدَعُوا [3]

---

(١) تتحرك بالنظر .

(٢) يشقوا .

(٣) يقطعوا .

أنفي وأذني ، ثم تسألني فيم ذاك ؟ ، فأقول : فيك .

عودة المسلمين إلى مركزهم :

ولما عرف المسلمون رسول الله - ﷺ - نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، وأدركه أُبي بن خلف وهو يقول : أي محمد ! لا نجوتُ إن نجوتَ ، وقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا ، تناول رسول الله - ﷺ - الحربة من أحد أصحابه ، ثم استقبله ، وطعنه في عنقه طعنة تقلّب بها عن فرسه مراراً .

وخرج عليّ بن أبي طالب فملأ درقته

ماء [1] ، وغسل عن وجهه الدم ، وكانت فاطمة بنت الرسول - تغسله ، وعليّ يسكب الماء بالمجنّ ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدم .

وكانت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم تنقلان القِرَب على متونهما ، تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآن ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ، وكانت أم سليط تزفر [2] لهما القرب .

ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى ، من المسلمين ، يجدعن

---

(١) الدرقة (بفتحتين) الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عصب .

(٢) تزفر : تستقى

الاذان والآنف ، وبقرت عن كبد حمزة ، فمضغتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعل هبل ، فقال النبي - ﷺ - قم يا عمر ، فأجبه فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، فقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، قال النبي - ﷺ - أجيبوه ! قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

ولما انصرف ، وانصرف المسلمون ، نادى : « إن موعدكم بدر للعام القابل » ، فقال رسول الله - ﷺ - لرجل من أصحابه :

« قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد » .

وفرغ الناس لقتلاهم ، وحزن رسول الله - ﷺ - على حمزة ، وكان عَمَّه وأخاه من الرضاعة والمقاتل دونه .

صبر امرأة مؤمنة :

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله - ﷺ - لابنها الزبير بن العوام : ألقها ، فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمه ! إنّ رسول الله - ﷺ - يأمركِ أن ترجعي ، قالت : ولِم ؟ ، وقد بلغني أن قد مُثّل بأخي ، وذلك في الله ، لأحتسبنّ ولأصبرنّ ، إن شاء الله ، وأتته ، فنظرت

إليه ، وصلّت عليه ، واسترجعت واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله - ﷺ - فدُفِن .

كيف دفن مصعب بن عمير وشهداء أحد :

وقتل مصعب بن عمير صاحب لواء رسول الله - ﷺ - ، ومن أَنْعَمِ فتيان قريش قبل الاسلام ، فكُفِّن في بردة ، إن غُطِّي رأسه ، بدت رجلاه ، وإن غُطِّي رجلاه ، بدت رأسه ، فقال النبي - ﷺ - : غُطُّوا بها رأسه ، واجعلوا على رجله الإذخر (١)

وكان رسول الله - ﷺ - يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد ثم يقول

(١) خشيش طيب الرائحة

أيهم أكثر أخذاً للقرآن ، فاذا أشير له إلى أحد ، قدّمه في اللحد ، وقال أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم يغسّلوا .

إيثار النساء لرسول الله – ﷺ :

عاد المسلمون إلى المدينة ، فمرّوا بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها وأبوها ، مع رسول الله – ﷺ – ، فلما نَعَوْا لها ، قالت : فما فعل رسول الله – ﷺ – ؟ ، قالوا : خيراً يا أم فلان ! هو بحمد الله كما تحبّين ، قالت : أرونيه ، حتى أنظر إليه ، قالت : فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته ، قالت : كل مصيبة بعدك

جلل (١)

خروج الرسول - ﷺ - والمسلمين في أثر العدو واستماتتهم في نصرة الرسول ﷺ :

وتلاوم المشركون وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا ، أصبتم بشوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم (١) ، فأمر رسول الله - ﷺ - بطلب العدو .

هذا ، والمسلمون مُثْخَنون بالجراح ، فلما كان الغد من يوم الأحد ، أذَّن مؤذّن رسول الله - ﷺ - في الناس بالخروج في طلب العدو ، وأذن أن لا يخرجنّ معنا أحد إلا

---

(١) جلل : أي هيّن يسير .

(٢) لم تبتروهم : لم تقطعوهم .

أحد حضر يومنا بالأمس ، وما من المسلمين إلا جريح ثقيل ، فخرجوا مع رسول الله - ﷺ - لم يتخلف منهم أحد ، وانتَهَوا إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها رسول الله - ﷺ - والمسلمون الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجعوا إلى المدينة .

وقد استُشْهِدَ من المسلمين يوم أُحد سبعون ، أكثرهم من الأنصار - رضي الله عنهم - وقُتِلَ من المشركين اثنان وعشرون رجلاً .

أحب إلى النفس من النفس :

وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت عضل

والقارة نفراً من المسلمين ، ليعلموهم ، فبعث معهم رسول الله - ﷺ - ستةً من أصحابه ، معهم عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدسنّة ، فغدروا بالجماعة وقتل أكثرهم .

وأخرجوا زيداً من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان ابن حرب فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ! أتحبّ أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك ، قال : والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحبّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، ثم قتل .

وأما خبيب ، فلما جاؤوا به ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تَدَعُوني حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ، قالوا : دونك ، فاركع ، فركع ركعتين ، أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله ، لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جَزَعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، وأنشد بيتين :

فلست أبالي حين أقتل مسلما
على أيّ شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وان يشأ
يبارك على أوصال [1] شلو [2] ممزّع [3]

(١) أوصال : جمع وصل بفتح الواو ، كل عضو على حدة .
(٢) شلو بكسر الشين : العضو من أعضاء اللحم .
(٣) مزّع الشيء ، فرّقه جِدّ تفريق .

بئر معونة :

بعث رسول الله - ﷺ - نفراً من أصحابه على طلب من عامر بن مالك ليدعوهم إلى الاسلام ، وكانوا سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، واجتمع عليهم قبائل من بني سُلَيم : عصية ، ورعل ، وذكوان ، فغشوا القوم ، وأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوا حتى قُتِلُوا عن آخرهم ، إلاّ كعب ابن زيد ، عاش حتى قُتِل يوم الخندق شهيداً .

كلمة قتيل كانت سبباً لإسلام القاتل :

وفي هذه السرية قتل حَرَام بنِ ملْحَان ،

قتله جبار بن سلمى ، وكان سبب إسلامه كلمة قالها حرام ، وهو يجود بنفسه ، يقول جبار : إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنتُ رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح ، حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فزت وربِّ الكعبة ! فقلت في نفسي : ما فاز؟ ! ألست قد قتلتُ الرجلَ؟ ، حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا : للشهادة ، فقلت : فازِ لعمَر الله ، فكان سبباً لاسلامه .

اجلاء بني النضير :

خرج رسول الله - ﷺ - إلى بني النضير -وهم قبيلة عظيمة من اليهود- يستعينهم في

دية قتيلين من بني عامر ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فرَقُّوا في الكلام ، ووعدوا بخير ، ولكنهم أضمروا الغدر والاغتيال ، وكان رسول الله - ﷺ - قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلْقِي عليه صخرةً فيريحنا منه ؟ ، وكان رسول الله - ﷺ - في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي .

وأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً الى المدينة ، وأمر رسول الله - ﷺ - بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم ، ثم سار بالناس ، حتى نزل بهم ،

وذلك في شهر ربيع الأول ، سنة أربع ، فحاصرهم ست ليال ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم الا السلاح ، فقبل ، واحتملوا من أموالهم ما استقلت بها الإبل .

وقسّم رسول الله - ﷺ - أموالهم إلى المهاجرين الأولين .

غزوة ذات الرقاع :

وفي سنة أربع غزا رسول الله - ﷺ - نجداً ، فسار حتى نزل نخلا ، وقد خرجوا مع النبي - ﷺ - وكانوا ستة بينهم بعير ،

فنقبت أقدامهم ، وسقطت أظفارها ، فكانوا يلفّون على أرجلهم الخرق ، فسمّيت « غزوة ذات الرقاع » .

وتقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً ، حتى صلى رسول الله - ﷺ - بالناس صلاة الخوف .

غزوة الخندق
أو
غزوة الأحزاب

وفي شوال سنة خمس كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، وكانت معركة حاسمة ومحنة ابتلى فيها المسلمون ابتلاءً لم يبتلوا بمثله ، وفيها يقول الله تعالى :

« إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ، هنالك ابتلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديدا [1] » .

(١) سورة الأحزاب – ١١ .

وكان سببها اليهود ، فقد خرج نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، فقدموا على قريش بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله - ﷺ - وكانوا قد جرّبوها ، واكتووا بنارها ، فصاروا يتهيئونها ، ويزهدون فيها ، فزيّنها لهم الوفد اليهودي ، وهوّن أمرها ، وقالوا : انا سنكون معكم حتى نستأصله ، فسرّ ذلك قريشا ، ونشطوا لما دعوهم اليه ، واجتمعوا لذلك ، واتّعدوا له ، ثم خرج الوفد ، فجاء غطفان ، فدعاها الى ذلك ، وطاف في القبائل ، وعرض عليها مشروع غزو المدينة وموافقة قريش عليه .

واتفقوا على شروط ، وحشدت [1]

(١) جمعت .

قريش أربعة آلاف مقاتل ، وغطفان ستة آلاف مقاتل ، فكانوا عشرة آلاف ، وأسندت قيادة الجيش الى أبي سفيان بن حرب .

الحكمة ضالة المؤمن

وقرّر المسلمون التحصّن في المدينة والدفاع عنها ، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل .

هنالك أشار سلمان الفارسي بضرب الخندق على المدينة ، قال سلمان : يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس اذا تخوّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، وقبل رسول الله -ﷺ- رأيه ، فأمر بحفر الخندق في الجانب المكشوف

الذي يخاف منه اقتحام[1] العدوّ .

وقسم رسول الله - ﷺ - الخندق بين أصحابه ، لكل عشرة منهم أربعين ذراعا .

روح المساواة والمواساة بين المسلمين :

وعمل رسول الله - ﷺ - في حفر الخندق ، ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب[2] فيه ودأبوا ، وكان البرد شديدا ، ولا يجدون من القوت الا ما يسدّ الرمق ، وقد لا يجدونه .

يقول أبو طلحة : شكونا الى رسول الله - ﷺ - الجوع ، ورفعنا عن بطوننا عن

(١) هجوم .
(٢) استمرّ في الجدّ والتعب .

حجر حجر ، فرفع رسول الله – ﷺ – عن بطنه عن حجرين .

وكانوا مسرورين ، يحمدون الله ، ويرتجزون ، ولا يشكون ولا يتعتبون .

يقول أنس – رضي الله عنه – : خرج رسول الله – ﷺ – الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال :

اللهم ! إن العيش عيش الآخرة
فاغفر الأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقينا أبدا

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة ، لا تأخذ فيها المعاول ، فشكوا ذلك الى رسول الله - ﷺ - ، فلما رآها أخذ المعول ، وقال : بسم الله ، وضرب ضربة ، فكسر ثلثها ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله اني لأبصر قصورها الحمر ان شاء الله ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثاً آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله اني لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله ، اني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة .

المعجزات النبوية في الغزوة :

وظهرت المعجزات على يد الرسول - ﷺ - فاذا اشتدت على المسلمين في بعض الخندق كدية [1] ، دعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ونضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فانهالت وعادت كالكثيب [2]

وظهرت البركة في طعام قليل ، فشبع به عدد كبير ، وكفى الجيش كله

اذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم :

وأقبلت قريش وغطفان بتوابعهم ، فنزلوا

(١) كدية : الأرض الصلبة الغليظة ، أو الصفاة العظيمة الشديدة .
(٢) الكثيب ، التلّ من الرمل .

أمام المدينة ، وكانوا عشرة آلاف ، وخرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون في ثلاثة آلاف ، وبينه وبين قومه الخندق .

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقد وعهد ، فحملهم حيي بن أخطب - سيد بني النضير - على نقض العهد ، وقد فعل ذلك بعد امتناع وتردّد ، وتحقّقه رسول الله - ﷺ - فعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، وهمَّ رسول الله - ﷺ - بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ، رفقاً بالأنصار ، وتخفيفاً عنهم ، فقد استقلوا بأكبر نصيب من أعباء الحرب .

ثم عدل عن ذلك ، بعدما رأى من

سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، الثبات والاستقامة والصمود أمام العدوّ ، والإباء ، فقال : يا رسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون منها تمرة الا قرى [1] أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله - ﷺ - : فأنت وذاك .

(١) القرى : الضيافة .

بين فارس الاسلام وفارس الجاهلية :

وأقام رسول الله – ﷺ – والمسلمون ، وعدوّهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، الا أن فوارس من قريش أقبلوا تسرع بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا : والله ، ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ! .

ثم تيمّموا مكانا ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمت منه ، فجالت بهم في أرض المدينة ، ومنهم الفارس المشهور : عمرو بن عبد وُدّ ، الذي كان يُقَوَّم بألف فارس ، فلما وقف قال : من يبارز ؟ ، فبرز له عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه –

فقال : يا عمرو ! انك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين ، الا أخذتها منه .

قال : أجل .

قال له علي : فاني أدعوك الى الله وإلى رسوله والى الاسلام .

قال : لا حاجة لي بذلك .

قال : فانى أدعوك الى النزال ، فقال له : لمَ يا ابن أخي ! فوالله ، ما أُحبّ أن أقتلك ، قال له عليّ رضي الله عنه : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره ، وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله عليّ – رضي الله عنه –

أمّ تحرّض ابناً على القتال والشهادة :

تقول عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب- : مرّ سعد بن معاذ ، وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وهو يرتجز ، فقالت له أمه : إلحق ابني ! فقد والله أخّرت ، قالت عائشة -رضي الله عنها- : فقلت لها : يا أم سعد ! والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ، وكان ما تخوّفته عائشة -رضي الله عنها- فَرُمِيَ سعد بن معاذ بسهم ، فقطع منه الأكحل (١) ومات شهيداً في غزوة بني قريظة .

(١) الأكحل . عرق في الذراع .

ولله جنود السماوات والأرض

أحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلهم في مثل الحصن من كتائبهم ، فحاصروهم ، قريباً من شهر ، وأخذوا بكل ناحية ، واشتد البلاء ، وتجهّر النفاق ، واستأذن بعض الناس رسول الله - ﷺ - في الذهاب الى المدينة ، وقالوا : «إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا» .

وبينما رسول الله - ﷺ - وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، اذ جاءه نُعيْم بن مسعود الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ! اني قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول

الله – ﷺ – انما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنّا ، ان استطعت ، فان الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود ، فأتى بني قريظة ، وتكلّم معهم بكلام ، جعلهم يشكون في صحة موقفهم ، وولائهم لقريش وغطفان الذين ليسوا من أهل البلد ، وعدائهم للمهاجرين والأنصار الذين هم أهل الدار ، وجيرانهم الدائمون ، وأشار عليهم بألاّ يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم ، يكونوا بأيديهم ثقة لهم ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته ، وأخبرهم بأن اليهود

قد ندموا على ما فعلوا ، وسيطلبون منهم رجالا من أشرافهم تأميناً للعهد ، وسيسلمونهم الى النبي - ﷺ - وأصحابه ، فيضربون أعناقهم ، ثم خرج الى غطفان ، وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فكان كلا الفريقين على حذر ، وتوغرت صدورهم على اليهود ، ودبّت الفرقة بين الأحزاب ، وتوجّس كل منهم خيفة من صاحبه .

ولما طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين تكاسل اليهود ، وطلبوا منهم رهناً من رجالهم ، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدثهم به نعيم بن مسعود ، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم ، وتحقق لليهود صدق حديثه كذلك ، وهكذا

تخاذل بعضهم عن بعض ، وتمزق الشمل ، وتفرّقت الكلمة .

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تقلب قدورهم وتطرح أبنيتهم ، وقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ! انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف[1] ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فاني مرتحل .

(١) الخفّ : للبعير والنعام ، كالحافر لغيرهما ، والمراد هنا ذو الخف من الحيوان .

وقام أبو سفيان الى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه ، فما أطلق عقاله الا وهو قائم .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا [1] راجعين الى بلادهم ، ورسول الله - ﷺ - قائم يصلي ، وأخبره حذيفة ابن اليمان ، الذي أرسله رسول الله - ﷺ - عيناً الى الأحزاب ، ينظر له ما فعل القوم ، ثم يرجع ، فأخبره بما رأى ، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعاً الى المدينة ، وانصرف المسلمون ، ووضعوا السلاح ، وصدق الله العظيم :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله

(١) انهزموا وانفضوا .

عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا [1] » ، وصدق تبارك وتعالى : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا [2] » .

وقد وضعت الحرب أوزارها ، فلم ترجع قريش بعدها الى حرب المسلمين ، وقال رسول الله - ﷺ - لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم .

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة ، على أكثر تقدير ، وقتل من المشركين اربعة .

(١) سوزة الأحزاب - ٩ .
(٢) سورة الأحزاب - ٢٥ .

غزوة بني قريظة

نقض بني قريظة العهد

كان رسول الله – ﷺ – لما قدم المدينة ، كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم ، وجاء فيه : « أن بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِر دون الإِثم ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

ولكن حي بن أخطب اليهودي سيد بني

النضير نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد ، وممالأة قريش ، بعد ما قال سيدهم كعب بن أسد القرظي : لم أر من محمد الاّ صدقاً ووفاء ، ونقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله - ﷺ - ولما انتهى الى رسول الله - ﷺ - خبر نقضهم للعهد ، بعث سعد بن معاذ - رضي الله عنه - سيد الأوس - وهم حلفاء بني قريظة - وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، في رجال من الأنصار ، ليتحقّقوا الخبر ، فوجدوهم على شرّ ممّا بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله - ﷺ - وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

وبدأوا في الاستعداد للهجوم على

المسلمين ، وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف ، وكان ذلك أشدّ وأنكى من الهجوم السافر والحرب في الميدان ، وذلك قوله تعالى :

« اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم [1] »

واشتد ذلك على المسلمين .

المسير الى بني قريظة

فلما انصرف رسول الله - ﷺ - والمسلمون من الخندق ، راجعين الى المدينة ، ووضعوا السلاح ، أتى جبرئيل وقال : أوَقدْ وضعت السلاح يا رسول الله ! قال : نعم ، فقال

(١) سورة الأحزاب - ١٠ .

جبرئيل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، ان الله عز وجل يأمرك بالمسير الى بني قريظة ، فاني عامد اليهم ، فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله - ﷺ - مؤذناً فأذن في الناس : أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر الاّ في بني قريظة .

ونزل رسول الله - ﷺ - ببني قريظة ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

أتى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله - ﷺ - فشفعت لهم الأوس وكانوا مواليهم دون الخزرج ، فقال رسول الله - ﷺ - :

ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله - ﷺ - : فذاك الى سعد بن معاذ ، فأرسل اليه ، فلما جاء اليه ، قال له بنو قبيلته : يا أبا عمرو ! أحسن في مواليك ، فان رسول الله - ﷺ - انما ولاّك ذلك ، لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه ، قال : لقد أتى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، قال سعد : فاني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء ، قال رسول الله - ﷺ - لقد حكمت فيهم بحكم الله .

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني اسرائيل ، ووافق ما جاء في

التوراة ونفذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ ، وأمن المسلمون من الطعن من الخلف ، ومن نشر الفوضى في الداخل .

وقتلت الخزرج سلام بن أبي الحقيق ، وكان ممن حزّب الأحزاب ، وكانت الأوس قد قتلت من قبل كعب بن الأشرف ، وكان مقدماً في عداوته لرسول الله - ﷺ - والتحريض عليه ، فنجا المسلمون من الرؤوس التي كانت تكيد ضد الاسلام والمسلمين ، وتقود الحركات ضدهم واستراح المسلمون .

العفو عمّن ظلم وعطاء من حرم

بعث رسول الله - ﷺ - خيلا قبل نجد ، فجاءت بثمامة بن أثال سيد بني حنيفة ، فربط

الى سارية من سواري المسجد .

ومرّ به رسول الله - ﷺ - وقال : ما عندك يا ثمامة ؟

قال : يا محمد ! اذ تقتل تقتل ذا دم ، وان تنعم تنعم على شاكر ، وان كنت تريد المال ، فاسأل تعط منه ما شئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، وقال له مثل ذلك فردّ عليه كما ردّ عليه أولا ، ثم مرّ به مرّة ثالثة فقال : أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه .

وذهب ثمامة الى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض اليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه اليّ ، والله ما كان على وجه الأرض

دين أبغض اليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان اليّ ، وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشّره رسول الله - ﷺ - وأمره أن يعتمر .

فلما قدم ثمامة على قريش ، قالوا : صبوت [1] يا ثمامة ! قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد - ﷺ - لا والله ، ما يأتيكم من اليمامة حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله - ﷺ - وكان اليمامة ريف [2] مكة .

فانصرف الى بلاده ، ومنع الحمل الى مكة ، حتى جهدت [3] قريش ، وكتبوا

---

(١) أي خرجت من دينك .
(٢) ريف : الأرض الخصبة التي يأتي منها الطعام .
(٣) جهدت بالبناء للمفعول : هزلت وضعفت .

الى رسول الله – ﷺ – يسألونه بأرحامهم ، أن يكتب الى ثمامة يخلي اليهم حمل الطعام ففعل رسول الله – ﷺ –

صلح الحديبية

رؤيا رسول الله ﷺ وتهيؤ المسلمين لدخول مكة :

كان رسول الله - ﷺ - قد رأى في المنام ، أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فاستبشروا به ، وفرحوا فرحاً عظيماً وقد طال عهدهم بمكة ، والكعبة ، وتاقت نفوسهم الى الطواف حولها .

وكان المهاجرون أشدهم حنيناً الى مكة ، فقد ولدوا ونشأوا فيها ، وأحبوها حباً شديدا ، وقد حيل بينهم وبينها ، فلما أخبرهم

رسول الله - ﷺ - بذلك ، تهيأوا للخروج مع رسول الله - ﷺ - لم يتخلف منهم الا نادر .

الى مكة بعد عهد طويل :

خرج رسول الله - ﷺ - من المدينة في ذي القعدة سنة ست ، معتمراً - لا يريد حرباً - الى الحديبية ، ومعه ألف وخمس مائة ، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة (١) ، ليعلم الناس أنه انما خرج زائراً للبيت ، معظماً له .

وبعث بين يديه عيناً له ، يخبره عن

(١) العمرة : لغة الزيارة ، وفي الشرع : زيارة البيت الحرام بكيفية خاصة وشروط مخصوصة ، وما يقوم به المعتمر من الأعمال هو الاحرام ، والطواف ، والسعي ، والحلق ، والتقصير .

قريش ، حتى اذا كان قريباً من « عسفان »[1] أتاه عينه ، فقال : اني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك ، وصادّوك عن البيت ، وسار النبي - ﷺ - حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ماء قليل ، وشكوا الى رسول الله - ﷺ - العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا[2] عنه .

وفزعت قريش لنزول رسول الله - ﷺ - عليهم ، فأحب أن يبعث اليهم رجلا من أصحابه ، فدعا رسول الله - ﷺ - عثمان

(١) موضع بين جحفة ومكة .

(٢) أي رجعوا عنه وهم رواة .

ابن عفان ، فأرسله الى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا ، وادعهم الى الاسلام ، وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفي فيها بالايمان .

وانطلق عثمان حتى جاء مكة ، وأتى أبا سفيان ، وعظماء قريش ، وبلغهم عن رسول الله – ﷺ – ما أرسله به .

قالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله – ﷺ – اليهم : ان شئت أن تطوف بالبيت ، فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله – ﷺ –

بيعة الرضوان :

بلغ رسول الله - ﷺ - أن عثمان قد قتل ، فدعا الى البيعة ، فثار المسلمون الى رسول الله - ﷺ - وهو تحت الشجرة ، فبايعوه أن لا يفرّوا وأخذ رسول الله - ﷺ - بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان ، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة سمرة في الحديبية ، التي أنزل الله عنها :

« لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة [1] » .

واختلفت أربعة رسل بين قريش وبين رسول الله - ﷺ - ، ورسول الله - ﷺ -

---

(١) سورة الفتح - ١٨ .

يقول لكل واحد : انا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معمرين ، وقريش على عنادها وإبائها .

ومن هؤلاء الرسل عروة بن مسعود الثقفي ، ورجع الى أصحابه وقال : أي قوم ! والله ، لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، ووصف لهم ما رآه .

معاهدة وصلح ، وحكمة وحلم :

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله – ﷺ – مقبلاً قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، وقال :

أكتب بيننا وبينكم كتابا .

فدعا الكاتب -وهو علي بن أبي طالب- (رضي الله عنه) فقال : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ، ولكن أكتب « باسمك اللهم » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها ، إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال النبي - ﷺ - اكتب : « باسمك اللهم ! » .

ثم قال : اكتب « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » .

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك [1] عن البيت ، ولا

(١) ما منعناك .

قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال النبي – ﷺ – اني رسول الله وان كذبتموني ، اكتب : « محمد بن عبد الله » ، فأمر علياً أن يمحوها ، فقال عليّ : لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاها

فقال النبي – ﷺ – هذا ما قاضى عليه رسول الله ، على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب .

قال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل ، وان كان على دينك رددته الينا ، فقال

المسلمون : سبحان الله ! كيف يردّ الى المشركين وقد جاء مسلما ؟ !

وبينا هم كذلك اذ جاء أبو جندل بن سهيل ، يرسف [1] في قيوَده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده .

قال النبي – ﷺ – : إنا لم نقض الكتاب بعد .

قال : فوالله اذاً لا أقاضيك على شيء أبدا ، قال النبي – ﷺ – فأجزه لي .

قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى ، فافعل ، قال : ما أنا بفاعل .

(١) يرسف : جاء يتحامل برجليه مع القيود .

قال أبو جندل : يا معشر المسلمين ! أُردّ الى المشركين ، وقد جئت مسلما ، ألا ترون ما لقيت - وكان عذّب في الله عذاباً شديدا ، وردّه رسول الله - ﷺ .

وقد اصطلح الفريقان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من أتى محمداً - ﷺ - من قريش بغير إذن وليه ، ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد - ﷺ - لم يرده عليه ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد - ﷺ - وعهده ، دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

بلاء المسلمين في الصلح والعودة الى مكة :

فلما رأى المسلمون ما رأوه من الصلح والرجوع ، وما تحمّل عليه رسول الله - ﷺ - في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ، ووقع ذلك من نفوسهم كل موقع [1] ، حتى جاء عمر ابن الخطاب الى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال : ألم يكن رسول الله - ﷺ - يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ ، قال : بلى . فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ ، قال : لا ، قال : فانك آتيه ومطوف به .

فلما فرغ رسول الله - ﷺ - من الصلح ، قام الى هديه ، فنحره ، ثم جلس ، فحلق

(١) يعني أثر فيهم تأثيراً كبيراً

رأسه ، وعظم ذلك على المسلمين ، لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة ، ولكن لما رأوا رسول الله - ﷺ - قد نحر ، وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون .

صلح مهين أو فتح مبين :

ثم رجع الى المدينة ، وفي مرجعه أنزل الله تعالى :

« إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً »[1]

قال عمر - رضي الله عنه - أو فتح هو يا

(١) سورة الفتح - ١ - ٣ .

رسول الله ؟ ، قال : نعم ! .

عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم :

ولما رجع الى المدينة ، جاءه رجل من قريش ، اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه الى الرجلين ، فخرجا به ، فخرج هارباً منهم ، حتى أتى سيف [1] البحر ، وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم ، الا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، لا يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام الا اعترضوا لها ،

(١) سيف البحر : ساحله .

فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش الى النبي - ﷺ - تناشده الله والرحم لما أرسل اليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن .

ودلّت الحوادث الأخيرة على أن صلح الحديبية الذي تنازل فيه رسول الله - ﷺ - لقبول كل ما ألحّت عليه قريش ، ورأوا فيه انتصاراً لهم ومكسبا [١] ، وتحمّله المسلمون في قوة ايمانهم وشدة طاعتهم للرسول - ﷺ - كان فتح باب جديد لانتصار الاسلام وانتشاره في جزيرة العرب بسرعة لم تسبق ، وكان باباً الى فتح مكة ، ودعوة ملوك العالم لقيصر وكسرى ومقوقس وأمراء العرب ، وصدق الله العظيم :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير

(١) مصلحة ومنفعة .

لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون [1] »

اسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص :

وكان صلح الحديبية فتحاً للقلوب ، فدخل في الاسلام خالد بن الوليد ، الذي كان قائد الفرسان لقريش ، وبطل معارك عظيمة ، وقد سمّاه رسول الله – ﷺ – سيف الله وهو الذي أبلى في الله بلاءً حسنا ، وفتح على يده الشام ، ودخل عمرو بن العاص أحد كبار القادة والأمراء ، وفاتح مصر من بعد ، وقد قدما المدينة بعد صلح الحديبية ، فأسلما وحسن اسلامهما .

(١) سورة البقرة – ٢١٦ .

وأتاح هذا الصلح فرصة الإختلاط بين المسلمين والمشركين ، فاطّلع المشركون على محاسن الإسلام وعلى اخلاق المسلمين فلم يمضي على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام خلق كثير .

دعوة الملوك والأمراء الى الاسلام

دعوة وحكمة :

ولما تم الصلح ، وهدأت الأحوال ، كتب رسول الله - ﷺ - كتباً الى ملوك العالم وأمراء العرب ، يدعوهم فيها الى الاسلام ، والى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، واهتم اهتماماً كبيرا ، فاختار لكل واحد منهم رسولا يليق به ، وقيل له : انهم لا يقبلون كتاباً الا بخاتم ، فصاغ رسول الله - ﷺ - خاتماً حلقته فضة ، ونقش فيه « محمد رسول الله » .

تسليم هرقل للاسلام وامتناعه عنه :

ومن هؤلاء الملوك الامبراطور الرومي « هرقل » ، وامبراطور فارس كسرى ابرويز والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر .

فأما هرقل والنجاشي والمقوقس ، فتأدبوا ورقّوا في جوابهم ، وقد أراد هرقل أن يتثبّت في أمر النبي – ﷺ – وبحث عمّن يستخبره في شأنه ، وصادف ذلك وجود أبي سفيان في غزّة ، فأحضر اليه – وقد جاء في تجارة – وكانت استفساراته استفسارات عاقل مجرب ، خبير بتاريخ الديانات ، وخصائص الأنبياء وسيرهم ، وشأن الأمم معهم وسنّة الله في أمرهم ، وصدقه أبو سفيان ،

شأن العرب الأولين ، حياء من أن يؤثر الناس عليه كذبا .

فلما سمع هرقل كل ذلك ، أيقن أنه نبي الله ، وقال : ان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص [١] اليه ، لتجشّمت [٢] لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وأذن لعظماء الروم في القصر ، وأمر بأبوابه فغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، وتبايعوا هذا النبي ، فنفروا وبادروا الى

(١) أخلص اليه : أي أصل اليه .

(٢) لتجشمت لقاءه : أي لتكلفت لقاءه .

الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الايمان ، قال : ردّوهم عليّ ، وقال : اني قلت مقالتي آنفا ، أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه .

فآثر الملك على الهداية ، ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– حروب ومعارك ، كان فيها ذهاب ملكه وسلطانه .

أدب النجاشي والمقوقس :

وأما النجاشي والمقوقس ، فأكرما رسل رسول الله – ﷺ – وكان جوابهما رفيقاً رقيقا ، وأرسل المقوقس هدايا ، منها جاريتان ،

وكانت احداهما مارية أم ابراهيم بن رسول الله - ﷺ - .

غطرسة كسرى وعقابها :

وأما كسرى فارس ، فلما قرىء عليه الكتاب ، مزقه ، وقال : يكتب اليّ هذا وهو عبدي ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : مزّق الله ملكه ، وأمر « كسرى باذان » ، وهو حاكمه على اليمن ، باحضاره ، فأرسل « بأبويه » يقول له : ان ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثني اليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله - ﷺ - بأن الله قد سلّط على كسرى ابنه « شيرويه »

وهكذا كان ، فمزّق الله ملكه ، وملّكه المسلمين ، وهدى أهل إيران للاسلام ، وكتب الى أمراء العرب ، فمنهم من أسلم ومنهم من امتنع .

غزوة خيبر

جائزة من الله :

ان الله - سبحانه وتعالى - بشّر أصحاب بيعة الرضوان - في الحديبية - بالفتح القريب ، والمغانم الكثيرة ، فقال :

« لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيما [1] » .

وكان مقدمة هذه الفتوح والمغانم غزوة

(١) سورة الفتح - ١٨ ، ١٩

خيبر ، فكانت خيبر مستعمرة [1] يهودية تتضمن قلاعاً حصينة ، وقاعدة حربية لليهود ، فأراد رسول الله - ﷺ - أن يستريح منهم ، ويأمن من جهتهم .

وكانت الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منه .

جيش مُؤْمِن تحت قيادة نبي

فأقام رسول الله - ﷺ - بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرَّم ، ثم خرج في بقية المحرم الى خيبر ، وكان عامر بن الأكوع يرتجز في مسيره اليها ، فيقول :

(١) ما تملكته دولة في بلاد غير بلادها .

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصـدَّقنـا ولا صلَّـينـا
إنـا اذا قـوم بغـوا علينـا
وان أرادوا فتنــة أَبَيـنـا
فانـزلـن سكينــة علينـا
وثبـت الأقــدام ان لاقينا

وأقبل بجيشه ، وكانوا ألفاً وأربع مائة ، وكان معهم مائتا فرس ، ولم يأذن لمن تخلف عن الحديبية ، وخرجت عشرون امرأة من نساء الصحابة ، لمداواة المرضى ، وخدمة الجرحى والاسعاف [1] بالماء والطعام ، أثناء القتال .

ودعا رسول الله ـ ﷺ ـ في الطريق

(١) الاعانة والمساعدة .

بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق ، فأمر به فثرى ، فأكل ، وأكل المسلمون ، ودعا رسول الله - ﷺ - لما أشرف على خيبر وسأل الخير ، واستعاذ من شرها ، وشر أهلها ، وكان اذا غزا قوما ، لم يغزهم حتى يصبح ، فان سمع أذاناً أمسك ، وان لم يسمع أذاناً أغار ، فلما أصبح ، لم يسمع أذاناً ، فركب وركب القوم ، واستقبلوا عمّال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم [1] وبمكاتلهم [2] ، فلما رأوا رسول الله - ﷺ - والجيش ، قالوا : محمد والخميس [3] معه ،

(١) المساحى : جمع مسحاة ، المجرفة من الحديد .
(٢) جمع مكتل ، وهي قفة كبيرة .
(٣) الخميس : الجيش .

فأدبروا هرّابا ، فقال رسول الله - ﷺ - : الله أكبر ! خربت خيبر ، إنا اذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .

قائد منصور :

ونازل رسول الله - ﷺ - حصون خيبر ، وبدأ يفتتحها حصناً حصنا ، وكان أول حصن افتتح حصن ناعم ، افتتحه عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد استعصى [1] على المسلمين ، وكان علي بن أبي طالب رمدا [2] ، فقال رسول الله - ﷺ - : ليأخذن الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله ، يفتح

(١) اشتد .
(٢) أي مصاباً بالرمد . والرمد مرض يصيب العين فتهيج وتتألم .

عليه ، وتطاول له كبار الصحابة – رضي الله عنهم – وكل منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك ، ودعا عليا ، وهو يشتكي عينيه ، فأتى ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له ، فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

فقال علي – رضي الله عنه – : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا .

قال رسول الله – ﷺ – : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك من حمر النعم .

بين أسد الله وبطل اليهود :

وأتى عليّ – رضي الله عنه – مدينة خيبر ، فخرج مَرْحَبٌ ، وهو الفارس المشهور ، يرتجز ، فاختلفا ضربتين ، فبدره عليّ بضربة ، ففلق مغفره ورأسه ، ووقع في الأضراس ، وكان الفتح .

عمل قليلا وأجر كثيرا :

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده . فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي ، فوقع في نفسه ذكر النبي ، فأقبل بغنمه الى رسول الله – ﷺ – فقال : ماذا تقول ، وما تدعو

اليه ؟ ، قال : أدعو الى الاسلام ، وأن تشهد أن لا إله الا الله وأني رسول الله ، وأن لا تعبد الا الله ، قال العبد : فما لي ان شهدت وآمنت بالله – عز وجل – ؟ قال : لك الجنة ان مت على ذلك .

فأسلم ، ثم قال : يا نبي الله ! ان هذه الغنم عندي أمانة ، فقال رسول الله – ﷺ – : أخرجها من عندك ، وارمها بالحصباء ، فان الله سيؤدي عنك أمانتك ، ففعل فرجعت الغنم الى سيدها ، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله – ﷺ – في الناس ، فوعظهم ، وحضّهم على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود ، قتل – فيمن قتل – العبد الأسود ، أقبل رسول الله – ﷺ – على أصحابه

فقال : لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصلِّ لله سجدة قط .

ما على هذا اتبعتك :

وجاء رجل من الأعراب الى النبي - ﷺ - فآمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله - ﷺ - شيئا ، فأقسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه اليه ، فقال : ما هذا ؟ ، قالوا : قسم قسمه لك رسول الله - ﷺ - فأخذه ، فجاء به الى النبي - ﷺ - فقال : ما هذا يا رسول الله؟ ، قال : قسم قسمته

لك ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ههنا – وأشار الى حلقه – بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : ان تصدق الله يصدقك .

ثم نهضوا الى قتال العدوّ ، فأتى به الى رسول الله – ﷺ – وهو مقتول ، فقال : أهو هو ؟ ، قالوا : نعم ، قال : صدق الله ، فصدقه ، فكفنه النبي – ﷺ – في جبته ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيداً وأنا عليه شهيد .

شرط البقاء في خيبر :

وافتتحت الحصون حصن بعد حصن ،

بعد قتال وحصار دام أياما ، حتى سألوا رسول الله - ﷺ - الصلح ، وأعطاهم رسول الله - ﷺ - خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر ما بدا لرسول الله - ﷺ - أن يقرهم ، وكان رسول الله - ﷺ - يبعث اليهم عبدالله بن رواحة ، فيخرص عليهم ، ويجعل ذلك نصفين ، فيخيّرهم أن يأخذوا أيهما شاؤوا ، فيقولون بهذا قامت السماوات والأرض .

محاولة أثيمة لليهود :

وفي هذه الغزوة سمّ رسول الله - ﷺ - أهدت له زينب بنت الحرث اليهودية ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مشوية قد سمّتها ،

وسألت أي اللحم أحبّ اليه ؟ ، فقالوا : الذراع ، فأكثرت من السم في الذراع ، فلما انتهش من ذراعها ، أخبره الذراع بأنه مسموم ، فلفظ الأكلة .

وجمع اليهود ، ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم عنه ؟ ، قالوا : نعم ، قال : أجعلتم في هذه الشاة سمّا ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ، قالوا : أردنا ان كنت كاذباً نستريح منك ، وان كنت نبياً لم يضرّك ، وجيء بالمرأة الى رسول الله - ﷺ - فقالت : أردت قتلك ، فقال : ما كان الله ليسلطك عليّ ، قالوا : ألا نقتلها ؟ ، قال : لا ، ولم يتعرّض لها ، ولم يعاقبها .

ولم يقتلها - ﷺ - أولا ، فلما مات

بشر بن البراء بن معرور الذي أكل من هذه الذراع ، قتلها .

فتوح ومغانم :

وبعد ما انتهى رسول الله - ﷺ - من أمر خيبر ، انصرف الى فدك ، ثم جاء الى وادي القرى ، ودعا رسول الله - ﷺ - الى الاسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم ، وحقنوا [1] دماءهم ، وحسابهم على الله .

وأعطى اليهود من غد ما بأيديهم ، وغنم المسلمون أموالا ، وقسم رسول الله - ﷺ - ما أصاب على أصحابه ، بوادي القرى ، وترك

---

(١) صانوا وعصموا .

الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها .

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسول الله – ﷺ – على أهل خيبر وفدك ووادي القرى ، صالحوا رسول الله – ﷺ – وأقاموا بأموالهم ، وانصرف رسول الله – ﷺ – راجعاً الى المدينة .

عمرة القضاة :

ولما كان العام المقبل ، وذلك في سنة سبع ، قدم رسول الله – ﷺ – والمسلمون ، وخلّى قريش بينه وبين مكة ، وأقفلوا بيوتهم ، وطلعوا على الجبل ، وأقام بمكة ثلاثا ، واعتمر ، وهو قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ،

لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ، محلّقين رؤوسكم ومقصّرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا [1] » .

التنافس في حضانة البنت :

وقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الاسلام تغيراً عظيما ، فعادت البنت التي جرت عادة وأدها في الجاهلية حبيبة يتنافس في كفالتها وتربيتها المسلمون .

لما أراد النبي – ﷺ – الخروج من مكة ، تبعته أمامة ابنة حمزة ، تنادي يا عم ! يا عم ! فتناولها علي – رضي الله عنه – فأخذ بيدها ،

(١) سورة الفتح – ٢٧ .

وقال لفاطمة – عليها السلام – دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر ، فقال عليّ : أنا أخذتها ، وهي ابنة عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي ، فقضى بها النبي – ﷺ – لخالتها ، وقال : الخالة بمنزلة الأم ، وقال لعليّ – رضي الله عنه – أنت منيّ وأنا منْك وقال لجعفر : أشبهت خَلقي وخُلقي ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا .

غزوة مؤتة

قتل سفير المسلمين وعقوبته :

بعث رسول الله - ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي بكتابه الى شرحبيل بن عمرو الغسّاني ، حاكم « بصرى » التابع لقيصر ملك الروم ، فأوثقه رباطا ، ثم قدّمه ، فضرب عنقه ، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء عند الملوك والأمراء ، وكان فيه خطر عظيم على الرسل والسفراء ، واهانة شديدة للمرسل والرسالة ، وكان لا بد من تأديب هذا المعتدي .

أول جيش في أرض الروم :

فلما بلغ رسول الله - ﷺ - الخبر ، أراد يبعث بعثا ، الى بصرى وذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ، فتجهّز الناس ، وهم ثلاثة آلاف ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وهو مولى رسول الله - ﷺ - وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار ، وقال : ان أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فان أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة ، فلما حضر خروجهم ، ودّع الناس أمراء رسول الله - ﷺ - وسلموا عليهم ، وكان أمامهم سفر طويل شاق ، وعدوّ ذو شوكة .

ومضى الجيش ، حتى نزل بمعان ،

وبلغ المسلمين أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضمّ اليهم جمع كثير من قبائل العرب ، فأقاموا على « معان » ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب الى رسول الله - ﷺ - فنخبره بعدد عدوّنا ، فاما أن يُمدّنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة :

وشجع الناس عبد الله بن رواحة ، فقال : يا قوم ! والله ان الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون (الشهادة) ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله ، فانطلقوا ، فانما هي

إحدى الحسنيين ، إما ظفر واما شهادة ، فمضى الناس .

قتال المستميتين وصولة الأسود :

فلما كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم الجموع من الروم والعرب ، ودنا العدوّ ، وانحاز المسلمون الى قرية ، يقال لها « مؤتة » والتقى الناس ، واقتتلوا .

وقاتل زيد بن حارثة –رضي الله عنه– براية رسول الله –ﷺ–حتى استشهد ، وقد أخذت الرماح منه كل مأخذ ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى اذا أرهقه القتال ، اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، ثم قاتل فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ،

فاحتضن الراية بعضديه ، حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ، كلها في الأمام .

فلما قتل جعفر ، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، وتقدم بها ، ونزل عن فرسه ، وأتاه ابن عم له بعظم عليه بعض لحم ، وقال : شدّ بهذا صلبك ، فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه بيده ، وأخذ منه بفمه يسيرا ، ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه ، فتقدم وقاتل حتى قتل .

قيادة خالد الحكيمة :

واصطلح الناس بعده على خالد بن الوليد – رضي الله عنه – فأخذ الراية ، ودافع القوم ، وكان شجاعاً حكيما ، يعرف سياسة الحرب ، فانحاز بالجيش الاسلامي الى الجنوب ، وانسحب العدو نحو الشمال ، وجنّ الليل فانصرف بالناس ، وكلا الفريقين اغتنم السلامة ، ورأى المصلحة في عدم التحرّش [1] ومتابعة القتال ، وتهيّب الروم المسلمين بحكمة خالد ، وتقاعسوا .

خبر عيان لا بيان :

وبينما كان المسلمون يخوضون المعركة ،

(١) التحرش . التعرض .

كان رسول الله -ﷺ- يخبر أصحابه في المدينة ، بما يجري في المعركة ، يقول أنس ابن مالك -رضي الله عنه- : ان رسول الله -ﷺ- نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس ، قبل أن يأتيهم خبر ، فقال : أخذ الراية زيد ، فأصيب ، ثم أخذها جعفر ، فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة ، فأصيب وعيناه تذرفان [١] ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم .

الطيار ذو الجناحين :

وقال في جعفر ان الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، ولذلك لقب

(١) تسيلان بالدموع .

بجعفر الطيار وذي الجناحين.

كرّارون لا فرّارون :

ولما دنا الجيش من حول المدينة ، تلقّاهم رسول الله - ﷺ - والمسلمون ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فرار ! فررتم في سبيل الله ، ويقول رسول الله - ﷺ - : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار ، ان شاء الله تعالى .

فتح مكة

تمهيد لفتح مكة :

ولما تم أمر الله في دينه وفي عباده ، أراد أن يدخل رسوله ، والمسلمون مكة ، ويطهروا الكعبة من الأوثان ، فتكون مباركاً وهدى للعالمين ، ويعيدوا مكة الى ما كانت عليه فتكون مثابةً للناس وأمنا .

نقض بني بكر وقريش الحلف :

وقد هيّأ الله لذلك أسبابا ، وساعدت عليها قريش .

كان قد تقرر في صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله– ﷺ – وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، فعل ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله– ﷺ –وعهده .

وكان بين بني بكر وبين خزاعة عداء متوارث ، وجاء الاسلام فحجز بينهم وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كانت الهدنة ، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة ، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فبيت نفر من بني بكر خزاعة ، وهم على ماء لهم ، فأصابوا منهم رجالا ، وتناوشوا واقتتلوا .

وأعانت قريش بني بكر بالسلاح ،

وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلا ، حتى حازوا [1] خزاعة الى الحرم ، فلما انتهوا اليه ، قالت بنو بكر لبعض رجالهم : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ! فقال : لا إله اليوم ! يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك .

الاستغاثة برسول الله ﷺ

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي ، وقدم على رسول الله - ﷺ - المدينة فوقف عليه ، وأنشد ابياتا ، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة ، وسأله النصر ، والنجدة ، ويخبره بأن قريشاً أخلفوه الموعد ، ونقضوا

(١) جعلوها تنحاز إلى الحرم وتلتجىء إليه .

ميثاقه المؤكد ، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم ، وقتلوهم ركَّعاً وسجَّدا ، فقال رسول الله - ﷺ - نُصرتَ يا عمرو بن سالم .

محاولة قريش لتجديد العهد :

وقال رسول الله - ﷺ - للناس حين بلغه الخبر : « كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشد العقد ويزيد في المدة » ، وهكذا كان ، فرهبت قريش مما صنعت

ايثار النبي على الآباء والأبناء :

وقدم أبو سفيان على رسول الله - ﷺ - المدينة ، ودخل على ابنته « أم حبيبة » - زوج النبي - ﷺ - فلما ذهب ليجلس على فراش

رسول الله – ﷺ – طوته عنه ، فقال : يا بنيتي ! ما أدري أرَغِبْتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عنّي ؟ ، قالت : بل هو فراش رسول الله – ﷺ – وأنت مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله – ﷺ – ، قال : والله لقد أصابك يا بنيتي بعدي شرّ .

حيرة أبي سفيان واخفاقه :

وأتى أبو سفيان رسول الله – ﷺ – فكلّمه ، فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب الى أبي بكر ، فكلّمه أن يكلّم له رسول الله – ﷺ – ، فقال : ما أنا بفاعل ، وراود [1]

(١) أي راجعهم وحاول ارضاءهم بكل حيلة .

عمر وعليّاً وفاطمة على ذلك ، فلم يجبه أحد الى ذلك ، وقالوا : ان الأمر أجل منه ، حتى احتار في أمره .

التأهّب لمكة :

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس بالجهاز ، واستعان على أمره بالكتمان ثم أعلم الناس أنه سائر الى مكة ، وأمرهم بالجدّ والتجهّز ، وقال : اللهم ! خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نَبْغَتَها [1] في بلادها ، وخرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف وذلك على رأس ثمان سنين ، ومضى رسول الله — ﷺ — حتى نزل « مرّ الظهران » وعمّى

(١) نبغتها : أي نفاجئها ونأتيها فجأة .

الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب .

العفو عمّن ظلم :

ولقي رسول الله - ﷺ - في الطريق ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأعرض عنه ، لما كان يلقاه منه من شدة الأذى والهجو ، فشكا ذلك الى عليّ ، فقال له : ائت رسول الله - ﷺ - من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا ، وان كنا لخاطئين » ، فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا ، ففعل ذلك ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر

الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، وحسن إسلامه بعد ذلك ، وما رفع رأسه الى رسول الله - ﷺ - منذ أسلم حياء منه .

أبوسفيان بن حرب بين يدي رسول الله ﷺ

وأمر رسول الله - ﷺ - الجيش ، فأوقدوا النيران ، وخرج أبو سفيان بن حرب يتجسّس الأخبار -وهو يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكر -وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ولحق بالعسكر ، فعرف صوت أبي سفيان ، وقال : هذا رسول الله - ﷺ - في الناس ، وإصباح قريش ! فأركبه في عجز بغلته ، وخشي عليه أن

يدركه أحد المسلمين، فيقتله، وأتى به رسول الله - ﷺ - .

فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله الاّ الله؟، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟.

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئا.

قال العباس: ويحك! أسلم، واشهد

أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

عفو عام وأمن بسيط :

ووسّع رسول الله - ﷺ - في الأمن والعفو ، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم الا من زهد في السلامة وكره الحياة ، فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ونهى رسول الله - ﷺ - جيشه عن أن يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة على أي انسان الا من اعترضهم وقاومهم ، وأمر بأن يعفّ الجيش من أموال أهل مكة وممتلكاتهم ، وأن يكفوا أيديهم عنها .

أبو سفيان أمام موكب الفتح :

وأمر رسول الله - ﷺ - عباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب [1] الايمان .

وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج ، وكانت القبائل تمرّ على راياتها ، كلما مرّت قبيلة سأل أبو سفيان عباساً عنها وعن اسم القبائل ، فيقول : ما لي ولبني فلان ، حتى مرّ رسول الله - ﷺ - في كتيبة خضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق [2] من الحديد ، فقال : سبحان الله !

---

(١) جمع كتيبة ، وهي القطعة من الجيش .
(٢) الحدق جمع حدقة وهي السواد المستدير وسط العين والمراد هنا العين مطلقاً .

يا عباس من هؤلاء؟ قال : هذا رسول الله - ﷺ - في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال : يا أبا سفيان ! انها النبوة ، قال : فنعم ، إذاً .

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قِبل (١) لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، ما تغني عنّا دارك؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد .

(١) قبل (بكسر الأول وفتح الثاني) طاقة .

دخول خاشعٍ متواضعٍ لا دخول فاتح متعال :

ودخل رسول الله - ﷺ - مكة ، وهو واضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى ان ذقنه ليكاد يمسّ واسطة الرحل ، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح .

ورفع - في دخوله مكة فاتحاً - كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع ، فأردف أسامة بن زيد ، وهو ابن مولى رسول الله - ﷺ - ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم ، وأبناء أشراف قريش ، وهم كثير .

وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة .

وكلمه رجل يوم الفتح ، فأخذته الرعدة ، فقال : « هوّن عليك ، فاني لست بملك وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد [1] » .

مرحمة لا ملحمة :

ولما مرّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار ، قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشا ، فلما حاذاه رسول الله – ﷺ – في كتيبته ، شكا اليه ذاك أبو سفيان ، قال : يا رسول الله ! ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ ، قال : كذا وكذا .

فاستنكر رسول الله – ﷺ – مقالة سعد ،

(١) هو اللحم المملوح المجفف في الشمس .

وقال : « بل اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشا ، ويعظم الله فيه الكعبة » ، وأرسل الى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه الى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد اذ صار الى ابنه .

مناوشات قليلة :

وكانت مناوشة قليلة بين صفوان بن أمية وعِكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، وبين أصحاب خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلا ، ثم انهزموا وكان رسول الله - ﷺ - قد عهد إلى أمرائهم من المسلمين حين يدخلون مكة : أن لا يقاتلون إلا من قاتلهم .

تطهير الحرم من الأوثان والأصنام :

ولما نزل رسول الله - ﷺ - واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاث مائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدىء وما يعيد ، والأصنام تتساقط على وجوهها .

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل ، فأمر بالصور ، وبالتماثيل فكسرت .

اليوم يوم بر ووفاء :

ولما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، ودخل

وكان قد طلب منه المفتاح يوماً قبل أن يهاجر الى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال : يا عثمان ! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت ، فقال : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت ، فقال : بل عمرت وعزّت يومئذ ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعا ، وظن أن الأمر سيصير الى ما قال .

فلما خرج من الكعبة ، قام اليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة بيده ـ ﷺ ـ ، قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، ﷺ ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أين عثمان بن طلحة ؟ ، فدعي له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ! اليوم

يوم برّ ووفاء ، خذوها خالدة تالدة [1] لا ينزعها منكم الا ظالم .

الإسلام دين توحيد ووحدة :

وفتح رسول الله - ﷺ - باب الكعبة ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضادتي [2] الباب وهم تحته ، فقال : « لا إله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة [3] ومال أو دم ، فهو تحت قدميّ هاتين ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

(١) تالده . خذوها موروثة من القديم .
(٢) عضادتا الباب . خشبتاه من جانبيه .
(٣) مأثرة . مكرمة ومفخرة تؤثر وتروى .

يا معشر قريش ! ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

نبي المحبة ورسول الرحمة

ثم قال رسول الله - ﷺ - : يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ .

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : فاني أقول لكم كما قال يوسف لاخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وأمر بلالا أن يصعد ، فيؤذن على الكعبة ، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلو ، ومكة ترتجّ بالأذان ، ودخل رسول الله - ﷺ - دار أم هاني بنت أبي طالب ، فاغتسل ، وصلّى ثماني ركعات صلاة الفتح ، شكراً لله عليه .

لا تمييز في تنفيذ حدود الله :

وسرقت امرأة من بني مخزوم - اسمها فاطمة - في هذه الغزوة ، ففزع قومها الى أسامة بن زيد ، لمكانته عند رسول الله - ﷺ - يستشفعونه ، فلما كلّم رسول الله - ﷺ - تلوّن [1] وجهه ، وقال : أتكلّمني

(١) تغيّر

في حدّ من حدود الله ؟ ، قال أسامة استغفر لي يا رسول الله ! .

فلما كان العشى ، قام رسول الله — ﷺ — خطيبا ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، فانما هلك الناس قبلكم ، انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف ، أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ثم أمر رسول الله — ﷺ — بتلك المرأة ، فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك .

بيعة على الاسلام :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله

- ﷺ - على الاسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا .

ولما فرغ من بيعة الرجال ، بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنقّبة [1] متنكّرة ، لما كان من صنيعها بحمزة ؛ وعرفها رسول الله - ﷺ - بحديثها الجريء ، وأسلمت وبايعت .

المحيا محياكم والممات مماتكم :

ولما فتح الله مكة على رسوله ، وهي بلده ووطنه ومولده ، تحدّث الأنصار فيما بينهم ، فقالوا : ان رسول الله - ﷺ - قد فتح الله

(١) يعني مرتدية نقابها .

عليه أرضه وبلده ، فهو مقيم بها ، لا يعود الى المدينة .

وسأل رسول الله - ﷺ - الأنصار عن حديثهم ولا يعرفه غيرهم ، فاستحيوا ، ثم أقرّوا به ، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم .

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية :

وبث رسول الله - ﷺ - سراياه الى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها ، منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً إلاّ كسره ، وبعث

رجالا من أصحابه الى القبائل ، فهدموا أصنامها .

وقام رسول الله - ﷺ - في مكة خطيبا ، فأعلن حرمة مكة الى يوم القيامة : « لا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد [1] بها شجرة » ، وقال : « لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي » ، ثم انصرف راجعاً الى المدينة .

أثر فتح مكة :

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب فشرح الله صدر كثير منهم للاسلام ، وصاروا

(١) يعضد : يقطع .

يدخلون فيه أرسالا ، وصدق الله العظيم :

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » .

غزوة حنين

اجتماع هوازن :

وبعد أن تم فتح مكة ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، أطلق العرب السهم الأخير في كنانتهم على الاسلام والمسلمين .

وكانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش ، وكان بينها وبين قريش تنافس ، فلمْ تخضع لما خضعت له قريش .

وقام مالك بن عوف النصري سيد هوازن ، فنادى بالحرب ، واجتمع اليه مع هوازن ثقيف كلها ، وأجمع السير الى

رسول الله - ﷺ - ، وحطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ليثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض .

وخرج رسول الله - ﷺ - ومعه ألفان من أهل مكة ، ومنهم من هو حديث العهد بالاسلام ، ومنهم من لم يسلم ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ، فبلغ عددهم الى ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك ، حتى قال أناس من المسلمين لن نُغْلَب اليوم من قلة ، وأعجبتهم كثرة الناس .

في وادي حنين :

واستقبل المسلمون وادي حنين ، وذلك في عاشر شوال ، سنة ثمان ، وهم ينحدرون

فيه انحداراً في ظلام الصبح ، وكانت هوازن قد سبقتهم الى الوادي ، وكمنوا لهم في شعابه فما راع المسلمين الا أن رشقوهم بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكانوا قوماً رماة .

وانشمر عامة المسلمين راجعين ، لا يلوي منهم أحد على أحد .

وكانت فترة حاسمة ، يوشك أن تدور الدائرة على المسلمين ، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك وكانت شبيهة بما وقع يوم أُحد ، حين طار في الناس أن النبي قد قتل ، وانحسر عنه المسلمون .

الفتح والسكينة :

ولما تم ما أراده الله من تأديب المسلمين

الذين أعجبتهم الكثرة ، وأذاقهم الله مرارة الهزيمة بعد حلاوة الفتح ، ردّ لهم الكرّة على الأعداء ، وأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وكان رسول الله - ﷺ - واقفاً في موقفه ، على بغلته الشهباء [1] غير وجل ولا هياب ، وقد بقي معه نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، والعباس بن عبد المطلب ، أخذ بِحَكَمِة [2] بغلته ورسول الله - ﷺ - يقول :

«أنا النبي لا كذب
أنا ابن عبد المطلب»

ولما استقبلته كتائب المشركين ، أخذ

(١) البيضاء .

(٢) الحكمة : هي حديدة تكون في أنف الفرس وحنكه ، تمنعه عن مخالفة راكبه .

قبضة من تراب ، ورمى بها الى عيون الأعداء الى البعد ، فملأت أعين القوم.

ولما رأى انشغال الناس بأنفسهم ، قال : يا عباس ! أصرخ : يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة ! فأجابوا : لبيك ، لبيك ، -وكان رجلا صيتا- فيؤمّ الرجل الصوت ، ويقتحم عن بعيره ، ويأخذ سيفه وترسه ، حتى ينتهي الى رسول الله -ﷺ- حتى اذا اجتمع اليه منهم طائفة ، استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله -ﷺ- في ركائبه.

واجتلد الناس ، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأساري مكتّفين عند رسول الله -ﷺ- ، وأنزل الله ملائكته

بالنصر ، فامتلأ بهم الوادي ، وتمت هزيمة هوازن ، وذلك قوله تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حُنين ، اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبت ، ثم ولّيتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لّم تروها ، وعذّب الذين كفروا وذلك جزآء الكافرين [1] » .

(١) سورة التوبة – ٢٥ ، ٢٦

غزوة الطائف

فلول ثقيف :

وقدم فلول ثقيف الطائف ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها ، ورمّوا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، وأعدّوا للحرب عدتها ، فسار رسول الله - ﷺ - اليهم ومضى حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به عسكره ، وكان العسكر قريباً من حائط الطائف ، ولم يقدروا على أن يدخلوه ، فقد أغلقوه دونهم ، ورمت ثقيف المسلمين بالنبل رمياً شديدا ، كأنه رِجْلُ جراد ،

وكانوا رماة .

حصار الطائف :

فنقل العسكر الى مكان آخر ، وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة ، وقاتلهم قتالا شديداً وتراموا بالنبل ، واستخدم رسول الله - ﷺ - في هذا الحصار ، المنجنيق [1] لأول مرة ، واشتدّ الحصار ، وقتل رجال من المسلمين بالنبل .

الرحمة في ميدان الحرب :

ولما ضاق الحصار ، وطالت الحرب ، أمر رسول الله - ﷺ - بقطع أعناب ثقيف ، وهي مما يعتمدون عليها في معاشهم ، ووقع

(١) المنجنيق (بفتح الميم والجيم وسكون النون) . آلة ترمى بها الحجارة .

الناس فيها يقطعون ، فسألوه أن يدعها لله ، وللرحم ، فقال رسول الله - ﷺ - فاني أدعها لله وللرحم .

ونادى منادي رسول الله - ﷺ - أيما عبد نزل من الحصن ، وخرج الينا فهو حرّ ، فخرج منهم بضعة عشر رجلا .

ولم يؤذن لرسول الله - ﷺ - في فتح الطائف ، فأمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأذّن في الناس بالرحيل ، فضجّ الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ، فقال رسول الله - ﷺ - فاغدوا على القتال ، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله - ﷺ - : انا قافلون غداً ان شاء الله ، فسرّوا .

رفع الحصار :

ولم يؤذن لرسول الله - ﷺ - في فتح الطائف ، وأراد أن يدخلوا في الاسلام طائعين ، فأذن في الناس بالرحيل .

سبايا حنين ومغانمها :

ونزل رسول الله - ﷺ - الجعرانة فيمن معه من الناس ، واستأنى بهوازن ، أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة ، ثم بدأ بالأموال ، فقسمها ، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم أول الناس .

ردّ السبايا على هوازن :

وقدم وفد هوازن على رسول الله - ﷺ -

وهم أربعة عشر رجلا ، فسألوه أن يمنّ عليهم بالسبي والأموال ، فقال : ان معي من ترون . وأن أحب الحديث الى أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟.

قالوا : ما كنا نعدل بالأبناء والنساء شيئا ، وقال : اذا صليت الغداة ، فقوموا ، فقولوا : إنا نستشفع برسول الله – ﷺ – الى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين الى رسول الله – ﷺ – أن يردّ علينا سبينا ، فلما صلى الغداة ، قاموا ، فقالوا ذلك فقال رسول الله – ﷺ – : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله – ﷺ – .

وأبى ثلاثة من بني تميم وبني فزارة وبني سليم أن يتنازلوا عن سبيهم ، فقال رسول الله - ﷺ - ان هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان عنده منهن شيء ، فطابت نفسه بأن يردّه فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض ، من أول ما يفيىء الله علينا .

فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله - ﷺ - ، فقال : انا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض ، فارجعوا ، حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ولم يتخلف منهم أحد ، وكسا

رسول الله - ﷺ - السبي قبطية [1] قبطية .

رقة وكرم :

وكان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه الى رسول الله - ﷺ - الشيماء بنت حليمة السعدية أخت رسول الله - ﷺ - من الرضاعة ، وعنفوا عليها في السوق وهم لا يدرون ، فقالت للمسلمين : تعلمون والله اني لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها الى رسول الله - ﷺ - .

ولما انتهت الشيماء الى رسول الله - ﷺ - قالت : يا رسول الله ! اني اختك من الرضاعة ، قال ما علامة ذلك ؟ ، قالت :

---

(١) قبطية : بضم القاف ، وهي ثياب من مصر رقيقة بيضاء .

عضة عضضتنيها في ظهري ، وأنا متوركتك [1] ، وعرف رسول الله - ﷺ - العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيّرها ، وقال : ان أحببت فعندي محببة مكرمة ، وان أحببت أن أمتعك وترجعي الى قومك فعلت ، فقالت : بل تمتعني وتردني الى قومي ، ومتعها رسول الله - ﷺ - فأسلمت ، وأعطاها رسول الله - ﷺ - ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاة .

طائعون لا كارهون :

ولما ارتحل المسلمون من الطائف ، واستقبلوا ، قال رسول الله ﷺ : قولوا :

(١) يعني حاملتك على وركي

آئبون ، تائبون ، عابدون لربنا ، حامدون ، قيل يا رسول الله ! ادُع الله على ثقيف ، قال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم .

لحق عروة بن مسعود الثقفي ، وأدرك رسول الله ﷺ قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم ، ورجع يدعو قومه الى الاسلام ، وكان محبباً اليهم ، صاحب منزلة فيهم ، فلما دعاهم الى الاسلام ، وأظهر عليهم دينه ، رموه بالنبل ، فقتل شهيدا .

وأقام ثقيف بعد قتله أشهرا ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا ، فأرسلوا وفداً الى رسول الله ﷺ

لا هوادة مع الوثنية :

وقدموا على رسول الله - ﷺ - وضرب عليهم قبّة [1] في ناحية مسجده، وأسلموا وسألوا رسول الله - ﷺ - أن يدع لهم اللاَّت، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله - ﷺ - عليهم، وما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم رسول الله - ﷺ - حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة - وهو من قومهم - يهدمانها وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، فقال : لا خير في دين لا صلاة فيه .

(١) هي بيت صغير من الخيام .

ولما فرغوا من أمرهم وتوجّهوا الى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الاسلام في ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم .

غزوة تبوك

كان العرب لا يحلمون بغزو الروم والزحف عليهم ، بل كانوا يرون أنفسهم أصغر من ذلك .

وقد كان الروم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة ، التي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها .

ورأى رسول الله – ﷺ – أن يتقدم بجيش المسلمين الى بلاد الروم ويدخل فيها قبل أن تدخل الجيوش الرومية حدود العرب ، وتتحدّى مركز الاسلام .

زمن الغزوة :

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع «غزاها رسول الله -ﷺ- في حرّ شديد، حين طابت الثمار والظلال، واستقبل سفراً بعيدا، ومغاراً [1]، وعدواً كثيرا، فجلّى [2] للمسلمين أمرهم، ليتأهّبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، وكان الزمن زمن عسرة الناس، وجدب البلاد».

وتعلّل المنافقون بعلل، وكرهوا الخروج مع رسول الله -ﷺ- اشفاقاً من العدو القوي القاهر، وفراراً من الحرّ الشديد، وزهادة في الجهاد، وشكّاً في الحق، وفي

(١) فلاة لا ماء فيها.
(٢) فأوضح.

ذلك يقول الله تعالى : « فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون [1] .

تنافس الصحابة في الجهاد والمسير :

وجدّ رسول الله - ﷺ - في سفره ، وأمر الناس بالجهاز ، وحضّ أهل الغنى على النفقة في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى عدداً من المسلمين الذين لا يملكون زاداً ولا راحلة ، واحتسبوا ، وجهّز عثمان ابن عفان جيش العسرة ، وأنفق ألف دينار ،

(١) سورة التوبة - ٨١ .

ودعا له رسول الله - ﷺ -

مسير الجيش الى تبوك :

خرج رسول الله - ﷺ - في ثلاثين ألفاً من الناس ، من المدينة الى تبوك وكان أكبر جيش خرج به في غزوة .

ونزل بـ « الحجر » ديار ثمود ، وأخبرهم بأنها ديار المُعَذَّبين وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم » .

وأصبح الناس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك الى رسول الله - ﷺ - فدعا ، فأرسل الله - سبحانه - سحابة ، فأمطرت ، حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

عودة الرسول الى المدينة :

ولما انتهى رسول الله - ﷺ - الى تبوك ، أتاه أمراء من العرب ، مقيمون بالحدود ، فصالحوا رسول الله - ﷺ - وأعطوه الجزية ، وكتب لبعضهم رسول الله - ﷺ - كتاب أمن فيه شرط كفالة الحدود ، وتأمين المياه والطرق والضمان لسلامة الفريقين .

وهنا بلغ أمر انسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود ، فلم ير رسول الله - ﷺ - محلاً لتتبعهم داخل بلادهم ، وقد تحقق الغرض .

وأقام رسول الله - ﷺ - بـ « تبوك » بضع عشرة ليلة ، ثم انصرف قافلاً الى المدينة .

ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه :

وكان من بين من تخلف عن هذه الغزوة ، كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الاسلام ، وكان مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ممن شَهِدا بدرا ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم ، ولم يكن ذلك الا من حكمة إلهية ، وتمحيصاً لأنفسهم ، وتربية للمسلمين ، وانما هو التسويف ، وضعفُ الارادة ، والاعتماد الزائد على الوسائل الموجودة . .

ونهى رسول الله - ﷺ - عن كلامهم ، وما كان من المسلمين الا السمع والطاعة ،

فاجتنبهم الناس ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة ، وكان كعب بن مالك يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق ولا يكلمه أحد ، ولم يزده هذا العتاب الا رسوخاً في المحبة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدّى الى أزواج هؤلاء الثلاثة ، فأمروا أن يعتزلوهنّ ففعلوا .

وفي هذا الحال دعا ملك غسان كعب إبن مالك الى عاصمته ليكرمه وينعم عليه فجاءه رسوله ودفع اليه كتاباً منه ، فما كان من كعب الاّ أن قصد به تنوراً ورماه فيه .

ولما تمّ ما أراده الله من تمحيص هؤلاء الثلاثة المؤمنين ، وقد ضاقت عليهم أنفسهم ،

وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، أفرج عنهم وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات ، فقال :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، انه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله الاّ اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا.إن الله هو التّواب الرحيم [1] » .

(١) سورة التوبة – ١١٧ . ١١٨ .

غزوة تبوك آخر غزوة :

وبغزوة تبوك انتهت الغزوات النبوية ، التي بلغ عددها سبعاً وعشرين غزوة ، والبعوث والسرايا ، التي بلغ عددها ستين -ولم يكن في كلها قتال ، ولم تتجاوز قتلاها كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين ، وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها الا الله ، باسطة الأمن في ارجاء الجزيرة ، حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً الا الله » . .

أول حجّ في الاسلام ونزول البراءة :

وفرض الحج سنة تسع ، وبعث رسول

الله – ﷺ – أبا بكر أميراً للحج في هذه السنة ، ليقيم للمسلمين حجهم ، وخرج مع أبي بكر من أراد الحج من المسلمين في ثلاث مائة رجل من المدينة ، ودعا رسول الله – ﷺ – علي بن أبي طالب ، فقال له : أخرج وأذّن في الناس يوم النحر أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

عام الوفود

تقاطر الوفود الى المدينة :

وبعد أن فتح الله مكة ، وعاد نبيّه من تبوك ، سالماً غانما ، تقاطرت الوفود الى مركز الاسلام ، وكانت تعود الى مواطنها مع حماس في الدعوة الى الاسلام ، وكراهة شديدة للوثنية وآثارها ، والجاهلية وشعائرها .

وقدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن بني سعد ابن بكر ، ورجع الى قومه داعيا ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزّى ، قالوا : مه يا ضمام اتَّق البرص ،

اتق الجذام ، واتق الجنون ، وقال : ويلكم ! انهما والله لا يضران ولا ينفعان ، ان الله قد بعث رسولا ، ونزّل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله الا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده ، بما أمركم به وما نهاكم عنه ، فما أمسى من ذلك اليوم في حيّه رجل ولا امرأة إلا مسلما .

وقدم عدي بن حاتم الجواد المشهور ، وأسلم بعدما رأى أخلاق رسول الله ﷺ وتواضعه ، حتى قال : والله ما هذا بأمر ملك .

وبعث رسول الله – ﷺ – معاذ بن جبل وأبا موسى الى اليمن ، للدعوة الى الاسلام ، وأوصاهما وقال : يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا

ولا تنفّرا.

وبعث رسول الله - ﷺ - المغيرة بن شعبة الى الطائف فكسر اللات، ثم علا أعلى سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها، حجراً حجرا، حتى سوّوها بالأرض، وأقبل الوفد حتى دخل على رسول الله - ﷺ - من يومه وحمده.

وكانت الوفود تتعلم الاسلام، وتتفقّه في الدين، ويشهدون أخلاق رسول الله ﷺ، وعشرة أصحابه، وقد تضرب لهم خيم في فناء المسجد، فيسمعون القرآن، ويرون المسلمين يصلّون، ويسألون رسول الله ﷺ، عمّا يجول في خاطرهم في بساطة وصراحة، ويجيبهم رسول الله - ﷺ - في

بلاغة وحكمة ، ويستشهد بالقرآن فيؤمنون ، ويطمئنون .

فرض الزكاة والصدقات :

وفي السنة التاسعة للهجرة فرضت الزكاة .

حِجة الوَداع

أوان حجة الوداع :

ولما تم ما أراده الله ، من تطهير بيته ، من الرجس والأوثان ، وتاقت نفوس المسلمين الى الحج ، وقد بعد عهدهم عنه ، وطفحت [1] كأس الحب والحنان ، ودنت ساعة الفراق ، وألجأت الضرورة الى وداع الأمة ، أذن الله لنبيِّه في الحج –ولم يكن قد حجّ ﷺ ، في الاسلام– .

فخرج من المدينة ليحج البيت ، ويلقى

(١) امتلأت وفاضت .

المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ويمحو آثار الجاهلية ، ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه ، وحجّ معه أكثر من مائة ألف إنسان وسميت هذه الحجة بـ « حجة الوداع » و « حجة البلاغ » .

كيف حج النبي ﷺ

عزم رسول الله - ﷺ - على الحج ، وأعلم الناس أنه حاجّ ، فتجهّزوا للخروج معه

وسمع بذلك مَن حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج ، مع رسول الله - ﷺ - ووافاه في الطريق خلائق لا يُحْصَوْن ،

فكانوا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، مدّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت ، بعد أن صلى الظهر بها أربعا ، وخطبهم قبل ذلك خطبة ، علمهم فيها الإحرام [1] وواجباته وسننه .

ثم سار وهو يلبّي ، ويقول : لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك ، ودخل مكة في رابع ذي الحجة ، ودخل المسجد الحرام ، وطاف بالبيت ، وسعى

(١) الاحرام : في اللغة ، المنع . وفي الشرع ، هو الاهلال بالحج أو العمرة ومباشرة أسبابهما من خلع الملابس المخيطة والاجتناب من الأشياء التي منع الشرع منها ، كالطيب والنكاح والصيد وما إلى ذلك .

بين الصفا والمروة ، وأقام بمكة أربعة أيام ، ثم توجّه يوم التروية [1] (ثامن ذي الحجة) توجه بمن معه من المسلمين الى منى ، ونزل بها ، وصلى بها الظهر والعصر ، وبات بها .

فلما طلعت شمس اليوم التاسع من ذي الحجة ، سار من منى الى عرفة ، وكان يوم جمعة فنزل بها .

وخطب الناس يوم عرفة وهو على راحلته ، خطبة عظيمة ، قرر فيها قواعد الاسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرّر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت المِلَلُ على تحريمها وهي الدماء والأموال

(١) يوم التروية : ثامن ذي الحجة ، لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ، ويستقون ويسقون .

والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله ، وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا ، وذكر الحق الذي لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف .

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لم يضلّوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت ، فرفع إصبعه الى السماء ، واستشهد الله عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلّغ شاهدهم غائبهم .

فلما أتم الخطبة ، أمر بلالاً فأذّن ، ثم

أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضا .

فلما فرغ من صلاته ، ركب حتى أتى الموقف [1] ، فوقف ، وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء والتضرُّع والابتهال الى غروب الشمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه الى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيها : « اللهم ! انك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث [2] ، المستجير [3] ، والوجل [4] المشفق [5] ، المقر

(١) محل الوقوف من عرفة .
(٢) المستنصر .
(٣) الملتجىء .
(٤) و (٥) الخائف .

المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ، ورغِم أنفه لك ، اللهم ! لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفاً رحيما ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين » .

وهناك أنزلت عليه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا [1] » .

فلما غربت الشمس ، أفاض [2] من عرفة ، حتى أتى المزدلفة ، وصلى هنالك

(١) سورة المائدة – ٣ .

(٢) الافاضة : الزحف والدفع في السير بكثرة .

المغرب والعشاء ، ثم نام حتى أصبح ، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ، ثم ركب ، حتى أتى المشعر [1] الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل ، ثم سار من مزدلفة قبل طلوع الشمس ، وأسرع في السير حتى أتى منى ، فأتى جمرة العقبة [2] ، فرماها .

ثم رجع الى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ،

(١) موضع في المزدلفة .
(٢) الموضع الذي يرمى بالجمار (أي الأحجار الصغار) ، والعقبة مكان في منى تقع فيه الجمرة الثالثة .

وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفارا ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وقال في خطبته تلك : « اعبدوا ربكم ، وصلّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » ، وودّع حينئذ الناس ، فقالوا . « حجة الوداع » .

ثم انصرف الى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة [1] بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة ، فلما أكمل - ﷺ - نحره ، استدعى بالحلاّق ،

(١) البدنة : ـي من الجمل والناقة والبقرة ما يهدى الى بيت الله ولا يركب .

فحلق رأسه ، وقسم شعره بين من يليه ، ثم أفاض الى مكة راكبا ، وطاف طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، ثم أتى زمزم ، فشرب وهو قائم ، ثم رجع الى منى من يومه ذلك فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت ، مشى من رحله الى الجمار (١) ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم الجمرة الثالثة ، وهي جمرة العقبة .

وتأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق (٢)

(١) أي الجمرات الثلاث . وتطلق على الصغار من الحصى أيضا .

(٢) أيام التشريق ، أصل التشريق هو تقديد اللحم وتجفيفه في الشمس . سميت الأيام الثلاثة (العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر) من ذي الحجة بأيام التشريق لأن لحوم الأضاحي كانت تشرق فيها بمنى .

الثلاثة ، ثم نهض الى مكة ، فطاف للوداع ليلاً سحرا ، وأمر الناس بالرحيل ، وتوجه الى المدينة .

فلما أتى ذا الحُليفة ، بات بها ، فلما رأى المدينة ، كبّر ثلاث مرات ، وقال : « لا إله الا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آئبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم دخلها نهارا .

الوفاة

كمال مهمة التبليغ والتشريع ودنوّ ساعة اللقاء :

ولما بلغ هذا الدين ذروة الكمال ، ونزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دِينا [1] » ، وبلّغ رسول الله – ﷺ – الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وأقرّ الله عين نبيه بدخولِ الناس في هذا الدين أفواجا ، أذِن الله لنبيِّه بفراق هذا العالم ودنت ساعة اللقاء ، وأعلم بذلك فقال :

(١) سورة المائدة – ٣ .

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبّح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توّابا [1] » .

شكوى رسول الله ﷺ

وقد ابتدأ شكوى رسول الله- ﷺ - في آخر شهر صفر ، وكان مبدأ ذلك أنه - ﷺ - خرج الى « بقيع الغرقد [2] » من جوف الليل ، فاستغفر لهم ثم رجع الى أهله ، فلما أصبح ابتدىء بوجعه من يومه ذلك .

قالت عائشة-أم المؤمنين (رضي الله عنها) - : رجع رسول الله - ﷺ - من البقيع ، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي ،

(١) سورة النصر - ١ - ٣ .

(٢) مقبرة بالمدينة المنورة تسمى الآن بـ« البقيع » .

وأنا أقول : وارأساه ! فقال بل أنا والله يا عائشة وارأساه ! ، واشتد به وجعه ، وهو في بيت ميمونة - رضي الله عنها - فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرّض في بيت عائشة ، فأَذِنَّ له ، وخرج يمشي بين رجلين من أهله ، أحدهما فضل بن عباس ، والآخر علي بن أبي طالب عاصباً رأسه ، تخطّ قدماه ، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها .

تقول عائشة - رضي الله عنها - وكان يقول في مرضعه الذي مات فيه : «يا عائشة ! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بـ «خيبر» ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري [1] من ذلك السمّ .

(١) الأبهر . عرق مستبطن بالصلب يتصل بالقلب ، فاذا انقطع مات صاحبه .

آخر البعوث :

وبعث رسول الله - ﷺ - أسامة بن زيد بن الحارثة الى الشام ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء و « الدارون » من أرض فلسطين .

وانتدب كثيراً من الكبار من المهاجرين والأنصار في جيشه ، كان من أكبرهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعثه رسول الله - ﷺ - ، واشتد به المرض ، وجيش أسامة مخيم بـ « الجرف » ، ونفّذ أبو بكر جيش أسامة بعد وفاة الرسول - ﷺ - تحقيقاً لرغبته ، واكمالاً لمراده .

وأوصى المسلمين في مرضه أن يجيزوا الوفد بنحو ممّا كان يجيزهم به ، وأن لا يتركوا

في جزيرة العرب دينين ، قال : « أخرجوا منها المشركين » .

دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلو والكبرياء :

وفي يوم من أيام شكواه ، اجتمع نفر من المسلمين في بيت عائشة ، فرحّب بهم رسول الله – ﷺ – وحيّاهم ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق ، وقال : أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، واستخلفه عليكم ، اني لكم منه نذير مبين ، أن لا تعلو على الله في عباده وبلاده ، فان الله قال لي ولكم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة

للمتّقين [1] ، وقال : « أليس في جهنم مثوىً للمتكبّرين [2] » .

زهد في الدنيا وكراهة لما فضل من المال :

قالت عائشة : قال رسول الله - ﷺ - في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ! ما فعلت الذهب ؟ » فجاءت ما بين الخمسة الى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلبها بيده ويقول : ما ظن محمد بالله عز وجل ، لو لقيه وهذه عنده ، أنفقيها .

اهتمام بالصلاة وإمامة أبي بكر :

وثقل برسول الله - ﷺ - وجعه فقال :

(١) سورة القصص - ٨٣ .
(٢) سورة الزمر - ٦٠ .

أصلى الناس ؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! فقال : ضعوا الي ماء في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! قال : ضعوا لي ماء في المخضب [1] ، ففعلوا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! قال : ضعوا لي ماء في المخضب ، ففعلوا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! ،

(١) وعاء مثل المركن يغسل فيه الثياب .

والناس عكوف [1] في المسجد ينتظرون رسول الله - ﷺ - لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله - ﷺ - الى أبي بكر بأن يصلي بالناس ، وكان أبو بكر رجلا رقيقا ، فقال : يا عمر ! صلّ بالناس ، فقال : أنت أحق بذلك ، فصلى بهم تلك الأيام .

ثم ان رسول الله - ﷺ - وجد خفّة ، فخرج بين رجلين ، أحدهما العبّاس ، (والآخر علي بن طالب) - رضي الله عنهما - لصلاة الظهر ، فلما رآه أبو بكر ، ذهب ليتأخر فأومأ اليه أن لا يتأخر ، وأمرهما ، فأجلساه الى جنبه ، فجعل أبو بكر يصلي قائما ، ورسول الله - ﷺ - يصلي قاعدا .

(١) جمع عاكف . مقيمون .

خطبة الوداع :

وكان فيما تكلم به رسول الله - ﷺ - وهو جالس على المنبر ، عاصباً رأسه «أن عبداً من عباد الله ، خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » ، وفهم أبو بكر معنى هذه الكلمة ، وعرف أن رسول الله - ﷺ - يعني نفسه ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

آخر نظرة الى المسلمين وهم صفوف في الصلاة

وكان أبو بكر يصلي بالمسلمين ، حتى اذا كان يوم الاثنين ، وهم صفوف في صلاة الفجر كشف النبي - ﷺ - ستر الحجرة ،

ينظر الى المسلمين ، وهم وقوف أمام ربهم ، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده ، فملىء من السرور ما الله به عليم ، واستنار وجهه وهو منير ، يقول الصحابة – رضي الله عنهم – :

« كشف النبي – ﷺ – ستر حجرة عائشة ، ينظر الينا وهو قائم ، كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسّم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح ، وظننا أن النبي – ﷺ – خارج الى الصلاة ، فأشار الينا أن أتمّوا صلاتكم ، وأرخى الستر ، وتوفي من يومه – ﷺ –

تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد :

كان آخر ما تكلم به رسول الله – ﷺ –

أن قال : قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يبقين دينان على أرض العرب .

تقول عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم - : لما نزل برسول الله - ﷺ - طفق يطرح خميصة [1] له على وجهه ، فاذا اغتمّ كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذّر ما صنعوا .

الوصية الأخيرة :

كانت عامة وصية رسول الله - ﷺ - حين حضره الوفاة « الصلاة وما ملكت

(١) الخميصة . كساء أسود مربّع له علمان .

أيمانكم » ، حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه .

ويقول عليّ -رضي الله عنه- : أوصى رسول الله - ﷺ - بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم .

وتقول عائشة -رضي الله عنها- ذهبت أعوّذه ، فرفع بصره الى السماء ، وقال : في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى .

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ، وبيده جريدة (١) رطبة ، فنظر اليها ، فظننت أن له بها حاجة ، قالت : فأخذتها فنفضتها ، فدفعتها اليه ، فاستنّ بها أحسن ما كان مستنّا ، ثم ذهب يناولنيها ، فسقطت من يده .

---

(٢) الجريدة قضيب النخل المجرد من الخوص .

قالت : وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ، ثم يقول : لا إله الا الله ، ان للموت لسكرات ، ثم نصب اصبعه اليسرى ، وجعل يقول : في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى ، حتى قبض ، ومالت يده في الماء .

وقالت : نزل برسول الله - ﷺ - ورأسه على فخذي ، غشي عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص [1] بصره الى سقف البيت ، فقال : اللهم الرفيق الأعلى ، وكانت آخر كلمة تكلّم بها رسول الله - ﷺ -

كيف فارق رسول الله ﷺ الدنيا :

فارق رسول الله - ﷺ - الدنيا ، وهو

(١) أي رفع بصره ولم يطرق

يحكم جزيرة العرب ، ويرهبه ملوك الدنيا ، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهما ، ولا عبداً ولا أَمَة ، ولا شيئا ، الا بغلته البيضاء وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة .

وتوفي ودرعه مرهونة عند يهوديّ بثلاثين صاعاً من شعير ، ما وجد ما يفتكّ به حتى مات - ﷺ - .

أعتق رسول الله - ﷺ - في مرضه هذا أربعين نفسا ، وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة - رضي الله عنها - أن تتصدق بها

• تقول عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - : توفي رسول الله - ﷺ - وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رفّ (١) لي ، فأكلت منه . حتى طال عليّ ،

(١) رفّ : هو خشبة عريضة يغرز طرفاها في الجدار وتوضع عليها الأشياء ، وهو يشبه الطاق .

فكلته ففني .

وكان ذلك في يوم الاثنين ، ١٢/ ربيع الأول . سنة ١١/ للهجرة بعد الزوال ، وله - ﷺ - ثلاث وستون سنة ، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصاباً على المسلمين ومحنة للانسانية ، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

يقول أنس وأبو سعيد الخدري - رضي الله عنهما - : كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وبكت أُم أيمن فقيل لها : ما يبكيك على النبي - ﷺ - ؟ قالت : اني قد علمت أن رسول الله ﷺ سيموت ، ولكن انما أبكي على الوحي الذي رفع عنّا .

كيف تلقّى الصحابة نبأ الوفاة :

ونزل نبأ وفاة رسول الله – ﷺ – على الصحابة كالصاعقة لشدة حبّهم له ، وما تعوّدوه من العيش في كنفه ، عيش الأبناء في حجر الآباء وكنفهم ، بل أكثر من ذلك ، قد قال الله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم [1] » .

وقد كان كل واحد منهم يحسب أنه أكرم عليه وأحبّ لديه من صاحبه ، ولم يكد بعضهم يصدّق بنبأ وفاته ، وكان في مقدمتهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فأنكر على من قال : مات رسول الله – ﷺ –

(١) سورة التوبة – ١٢٨ .

وخرج الى المسجد . وخطب الناس وقال : ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يموت حتى يفني الله المنافقين .

موقف أبي بكر الحاسم :

وكان أبو بكر رضي الله عنه - رجل الساعة المطلوب ، والجبل الراسي [1] الذي لا يحول ولا يزول ، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر ، حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت الى شيء ، حتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بيت عائشة ، وهو مسجّى [2] فكشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه ، فقبّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ، وردّ

(١) الثابت الراسخ . (٢) مغطى ببرد .

البرد على وجهه - ﷺ -.

ثم خرج وعمر يكلّم الناس ، فقال : على رسلك [1] يا عمر ! وأنصت فأبى إلا أن يتكلّم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ! انه من كان يعبد محمدا ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلاّ رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، أفإنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن يَنقلب على عقبيه فلن يَضرّ الله شيئا ،

(١) أي أثبت ولا تعجل .

وسيجزي الله الشاكرين [1] » .

يقول من شهد هذا الموقف : والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبي بكر ، فانما هي في أفواههم ، ويقول عمر : والله ما هو الاّ أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرتُ [2] ، حتى وقعت الى الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله - ﷺ - قد مات .

بيعة أبي بكر بالخلافة :

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة ،

---

(١) سورة آل عمران - ١٤٤ .

(٢) تحيرت ودهشت .

في سقيفة [1] بني ساعدة ، حتى لا يجد الشيطان سبيلا الى تفريق كلمتهم ، وتمزيق [2] شملهم [3] ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسول الله – ﷺ – هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة ، وشملهم منتظم ، وعليهم أمير يتولّى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله – ﷺ – ودفنه .

كيف ودّع المسلمون رسولهم وصلّوا عليه ؟

وهدأ الناس ، وانجلى عنهم ما كانوا فيه من حيرة وغمرة ، وتشاغلوا بما علّمهم

(١) هي صفّة لها سقف كانوا يجتمعون فيها لفصل القضايا ، وكانت دار ندوتهم .
(٢) تمزيق : تفريق .
(٣) شمل : ما اجتمع من الأمر

رسولهم من عملهم لمن فارق الدنيا .

ولما فرغ من غسله وتكفينه - ﷺ - وقد تولّى ذلك أهل بيته ، ووضع سريره في بيته ، وحدثهم أبو بكر أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : ما قبض نبي الاّ دفن حيث يقبض ، فرُفِعَ فراش رسول الله - ﷺ - الذي توفي فيه ، وحفر له تحته ، وتولّى ذلك أبو طلحة الأنصاري .

ثم دخلوا يصلون عليه أرسالا ، دخل الرجال حتى اذا فرغوا ، أدخل النساء ، حتى اذا فرغ النساء ، أدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله - ﷺ - أحد .

وكان ذلك يوم الثلاثاء :

وكان يوماً حزيناً في المدينة ، وأذَّن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي - ﷺ -

بكى وانتحب ، فزاد المسلمين حزنا ، وقد اعتادوا أن يسمعوا هذا الأذان ورسول الله - ﷺ - فيهم ، تقول أم سلمة - أم المؤمنين - : يا لها من مصيبة ، ما أُصبنا بعدها بمصيبة الا هانت ، إذا ذكرنا مصيبتنا به - ﷺ - ، وقد قال النبي - ﷺ - بنفسه : يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو (من المؤمنين) أصيب بمصيبة ، فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيره ، فان أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي .

أزواجه أمهات المؤمنين :

كانت خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية - رضي الله عنها - أولى أزواج النبي - ﷺ - تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ، وماتت

قبل الهجرة بثلاث سنين ، وجميع أولاده - ﷺ - منها غير سيدنا ابراهيم .

ثم تزوج بعد موتها بأيام سودة بنت زمعة القرشية ، ثم تزوج بعدها عائشة ، الصديقة بنت الصديق ، وهي أفقه نساء الأمة وأعلمهن ، ثم تزوج حفصة بنت عمر الخطاب رضي الله عنه ، ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وتوفيت عنده بعد شهرين ، ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية ، وهي آخر نسائه موتا ، ثم تزوج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته أميمة ، وتزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية ، ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، ثم صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، ثم

ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهي آخر من تزوج بها ، وتوفي ﷺ عن تسع زوجات ، وهنّ من ذكرنا غير خديجة وزينب بنت خزيمة ، فقد توفيتا في حياته - ﷺ - .

وتوفي عن سريتين مارية بنت شمعون القبطية المصرية ، أَهداها اليه المقوقس عظيم مصر ، وهي أم ولده ابراهيم عليه السلام ، وريحانة بنت زيد من بني النضير أسلمت فأعتقها ، ثم تزوجها .

أولاده ﷺ :

ولدت له خديجة القاسم وبه كان يكنى ، ومات طفلا ، ثم زينب ، ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، وعبد الله ، والطيب والطاهر ، لقبان له ، وهؤلاء كلهم من خديجة

رضي الله عنها ، وفاطمة أحب بناته اليه ، وأخبر بأنها سيدة نساء أهل الجنة ، وتزوجت علي بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله - ﷺ - فولدت له حسناً وحسينا ، وفيهما قال رسول الله - ﷺ - الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وولدت له مارية القبطية ابراهيم ، فتوفي وقد ملأ المهد ، وقد قال ﷺ حين توفي :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا يا ابراهيم لمحزونون » .

الأخلاق والشمائل

وصفه علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو من أعرف الناس به ، وأكثرهم عشرة له ، وأقدرهم على الوصف والبيان ، فقال :

« لم يكن فاحشا [1] ، متفحشا [2] ، ولا صخاباً [3] في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح [4] ،

(١) أي ذو فحش من القول والفعل ، وان كل استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة .
(٢) أي ولا المتكلف به ، أي ولم يكن الفحش له خلقيا ولا كسبيا .
(٣) اي صيّاحا .
(٤) صفح عنه : أعرض عنه وتركه ، بابه فتح .

ما ضرب بيده شيئاً قط ، الا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادماً ولا امرأة ، ما رأيته منتصراً [1] من مظلمة ظلمها قط ، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فإذا انتهك من محارم الله تعالى ، كان من أشدهم غضبا، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما .

(واذا دخل بيته) كان بشراً من البشر ، يفلي [2] ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه .

ويقول : « لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم

---

(١) منتقما .

(٢) فلى فليا رأسه أو ثوبه نقاهما من القمل .

عليه منه ، من جالسه أو فاوضه [1] في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يردّه الاّ بها أوبميسور من القول

قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة .

... أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة [2] ، وألينهم عريكة [3] ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله - ﷺ - .

وقد كسا الله نبيَّه لباس الجمال ، وألقى عليه محبة ومهابة منه ، ووصفه البراء بن عازب - رضي الله عنه - فقال : «كان رسول

(١) عامله في حاجة أو خالطه .(٢) اللسان .(٣) الطبيعة . ج عرائك

الله - ﷺ - مربوعاً [1] وقد رأيته في حلّة حمراء ، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ، ووصفه أبو هريرة - رضي الله عنه - فقال : «كان ربعة [2] ، وهو الى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية حسن الثغر ، أهدب [3] أشعار العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، (الى أن قال) لم أر مثله قبل ولا بعد ، ويقول أنس - رضي الله عنه - ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله - ﷺ - ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله - ﷺ -

(١) مربوعا : أي وسيط القامة .
(٢) ربعة : الوسيط القامة .
(٣) الطويل الأشعار .

بسم الله الرحمن الرحيم

قصص النبيين

الجزء الأول

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

مجلس نشریات اسلام

۱۔ کے ۔۳ ناظم آباد مینشن ۔ ناظم آباد ۱ کراچی ۷۴۶۰۰